Dr. Mohammad Al-Oreifi





د. محمد العريفي

رحلة حياة

تأملات ودلالات



تأملات ودلالات

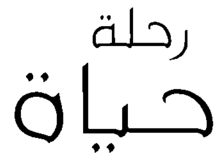
رحلة

حياة



د. محمد العريفي

تأملات ودلالات



د. محمد العريفي

رحلة
حياة

د. محمد العريفي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
1433 هـ - 2012م

النشر والتوزيع والتنفيذ الفني



دار وجوه للنشر والتوزيع
Wojooh Publishing & Distribution House
www.wojoooh.com

المملكة العربية السعودية - الرياض
ت: 4918198 فاكس: تحويلة 108
للتواصل الفني والنشر:
wojoooh@hotmail.com

لايسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب؛ أو نقله في أي شكل أو وسيلة،
سواء كانت إلكترونية أو يدوية أو ميكانيكية، بما في ذلك جميع أنواع تصوير المستندات بالنسخ، أو
التسجيل أو التخزين، أو أنظمة الاسترجاع، دون إذن خطي من المؤلف بذلك.

No part of this publication may be
reproduced, stored in retrieval system, or transmitted, in any form or by any means,
electronic, manual. mechanical, photocopying,
recording, or otherwise without prior written permission of the author.

مقدمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله نبينا محمد (ﷺ)، وبعد:

فإن الحوارات الراقية، المنسجمة مع نداء الفطرة، المثيرة في جانب الحجة، الواردة في أسلوب قصصي شيق، يجعل للكلام معنى آخر، وعمقاً أكبر.

في هذا الكتاب الممتع وقفنا عند مجموعة من الحلقات المهمة والنافعة والواقعية الجاذبة التي قدمها د. محمد العريفي بأسلوبه الشيق، وأعدنا نشرها في صورة كتاب مؤلَّف، يجعل القصة مشبعة بروح (د. العريفي) كأنك تسمعه، وبأسلوب الإمتاع التأليفي كأنك تقرأ كتاب

تاريخ، للتلذذ بالعبارات، وتغوص في أعماق الدلالات والإشارات والتأملات.

ونحن في إدارة النشر بعد الإذن لنا بطباعة الكتاب بعد إتمام صياغته من جديد.. نأمل أن يعيش القارئ في رحاب بهذه الصفحات عالماً آخر من التأملات ، التي تسكب في وجدانه وعقله مقادير كبيرة من الدروس الإضافية في الحياة، والتي لايمل منها من يسمع القصص لعله يتدبر ويتأثر..

الناشر



حوار مع الملحدين !

نبدأ بقصَّةٍ عجيبةٍ، هذه القصة فيها نوعٌ مِن إقامة الحُجَّة على المكذِّبين لوجودِ اللهِ تعالى.. كيف كان السَّلف (رحمهم الله تعالى) يتعاملون مع المُلْحِدين؟.. هل كانوا موجودين في السَّابق؟.. كيف كانوا يناظرونهم؟.. هل هم موجودون اليوم؟.. كيف نستطيعُ أنْ نناظِرَهُم؟..

اليوم مِن خلال مواقعهم في الإنترنت.. مِن خلال كلامهم، ومِن خلال بعض القنوات، كيف نستطيع أنْ نستعملَ القصَّة الواردة عن السَّلف في التَّعامُل معهم؟، هل مِن المصلحة الدُّخول على هذه المواقع والنَّظر فيها ومناقشة أهلها؟.. كيف يستطيع الإنسان أنْ يجمعَ الحُجَجَ الشَّرعيَة مِن أجل أنْ أردَّ عليهم؟.. هذا وأكثر مع قصَّتِنا التالية..

ناظر أبو حنيفة (رحمه الله تعالى) يومًا قومًا مِن السُّومانيَّة، والسُّومانية كانوا مِن الملاحِدة ينكرون وجود الله تعالى، ويقولون إنَّ الكَون وُجِدَ صُدْفَةً.. السَّماء ذات الأبراج والبحر والأمواج وهذه الفِجاج.. كل ذلك إنَّما وُجِدَ صدفةً.. فأبو حنيفة (رحمه الله) ناظر قومًا مِنهم وصار بينهم حوارٌ، فلمَّا طال الحوار اتفق (رحمه الله) معهم أنْ يلتقوا غدًا عند الأمير ليُكْمِلُوا المناظرة، فلمَّا كان مِن الغد؛ تعمَّد أبو حنيفة أنْ يتأخَّرَ عليهم، اجتمع هؤلاء القوم وجلسوا عند الأمير وجُعِلُوا يقولون أين أبو حنيفة؟.. أين عالمكم، فقد تأخَّر؟.. إنَه لا يلتزم بالمواعيد.. تقولون إنَّه قدوةٌ لكم، ومع ذلك يخلف مواعيده، وأبو حنيفة تعمد أنْ يتأخر، ثُمَّ دَخَلَ عليهم، فقالوا له: لماذا تأخَّرتَ؟، أنت تدعي أنَّ الله موجودٌ وأنَّك تخافُ مِن اللهِ، وأنَّ اللهَ سيُحاسبك، أين هذا الكلام كلُّه؟ فقال أبو حنيفة: يا قوم لا تعجَّلوا عليَّ، فإنِّي لَمَّا أردتُ أنْ أجاوِزَ النَّهر لأجل أنْ أصلَ إلى بيت الأمير؛ لم أَجِدُ مركبًا يحملني، فلَمْ أستطع أنْ أَجِدَ قاربًا.. فقالوا: إذن كيف وصلت إلينا؟، قال: حدث شيءٌ عجيبٌ، قالوا: ما هو؟، قال: جئتُ ووقفتُ عند النَّهر، وجعلت ألتفت وألتفتْ وأنظر، لعلَّ اللهُ أنْ يرزقني بقارب يأتي حتى لا أتأخَّر عليكم، يقول: وهكذا صُدفةٌ هبَّتْ ريحٌ عظيمةٌ، ثُمَّ صُدْفَةً انطلقت صاعقةٌ عظيمةٌ مِن إحدى السُّحب، صاعقةٌ كبيرةٌ جدًّا رُبَّما تستطيع أنْ تحْرِقَ البيوت، هذه الصَّاعقة ضربتْ شجرةً بجانبي؛ فقسَمَتْ الشَّجرة نِصفَيْن صُدْفةً، فوقع نِصْفُ الشَّجرة على البرِّ والنِّصفُ الثَّاني في البحر صُدفَةً، وصُدْفةً انطلقت قطعةُ حديدٍ لا أدري مِن أين جاءت صُدْفَةً، وانطلق غصنٌ مِن أغصان الشَّجر ودخل هذا الغُصنُ في هذه الحديدة وتحوَّل إلى

فأس صُدْفَةً، ثُمَّ جُعِلَ هذا الفأس يضربُ هذه القطعة التي في البحر، وجُعِلَ هذا الفأس يضرب هذه القطعة حتى صَنَعَ منها مركبًا صغيرًا.. ثُمَّ صُدْفَةً قفزت صحيفتان مِن الألواح، ثُمَّ صُدْفةً قفز فرعان مِن الأغصان والتصقَ كلُّ صفيحٍ مِنها على غُصْنٍ، ثُمَّ صُدْفةً التصق أحدها عن يمين المركِب والثَّاني عَن يسار المركِب صدفةً، واقترب المركب، فجئتُ ورَكِبْتُ فيه، وجُعِلَ يُجدِّف حتى وصلتْ إليكم.. والآن تعالوا نتناقش هل وُجد ذلك الكون صُدْفةً أم لا؟..

فقالوا له: لحظة.. قِف، هل أنت عاقلٌ أم مجنونٌ؟، قال: بل أنا عاقلٌ، قالوا معقول؟!.. قاربٌ كاملٌ يُوجد صُدْفةً، يعني لو صدَّقنا أنَّه فعلاً الصَّاعقة جاءَت ثُمَّ قَسَمَت الشَّجرة نصفَيْن، وصدَّقناك بأنَّ نِصف الشَّجرة وقع في البرِّ والنِّصف الثَّاني وَقَع في البحر.. معقولٌ؟!!.. فهذه القوارب تحتاج أناسًا كثيرين يصنعونها؛ هذا يضرب بفأسِه، وهذا يطليها بالقار، وهذا يضع الشِّراع، وتحتاج مجموعاتٍ مِن النَّاس يجدِّفون، فهل هذا القارب كله وُجد صُدْفَةً؟..

فقال لهم سُبحان اللهِ!!.. أنتم تقولون إنَّ السَّماوات والأرض والجبال والبحار والإنسان والحيوانات والشَّمس والقمر والنُّجوم، كلُّ هذا وُجِدَ صُدْفةً، ولا تصدِّقوني في أنَّ قاربًا واحدًا وُجِدَ صُدْفةً، فبُهت الذي كفر واللهُ لا يهدي القومَ الظَّالمين..

الإلحاد أيها الأخوة والأخوات، مع الأسف بدأ اليوم يظهر في أوروبا ثُمَّ ينتقل إلينا، رُبَّما لا نستبعد ظهوره في أوروبا وانتشاره؛ لسببٍ وهو أنَّ القوم هناك مُعرضون عن الدِّين، فالقول بأنَّ اللهَ تعالى اتَّخذ عيسى

ولدًا، وأنَّ الله تعالى ليس له إلا ولد واحد، وأنَّ عيسى ليس له أولادٌ، يعني الدَّعوة بأنَّ اللهَ تعالى عنده ولدُ أصلاً هذه دعوةٌ لا يقبلها عقلٌ، وبالتَّالي بدأ القوم هناك ينشغلون بأنواع مِن الشهوات، خاصَّة فئة الشَّباب والفتيات، بدؤوا ينشغلون بأنواعٍ مِن الشَّهوات ولا يلتفتون إلى الدِّين، ثُمَّ دخلوا إلى مسألة الإلحاد.. لماذا؟؛ لأنَّه يُريد أنْ يفعلَ ما يشاء، يُريد أنْ يقعَ فيما يشاء مِن الخمور، ويقع فيما يشاء مِن شهوات فرجِه، يشرب ما يشاء، يأكُل ما يشاء، ينام متى يشاء، يستيقظ متى يشاء، يريد أنْ يفعل ذلك، وبالتَّالي لمَّا كان في قلبه واعظٌ يقول له حرامٌ، اللهُ سيعاقبك في الآخرة، وفعْلُكَ لا يجوز وأنت مؤاخذٌ على هذا، فلما كان هذا الوعظ في داخله؛ أرادَ أنْ يتخلَّصَ مِنه، فليس هناك حلٌّ إلا أنْ يُنكِرَ وجود اللهِ، وأنْ يعتقد الإلحاد، وبالتَّالي أدى هذا بهم إلى الإلحاد.

الإلحاد الموجود اليوم في أوروبا منتشرٌ جدًّا، أنا أذكر قبل أكثر مِن عشر سنوات كنت في إحدى الدِّول الأوروبيَّة، فاطَّلعتُ على إحصائيَّةٍ في هذه الدَّولة، وهذه الدَّولة، بالمناسبة العَلَمُ الخاصُّ بها عليه الصَّليب، بمعنى أنَّها دولةُ مسيحيَّةٌ نصرانيَّةٌ، الكنائس في كلِّ مكانٍ، تمرُّ في جنبات طُرُقِها تجد صورة عيسى (عليه السلام) مصلوبٌ- مع أنَّ هذه صورةٌ كَذِبٌ- فإحصائيَّةٌ عُمِلَتْ عليهم في استبيانٍ وُزِّع، كان ضمن الأسئلة: ما هي ديانتك؟ فقط ١٣٪ منهم كتب الدِّيانة المسيحيَّة. هل دخلْتَ الكنيسة في حياتك، وأنت صغير أو وأنت في المرحلة الدِّراسيَّة أو عند الزواج أو لأيِّ سببٍ؟ هل دَخلْتَ الكنيسة في حياتك؟.. ٧٪ فقط هُم الذين سبق أنْ دخلوا الكنيسة. هل تذهب إلى الكنيسة كلَّ أسبوعٍ؟.. ١٪ فقط هو الذي يذهب إلى الكنيسة كلَّ أسبوعٍ..

لذلك أسأل بعض الناس الذين يأتون يعلنون إسلامهم عندنا في المسجد بعد صلاة الجُمعة، بريطانيٌّ أو فلبينيٌّ أو أمريكيٌّ، يأتي ويكون قد أَسْلَمَ ويأتي ليعْلِنَ إسلامَه، أسأله وأقول له كم مرة دَخَلْتَ الكنيسة؟، ويكون عمره ثلاثين أو أربعين سنةً؛ فيقول ولا مرَّةً دَخَلْتُ الكنيسة، فوجود الإلحاد عندهم والابتعاد عن الدِّين لا نستغربه، لكن لَمَّا يكون الدِّين عندك الإسلام، وفيه يقينٌ في القلب وإيمانٌ بالآخرة وجنَّةٌ ونارٌ وقرآنٌ غير مُحرَّفٍ، فبلا شكَّ أنَّ انتشار الإلحاد معناه أن هناك مشكلةٌ تحتاج إلى علاجٍ..

بل وصل الحال في السابق إلى أقوام يزعمون أنَّهم يخلقون، دخل أحدهم يومًا على أحد العلماء، قال: ألا ترى أني أستطيع أنْ أخلُقَ، قال: أتستطيع أنْ تخلُقَ؟!، قال: نعم، قال: تفضَّل، فأقبل إلى جذعِ شجرةٍ، إلى ساقِ الشَّجرة.. ساقٌ عظيمٌ.. وجُعِلَ يحفر حفرةً في السَّاق ووضع قطعةَ لحم، ثُمَّ أغلق هذه الحفرة التي صنعها في السَّاق، وقال للشَّيْخ: الموعد هنا بعد شهرٍ ألتقي بك، فلمَّا جاء بعد شهرٍ التقى بالشَّيْخ عند هذه الشجرة.. فماذا حَصَلَ؟..

لَمَّا أقبلوا إلى هذه الشَّجرة؛ وقف الشيخ مع هذا الرجل الذي يدَّعي أنَّه يُخْلقُ، حتى إذا جعلَ ينظر إلى هذه الشَّجرة ويتأمَّل في ساقِها؛ أقبل هذا الرَّجلُ ونَزَعَ الغِطاء الذي وضعه على قطعة الَّلحم، فإذا حول هذه القطعة بعض الدُّود، فقال له ذلك الرَّجل: انظر، أنا خلقت الدود.. فقال له العالم: نعم.. ويا ترى كم هو عدد خلقِكَ مِن الدُّود؟، فردَّ وقال: لم أعدهم، قال: خلقت ولا تدري كم عدد خلقِكَ؟!.. كم

منهم إناثٌ وكم منهم ذكورٌ؟، قال: لا أدري.. قال له: هذه الدُّودة التي تمشي وتصعد على الجذع أو تنزل منه أو تمشي على الأرض وتزعم أنك خلقتها؛ إلى أين تذهب الآن؟، ومتى ستموت؟، وماذا ستأكل اليوم؟؛ قال: لا أدري.. فقال له: سُبحان الله أنت خلقتهم ولا تدري عنهم شيئًا.. فبُهتَ الذي كَفرَ.. وتبيَّن هذا المسكين فعلاً أنَّه لا يخلقُ إلا اللهُ؛ لذلك كلُّ مَن يدَّعي شيئًا مِن أنواع الرُّبوبيَّة التي اختصَّ بها الله جلَّ وعلا نفسَه لا يصدِّقُها عقلٌ ولا يصدِّقه حتى عُرْفُ النَّاس الذي يعيشون عليه..

جُبَيْرٌ بن مُطْعَم لَمَّا أقبل إلى المدينة، وكان رسولُ اللهِ (ﷺ) في ذلك الوقت في المدِينة يُصلِّي بأصحابه المغرب، فكان (ﷺ) يقرأ بهم في المسجد، وأقبل جُبَيْرٌ بن مُطْعَم حتى وصل قريبًا مِن المسجد، وهو لم يكن قد دخل في الإسلام بعدً، وجعلَ يُحاولُ أنْ يقابلَ النَّبيَّ (ﷺ) وهو يُصلي بأصحابه، وكان النَّبيُّ (ﷺ) يقرأ في سورة «الطُّور»، وجعلَ (ﷺ) يقرأ في القرآن ويمضي في سُوَرِه حتى قرأ في بعض سُوَرِه قَوْلَ اللهِ جلَّ في علاه: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [سورة الطُّور- الآية ٣٥].. يقول جُبَيْر بن مُطْعَم: فوالله لَمَّا قرأنها؛ كاد قلبي أنْ يطيرَ مِن مكانه، فعلاً هل نحن خُلِقْنَا مِنَ غير شيءٍ أم خُلِقْنا مِن أنفُسِنا؟..

لما سُئل أحد الأعراب، وقيل له كيف عرفت ربك؟؛ فقال: سماءٌ ذاتُ أبراج، وأرضٌ ذاتُ فِجاج، وبحارٌ ذاتُ أمواج، ألا تدلُّ على العليمِ الخبيرِ؟.. لذلك كانوا يستدلُّون على اللهِ تعالى بدِقَّة صَنْعَته، كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ

سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْموْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة الأعراف- الآية ٥٧].. لاحظ ﴿سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾، فهذه الرِّياح تحملُ السَّحاب، فمَن الذي يحكمها إلا اللهُ عزَّ وجلَّ؟ لذلك ربُّنا سُبحانه وتعالى نعرفه في الدُّنيا بأسمائِه وصفاتِه وآثار خلقِه..

لذلك لَمَّا وقف أحد المُلْحِدين يومًا مع طفلٍ، فقال ذلك المُلْحِد لذلك الطِّفل: أنت مُسلمٌ؟، قال: نعم، أنا مسلمٌ، فقال له ذلك المُلْحِد، يعني أنت مسلمٌ تُؤمنُ بوجودِ اللهِ؟، قال: نعم، أنا أومن بوجودِ اللهِ، قال: هل رأيته؟ قال: لا، قال: هل لمسته؟، قال لا، قال: هل شممته؟ قال: لا، قال: هل سمعته؟ قال: لا، قال: هل ذُقته؟ قال: لا.. قال: إذن الله غير موجودٍ.. فأنت لا لمستَهُ ولا سمعتَهُ ولا رأيتَهُ ولا ذوقتَهُ ولا شممتَهُ، حواسك الخمس لم يقع تأثيرها على ربِّك، فذلك يعني أنَّ اللهَ غير موجودٍ، فقال له الغلام، وكان ذكيًّا: هل عندك عقلٌ؟، قال: نعم، فقال له: هل ذُقْتَه؟ قال: لا، قال هل لمسْتَهُ؟، قال: لا، قال: هل شمَمْتَه؟، قال: لا؟، قال: هل سمِعْتَه؟، قال: لا، قال: هل رأيتَه بعينِك؟، هل: رأيت عقلك؟، قال: لا.. قال: إذن أنت مجنونٌ ليس عندك عقلٌ، قال: بل عندي عقلٌ، قال: كيف عرفت أنَّه عندكَ عقلٌ؟، قال: عرفتُه بآثاره، فلماذا نقول: هذا لا عقلَ له؟..

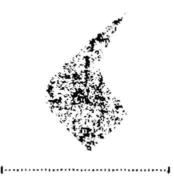
لَمَّا ترى الآثار، لَمَّا يأتي إنسانٌ مُتقدِّمٌ في السِّنِّ، ومع ذلك يركُضُ في الشَّارع عاريًا أو مثلاً يلعب مع الأطفال، أو مثلاً ربما لا ينتبه للسَّيَّارات عندما يُريد أنْ يعبُرَ الشَّارع، فمِن الطَّبيعيّ أنْ يقول الناس هذا لا عقلَ

له، كيف عرفوا ذلك؟ هل فتحوا جمجمتَه ونظروا إلى عقله؟.. كلا، ولكنَّهم لم يروا آثار العقل موجودةً مِن الانضباط والاتِّزان والقُدرة على التَّصرُّف ونحو ذلك، وبالتَّالي لمَّا رأوا إنسانًا مجنونًا؛ عرفوا أنَّه لا عقلَ له؛ لمَّا لم يروا آثاره..

السُّؤال: كيف عَرِفْتَ أنَّ اللهَ تعالى موجود؟.. بآثارِه جلَّ وعلا، بآياته ومخلوقاته في السَّماء والأرض والجبال، بالمُعجزات الباقية إلى هذا اليوم في القرآن العظيم بين أيدينا، كلُّ هذه الآثار التي نراها اليوم تدلّ فعلاً أنَّ ربَّنا جلَّ وعلا موجودٌ.

لذلك كثيرٌ مِن الملاحدة اليوم مع الأسف، ينتهي بهم الأمر إذا لم يدخلوا في الإسلام، ولم يُقرُّوا بوجود المَلِكِ العلام جلَّ وعلا؛ ينتهي بهم الأمر في الغالب إلى الانتحار أو الوقوع في أنواعٍ مِن المخدِّرات حتى ينسى «اللخبطة» الموجودةَ في عقله..

أسألُ اللهَ سُبحانه وتعالى أنْ يجعلَنَا هُداةً مُهتدين، وأنْ يزيدَنا وإيَّاكم يقينًا في ديننا، وأنْ يثبِّتَني وإيَّاكم على الحقِّ، وأنْ يجعلني وإيَّاكم مُباركين أينما كُنَّا..



أرباب من دون الله؟!

كان السَّابقون عندهم مِن التَّصوُّرات والاعتقادات أمور جاء الإسلام فمحاها وأبطلها، ومِن ذلك عبادَتُهم للأصنام، امرؤ القَيس- وهو الشَّاعر المعروف في الجاهليَّة- أقبل إليه رجلٌ وقال: يا امرأ القيس، إنَّ فلانًا قَتَل أباك. قال: قتله؟، قال نعم، قتلَه؛ فعلم امرؤ القيس أنَّه سيبدأ الآن في مرحلة ثأرٍ، فأخذ يشرب الخمر ويقول: اليوم خمرٌ وغدًا أمرٌ، اليوم أُكْمِلُ مُتعتي، وغدًا أتفاهم مع قاتلِ أبي.. فقال «اليوم خمرٌ وغدًا أمرٌ».. فصارت مثلاً..

ولَمَّا ذَهَبَ مِن أجل أنْ يثأرَ مِن قاتِل أبيه؛ أخذ الأقداح إلى الصَّنم، وهي مثل الأطباق الصَّغيرة مكتوبٌ فيها: «افعل»، «لا تفعل»، «افعل»، «لا

تفعل»، مثلاً عددُها خمسةٌ أو عشرةٌ، يأتون بها ثُمَّ يطرحونها في فتحةٍ عند الصَّنم، يُلقون هذه الأقداح، ويخرجُ واحد منها «افعل» أو «لا تفعل» ويُطيعون الصَّنم، فألقى هذه الأقداح.. فماذا خرج مِن الصَّنم؟..

ألقى هذه الأقداح في الصَّنم، وهو يعتقد أنَّ هذا الصَّنم الماثل بين يدَيْه يعلمُ السِّرَّ ويعلم الغَيب؛ فلذلك هم يُعظِّمون هذه الأصنام ويدْعُونها مِن دون الله، وربما نحروا لها النَّحائر وعلَّقوا السُّرج وجعلوا يطوفُون على هذه الأصنام، حتى أنَّك إذا نظرت إلى الكعبة قبل الإسلام؛ لرأيت الأصنام حولها في كلِّ موطنٍ، والكُفَّار يتعبَّدون لها بأنواعِ العبادة ويُعظِّمونها ويعتقدون أنَّها تكشف ضُرَّهم وتشفي مَرَضَهم وتردُّ غائِبَهم وتعرف سرَّهم وعلانيَّتَهم، ويعتقدون ذلك في حجارةٍ والله تعالى أبطل ذلك..

الشَّاهد أن امرأ القيس أقبل بهذه الأقداح أمام الصَّنم ثُم ألقاها بين يَدَي الصَّنم، فخرج قدحُ «لا تفعل»، لا تقتل الذي قتل أباك، فجمعها مرَّةً ثانيةً ودفع أموالا، فحتى يستشير الصَّنم لابدَّ أنْ يدفع مالاً، فدفع المال وألقاها مرَّةً ثانيةً فخرجت «لا تفعل»، فأخذها وجمعها ودفع المال ودفع ثالثًا، فخرج «لا تفعل»، فلما رآه يقول «لا تفعل» «لا تفعل»؛ أخذ الأقداح وضربها في وجه الصَّنم، وقال: لو كان المقتول أباك يا صنم لقلت لي «افعل».. ثُمَّ ذَهَبَ مِن أجل أنْ يقتُلَ قاتِلَ أبيه..

المقصود أنَّهم كان يعتقدون في هذه الأصنام اعتقادات، يقول أبو الرَّجاء العطاردي (رضي الله عنه): كُنَّا في الجاهليَّة نعبُد الأصنام والأحجار، يقول: فخرجنا مرَّةً في سفرٍ وأخذنا معنا الحجر الذي نعبده، خرجنا به

في السَّفر، يقول فكلَّما أردنا أنْ نضع للقِدر حجرًا ثالثًا، فالذي يُريد أنْ يطبخَ طعامَه في السَّفر في هذه الصَّحراء؛ لابدَّ أنْ يضعَ ثلاثة أحجار، ثُمَّ يضع الحطب بالأسفل، ثُمَّ يضع القِدر لينضُج الطَّعام، فأقبل يقول: فإذا بحثنا عن حجرٍ ثالثٍ مُناسبٍ لنضعه تحت القِدر؛ فما نجد، فنُخرج إلهنا الحجر ونضعه، ونقول: هو أدفأ له إذا اقترب مِن النَّار.. قال: فارتحلنا يومًا، وانظر إلى تفاهات العقول في الجاهليَّة، كيف جاء الإسلام وضبطها، قال: فارتحلنا يومًا، فلمَّا ارتحلنا؛ صاح صائحٌ مِن قومي، وقال: ألا إنَّ ربكم قد ضلَّ فالتمسوه، قال: فركبنا كلَّ صعبٍ وذلولٍ نبحث عن إلهنا، يقول وبينما نحن نبحث؛ إذ سُمِعَ صائحٌ مِن قومي يقول: ألا إنِّي قد وجدت ربكم أو ربًّا يشبهه، قال: فأقبلت فإذا قومي ساجدين عند صنمٍ فأتينا فنحرنا عنده الإبل.. وأنا أعلم أنَّكم تضحكون مِن ذلك وتضحكون أيضًا مِن عمر بن الخطاب عندما كان يقول: لم يكن عندي مالٌ لأشتري صنمًا، يقول: فكنت آخذ تمرًا عندي وأصنع منه صنمًا وأصلِّي له، فإذا جُعتُ أكلتُه..

هذه التَّفاهات في عبادة أشياء تافهةٍ لا تضرُّ ولا تنفع، لا تزال إلى اليوم موجودةً، مثلا لو ذهبت اليوم إلى سريلانكا أو اليابان بتطوِّرها وازدهارها حتى فاقت العالم في التُّكنولوجيا، ومع ذلك لم يهتدوا أنْ يعبدوا اللهَ وحدَه لا شريكَ له، ما يزال كثير منهم يدين بديانة البوذيَّة.. اذهب إلى كوريا أو الصِّين مع التَّطوُّر الذي تشهده، وإذا نظرت إلى البوذيِّين وكيف يتعبَّدون إلى اليوم لأصنامهم وكيف يتقرَّبون إليها وعندهم مِن الشَّعائر والتَّعبُّدات أشياء تعجب كيف أنَّ عقولَهم تجيز لهم عبادة صنمٍ مِن ذهبٍ أو حجرٍ صنعته أيديهم.. يصنع ربه، ثُمَّ إذا

انتهى من صناعته وضعه أمامه وقال له اغفر لي!!... يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [سورة الحَجّ- الآية ٧٣]، ويقول تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [سورة فاطر- الآية ١٤]، فبيَّن الله جلَّ وعلا هنا هذه الأصنام التي يعبدها أولئك البوذيُّون والتي عُبِدَتْ مِن قبل أنها لا تضرُّ ولا تنفع.

وأعجبُ مِن أمثال هؤلاء، مثلاً في الصِّين اليوم أو اليابان أستاذٌ جامعيٌّ أو طبيبٌ أو مهندسٌ أو رجلٌ مخترعٌ، ثُمَّ يأتي ليلبَس لباسَهم الأحمر، ويأتي يهزُّ رأسَه عند الصَّنم أو يطوف عليه أو يمشي بين يدَيْه أو يسأله المغفرة والرَّحمة والتَّجاوز، أو يسأله أن يشفي مريضه أو يُذهِبُ همَّه وغيظَه!!

وزِد على ذلك حال أولئك الذين يذهبون إلى القبور يدعونها مِن دون الله.. يأتي إلى قبرٍ قد بُني فوقَه مشهدٌ، ثُمَّ يتمسَّح في هذا القبر ويسأله المغفرةَ والشَّفاعةَ والرَّحمة والتَّوبة، يا أخي أنفِق الأموال لأجل بناء تعليمٍ ومواصلاتٍ، أو مِن أجل البنية التَّحتيَّة في البلد، بدل مِن أنْ تنفقَ الملايين في هذا.. ومع ذلك يأتون إلى ذلك القبر يدعونه مِن دون الله، يرجون منه رحمةً، ويُقبِّلون أعتابه، ويجعلون برَّهُم ومسكنَتَهم مُعلَّقةً به.

فما الفرق بين الذي يأتي قبرًا أمامه ويتمسَّح ويرجو فيه البركة، وبين أولئك الذين كانوا يتمسَّحون بها يتمسَّحون به مِن معبوداتهم، والله جلَّ

وعلا سُبحانه لا يرضى أنْ يُعْبَدَ معه أحدٌ، ﴿وأنَّ المساجد لله فلا تدعو مع اللهِ أحدًا﴾، لا يجوز أنْ يُصرف أي شيءٍ مِن أنواع العبوديَّة لغيرِ اللهِ عزَّ وجلَّ أبدًا، والذي لا يستطيع أنْ يدفع عن نفسه الذُّباب إذا وقف عليه؛ لن يستطيع أن يكشف عنك ضرَّك، ولا يجلب إليك نفعًا أبدًا.

وكان السَّابقون مِن أصحاب النَّبيِّ (ﷺ) يعقِلون مثل هذا ويفهمُونه.. لمَّا هاجر مُصعب بن عُمير (رضي الله عنه)؛ بعثه النَّبيُّ (ﷺ) إلى المدينة، وهو أوَّل سفيرٍ في الإسلام، بعثه إليها مِن أجل أن يدعو أهلها إلى الإسلام ويدعوهم إلى الخير، فلمَّا وَصلَ إلى هناك؛ جعل يدعوهم إلى الإسلام ونبْذِ عبادة الأصنام، أسلمَ أربعةُ أبناءٍ لعمرو بن الجَموح (رضي الله عنه)، وعمرو بن الجَموح صحابيٌّ جليلٌ وكان فيه عرجٌ في رِجله وأسلم أربعةٌ مِن أبنائه، ثُمَّ أرادوا مِن أبيهم أنْ يدخلَ في الإسلام، وكانت أُمُّهم أسلمَتْ أيضًا، قالوا: يا أبانا قد جاء رجلٌ إلى هذا البلد يدعو إلى عبادة اللهِ، لماذا لا تذهب وتستمع منه؟، قال: لا، أنا عندي مناف، عندي الصَّنم، قالوا له اذهب واستمع، ما يضرُّك؟، فذهب إلى مصعب بن عمير، وجلس وسَمِعَ منه القرآن، فحصلت له قِصَّةٌ عجيبةٌ مع صنمه؟..

لمَّا ذهب عمرو بن الجَموح (رضي الله عنه) يمشي في طرقات المدينة، ولم تكن المدينة مثل حالها اليوم، بل بيوتٌ قديمةٌ وأشجارٌ، أقبل حتى وقف بين يدَيْ مصعب بن عمير، قال: إلامَ تدعو؟، قال: أدعو إلى عبادة اللهِ وحدَهُ لا شريكَ له، وإلى الإيمان برسولِ اللهِ محمَّدٍ (ﷺ).. فقرأ مُصعب القرآن على عمرو بن الجموح فأُعْجِبَ به، ولكنَّه قال: إنَّ لنا

مشاورة في قومنا، أنا سيِّدٌ مِن سادات قومي، فلا أستطيع أنْ أتَّخِذَ القرارَ الآن، فرجع ودخل على مناف الصَّنم، وقال: يا مناف إنَّ الرجل يريد كسرَكَ.. قد عرفتَ بمقدمه، يا مناف ما تقول؟، فقال: لعلَّك غضبت الليلة، أنا أتركك للغد، فلمَّا كان مِن الليل أقبل أبناؤه إلى الصَّنم منافٍ، ثُمَّ أخذوه وألقوه في مزبلةٍ وراء البَيْت..

استيقظ الأبُ في الصَّباح وذَهَبَ إلى مناف، أين مناف؟!، أين ربنا؟!، قالوا: ما ندري، فجعل يبحث في جوانب البَيت حتى رآه في المزبلة التي بالخلف، فقال له: أنت ما استطعت أنْ تدفع عن نفسِكَ عبثَ النَّاس بك، وأنا أريدُك أنْ تشفِيَ مرضي وتقضي دَيني وتردُّ غائبي، ومع ذلك أخذه وغسله وطيَّبه ووضعه في البيت.. ثُمَّ قال: يا مناف يبدو أنَّك غضبت الليلة لأنَّهم أهانوك، فجاء الليل فعلق عليه سيفًا، وقال: يا مناف إنَّ العنزة لتمنع إستَها، فما بالي بك أنت؟، هذا السَّيف تدافعُ به عن نفسك، ثُمَّ جاء الليل، فأقبل أبناؤه ونزعوا ذلك السَّيف، وأخذوا مناف وربطوه مع كلبٍ ميِّتٍ، ثُمَّ ألقوه بعد ذلك في بئرٍ مُعطَّلةٍ ليس فيها ماء، فلمَّا أصبح الصَّباح بَحَثَ عن مناف؛ فلم يجده، ثُمَّ قال: مَن عدا على إلهنا؟، فقالوا: ما ندري، ثُمَّ مضى ونظر في البئر؛ فرأى الإله الذي يعبده، الصَّنم، رآه مربوطًا مع هذا الكلب، فجعل يقول:

ورب يبــول الثُّعــلبان برأســه ... لقد خــاب مَن بالت عليه الثعالب

وفي رواية أنَّه قال:

والله لــو كــنت إلهَــا لم تكن ... أنت وكلــــب وسط بئرٍ في قرن

ثم مضى بعد ذلك إلى مُصعب بن عُمير ودخل في الإسلام..

إنَّ مَن تعلَّق بشيءٍ- غير الله جلَّ وعلا عند مسكنته أو عند مرضه، أو عند حزنه...- وُكل إليه، سواء مَن تعلَّق بقبرٍ أو تعلَّق بصنمٍ أو كان هندوسيًّا وتعلَّق ببقرةٍ، فعلا تعجب مِن أمثالِ هؤلاء الذين يعبدون مِثل تلك المعبودات، الإنسان بفطرتِه يحبُّ التَّعبُّد، لابدَّ أنْ يعبُدَ شيئًا، فأوحى اللهُ جلَّ وعلا إلى أنبيائِه أنْ يُعلِّموا النَّاس أنْ يعبدوا اللهَ تعالى وحده لا شريكَ له، ولو أنَّك نظرَتَ اليوم إلى أنواعِ مِن المعبودات؛ لعجبت، في الهند مثلاً يعبدون كلَّ شيءٍ، وترى أَحدهم على علوِّ مكانَتِه، ربما يجري وراء بقرة ليتقرَّب إليها ويعبدها، رُبما سدَّت البقرة عليهم الطَّريق وهم ما يزالون يخشون مِن تحريكها من مكانها وهي بقرة(!!)، وربما جاء أحدهُم وبذَلَ مِن المال والعبادة والتَّقرُّب إلى البقرة ما لا يبذله رُبما إلى والدَيْه وأولاده.. بقرةٌ؟!!.. حيوانٌ؟!!..

مِثل ما قال اللهُ تعالى لمَّا ذَكَرَ عبادة بعض النَّصارى لعيسى (عليه السلام)، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سورة الأعراف- الآية ١٩٤].. عيسى (عليه السلام) عبدٌ للهِ، كيف تعبده أنت؟!، كذلك هذه البقرة هي تعبد الله تعالى، فإنَّ اللهَ تعالى قال في كتابه الكريم: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ [سورة الإسراء- الآية ٤٤].. فهي أيضًا تبحثُ عن نجاتها يوم القيامة، ذلك أنَّ يوم القيامة يُقضى بين الحيوانات، ثُمَّ قال النَّبيُّ (صلى الله عليه وسلم): إنَّ يومَ القيامة يُقاد للشَّاة الجمَّاء مِن الشَّاة القرناء،

الشَّاة الجمَّاء التي ليس لها قرنٌ، إذا كانت القرناء قد قرنَتْها في الدُّنيا يُؤخذ القرنان ويُوضعان للأخرى ثُمَّ تنطِحُها كما نطحَتْها في الدُّنيا [رواه البُخاريُّ]، فهذه أيضًا، البقرة تبحث عن نجاتها يومِ القيامة، وهي تعلم أنَّه سيُنْتَقَمُ منها؛ لأنَّ اللهَ تعالى لن يعاقِبَ ويعذِّب يوم القيامة إلا إذا كان أنذر في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [سورة الإسراء- مِن الآية ١٥].. هذه لها مشاعر، ومع ذلك يأتي هذا الرَّجُل، وربما كانت شهادته عالية ويركُض وراء البقرة ليتقرَّب إليها ويتعبَّد لها..

الإنسان إذا هجَرَ وتَرَكَ عبادة اللهِ وإخلاص التَّوحيد له وحده لا شريكَ له؛ فإنه لا يُساوي عند الله تعالى جناحَ بعوضةٍ.. قال (عليه الصَّلاة والسَّلام): «لو كانت الدُّنيا تُساوي عند اللهِ جَناح بعوضةٍ ما سَقَى الكافرَ منها شربةَ ماء» [رواه البُخاريُّ].. إذا كانت الدنيا كلُّها، فما بالك بهذا الكافر؟!، لذلك أحذِّر مِن أنْ يعود النَّاس اليوم لأنواعٍ مِن الشِّرك..

يقول النَّبيُّ (ﷺ): «لن تقومَ السَّاعة حتى تضطرب إليات نساء دوس على ذي الخرصة» [رواه البُخاريُّ].. ذو الخرصة هو صنمٌ كانت تعبده دوس في الجاهلية، ودوس هي قبائل اليوم تعيش في جنوب المملكة، فكان عندها صنمٌ في السَّابق اسمه ذو الخرصة، فكان يقول (عليه الصَّلاة والسَّلام) مُخبرًا أنَّ الناس سيعودون إلى عبادة الأصنام، فيقول (ﷺ): «لن تقوم السَّاعة حتى تضطرب إليات نساء دوس على ذي الخرصة»، بمعنى أنَّ الناس سيبدؤون مع الأسفِ يبتعدون عن التوحيد حتى يقعوا في أنواعٍ مِن الشِّرك..

وتجد اليوم فعلا تعظيم بعض القبور والطَّواف والبكاء عندها بكاءً رُبما لا تجده في المساجد، ثُمَّ يقول: نحن نعبد الله!!.. الحقيقة أنَّك لا تعبد اللهَ، إذا أردتَ أنْ تعبدَ اللهَ فاعبده مخلِصًا له الدِّين مُوحِّدًا له، ولا تُصَرِّف شيئًا مِن عبوديَّتِك وبكائِك وخشوعِك واستغاثتِك ودعائِك وصدقتِك، لا تُصرِّفُها لغير الله تعالى، لا لقبرٍ تُعظِّمُه ولا تصرفها في عبادة شيءٍ مِن المخلوقات، وإنَّما تُصَرِّفُ ذلك كلَّه لعبادة الله وحده لا شريكَ له..

أسألُ اللهَ تعالى أنْ نلقاه ونحن مُوحِّدون له وحده لا شريكَ له، وألا نكون ممَّن يقعون في شيءٍ مِن الشِرْك..





وقفات مع أصدقائنا النصارى

أرسل اللهُ تعالى الرُّسل جميعًا بعقيدة واحدة، كما قال اللهُ جلَّ في عُلاه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [سورة إبراهيم- مِن الآية ٤].. ماذا يُبيِّن لهم؟.. بيَّن الله تعالى ذلك في آيةٍ أخرى، قال جل في علاه: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [سورة المؤمنون- مِن الآية ٣٢].. كلُّ الأنبياء جاءوا لأقوامِهم يقولون لهم اعبدُوا اللهَ ما لكُم مِنْ إلهٍ غيرُه؛ لذلك الأقوام الذين وقعوا في الشِّرْكِ ووقعوا في عبادة غير اللهِ نسبوا إلى الله تعالى ولدًا فعبدوه معه، كما فعلت اليهود كما قال جل وعلا: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ [سورة التَّوبة- مِن الآية ٣٠].. طبعًا هؤلاء لماذا قالوا عزير

ابن اللهِ؟.. قالوا إنَّ عزيرًا هو ابن اللهِ لأنَّ عُزيْرًا كان نبيًّا صالحًا، وكان يجلس يتعبَّد للهِ تعالى، وكان الرِّزقُ يأتيه مِن السَّماء، فقالوا لا يرزقه إلا أنْ يكون أباه، فنسبوه إلى الله، وقالت النَّصارى المسيح ابن الله..

تعالوا نقف اليوم مع أصدقائنا النَّصارى، منهم أصدقاءٌ لي شخصيًّا ولغيرِي أيضًا، منهم جيرانٌ لي ولغيري، بيني وبينهم علاقةٌ لطيفةٌ، وبيني وبينهم ضحكٌ ومُؤانسةٌ، بعضهم دَرَس معي عددا مِن الدَّورات، وإلى الآن ربما أنَّ بعضهم يراني وهم أصدقاءٌ لي، وإنْ كانوا نصارى وغير مسلمين، والنَّبيُّ (عليه الصَّلاة والسَّلام) كان عنده جيرانٌ مِن اليهود، وكان يرسل إلى المقوقس النَّصرانيِّ هديَّةً ويقبل هديَّته، فهذه رسالةُ اليوم؛ جلسةٌ مع أصدقائي مِن النَّصارى، وقصَّةٌ وَقَعَتْ لي مع صاحب التَّاكسي، وهي قصَّةٌ عجبٌ ستتعجبُّون منها.

كُنتُ مرَّةً في مِصر، فكنتُ حاضرًا لمعرض الكتاب هناك، فأردتُ أنْ أستأجر تاكسي لأجل أنْ يوصِّلَني المطار، فوقفتُ في الطَّريق وأشرتُ لتاكسي، فأقبل سائقٌ شابٌّ وركبت معه إلى المطار، اتَّفقت معه على مبلغٍ مُعيَّنٍ، فلمَّا كُنَّا في وسط الطَّريق؛ جعلْتُ أتحدَّث معه، كيف حالك؟، إنْ شاء الله بخير.. أتتعب؟، فقال: والله نتعب شويَّة، ولكن الواحد يتحمَّل مِن أجل أولاده وكذا، فقلت له: أنت تعبك على أولادك وأنت مأجورٌ عليه.

ثُمَّ أثناء سواقته مع الزِّحام لاحظتُ أنَّ في يده صليبًا، وشْمٌ على شَكْلِ صليبٍ، فقلت له: ما هذا؟، فقال: هذا صليبٌ، فقلت: ولماذا وَضَعْت

صليبًا؟، قال: لأنّي مسيحيٌّ، قلت: ما اسمك، قال: فلانٌ، وليكن ياسر، قلت له: طيِّب يا ياسر، هل تقبل مني أنْ أتحدَّث معك عن المسيحيَّة والإسلام، قال: نتكلَّم، فقلت له: أنت يا ياسر الآن تقول إنَّ عيسى ابن اللهِ، أليس كذلك؟، قال: نعم، عيسى هو ابن ربِّنا، قلت له: فإنَّ اللهَ يُحبُّ أنْ يكون له أولادٌ؛ لذلك عنده ولدٌ اسمه عيسى، صح؟، قال: نعم، قلت: طيِّب يا ياسر ما دام اللهُ يُحبُّ أنْ يكون عنده أولادٌ وفكرة وجود الولد موجودةٌ عند اللهِ واللهُ يُحبُّ الأولاد، فلماذا يكون عنده ولدٌ واحدٌ؟، قال: واللهِ هو ربّنا يُريد ذلك، قلت له: لا ليس اللهُ الذي يُريد ذلك، بل أنتم قلتم كِده.. نقطةٌ أخرى ما دام اللهُ عنده ولدٌ اسمه عيسى، لماذا عيسى ما صار عنده أولادٌ أيضًا، وما دام اللهُ عنده أولادٌ فلماذا اللهُ ليس لديه أبٌ وأُمٌّ أيضًا؟، فيجب أنْ يخبرنا اللهُ بهم حتى نعبدهم لأنَّهم حقٌّ أيضًا: قال: لا أعلم هو ربّنا كِده..

قلتُ: مسألةٌ أخرى، أنت تقول إنَّ عيسى (عليه السلام) هو ابن اللهِ، وقد صُلِبَ ليكفِّر الخطيئة، قال: نعم، قلتُ: أيُّ خطيئةٍ؟، قال: خطيئةُ آدم، قلتُ: ما هي خطيئة آدم؟، قال: آدم لمَّا ربّنا أدخله الجنَّة؛ دَخَلَ الجنة وأكل ثمرةً مِن شجرةٍ فعاقبه اللهُ تعالى على هذه الخطيئة عقوبةً عظيمةً لم يُكفِّرها ولم يمسحها عنه وعن ذرِّيَّتِه جميعها إلا أنْ يُنْزِلَ ولده الوحيد ليُصْلَب حتى يكفِّرَ اللهُ خطيئة آدم، قلتُ: ممتاز.. يعني اللي عمل الخطيئة آدم أم عيسى؟، قال: آدم، قلتُ: ما دام آدم الِّلي عمل الخطيئة؛ فما ذنبُ عيسى يُصْلب؟، يُصْلَبُ آدم، قال: والله أنا لا أعلم، ولكن هي كذلك..

قلتُ: له الذَّنب الذي فعله آدم، ما هو؟، قال: أَكَلَ ثمرةً مِن شجرةٍ، قلت: يعني آدم ما اقتلع الشَّجرة مِن جذورها، قال: لا، قلتُ: آدم لم يقتل مَلَكًا مِن الملائكة؟، قال: لا، وإنَّما هي معصيةٌ صغيرةٌ، أَكَلَ ثمرةً مِن شجرةٍ.. قلتُ: هذه المعصية الصَّغيرة لا يُكفِّرُها ولا يمسحها إلا أنْ يُنزِّلَ اللهُ ولدَه الوحيد ليُصلب؟!، كان يُمكن للهِ أنْ يُكفِّرَ هذه الخطيئة بأشياءَ أخرى، يمنعنا شُرب الماء البارِد، يُلزِمُنا يوميًّا أنْ نجلس في الشَّمس فترةً مُعيَّنةً، يفرِضُ علينا مائةَ صلاةٍ، يأمرنا بدفع نِصف أموالنا زكاةً أو أيَّة عقوبة أخرى، ثم إن الخطيئة والكفَّارة دائمًا يكون بينهما تناسبٌ، فمثلا لما يأتي ولدي، وأنا أعمل على الكمبيوتر، وأقوم لأُنهي حاجةً؛ يأتِي ولدي مُتعمِّدًا، وهو عمره عشر سنواتٍ، ويعبث بالكمبيوتر، فقد أُعاقبه بأنْ أصْرُخَ فيه: يا ولد لا تلعب مرَّةً أخرى بالكمبيوتر، هذا نوعٌ مِن العِقوبة، لكن متوافقٌ مع الخطأ.. ولو أردتُ أنْ أعمل كفَّارةً؛ أقول له: يا ولد الكَّفارة أنْ تكتب مِن جديدٍ الكلام الذي أنا كتبته، هذه كفَّارةٌ، لكن لو جاء الولد مُتعمِّدًا، وأخذ الشَّاي وصبَّه على لوحة المفاتيح أو الكمبيوتر، فهذا خطأٌ أكبر يحتاج إلى كفَّارةٍ أكبر وعقوبةٍ أكبر، كلَّما عظُمَت الخطيئة؛ عَظُمَت الكفَّارة، الخطيئة التي عملها آدم أنْ أكلَ ثمرةً مِن شجرةٍ، يعني لا يُكفِّرها إلا أنْ الله ينزِّلَ ولدَه الوحيد ليُصْلَب؟!.. إذن لو أنَّ آدم عمل خطيئتَيْن: الأولى كفَّرها اللهُ بصَلْب ولدِه، فبماذا يُكفِّر الخطيئة الثَّانية؟!..

قلتُ له: اسمع ياسر، أنت الآن تقول عيسى ابن اللهِ، فكيف صُلب؟، ونحن نعلم أنَّ المسيحَ لم يُصْلَبْ وقد رفعه الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا

قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [سورة النِّساء- الآية ١٥٧]، قال لي: جاء اليهود وأمسكوه ووضعوه على الصَّليب وربطوه ودقوا المسامير في يدَيْه ورجلَيْه، ثُمَّ صبوا عليه الخلَّ ومزَّقوا جسده وصُلِبَ، قلت له: هل تألَّم؟، قال: نعم.. تألَّم كثيرًا جدًّا.. بشكلٍ كبيرٍ، قلتُ له: طيِّب، ربُّ العالمين، أبوه كما تزعُم، كان ينظر إليه؟، قال: نعم، كان يسمع صُراخه؟، قال: نعم، كان يقدِر أنْ ينقِذَه؟، قال: نعم، طيِّب لماذا لم ينقذه؟، قال: لكي يُكفِّرَ خطيئتَنا، قلت: طيِّب لماذا لم يستعمل الرَّبُّ طُرُقًا أخرى لتكفير الخطيئة؟، لماذا يُعذِّب ولده الوحيد حتى يُكفِّرَ خطيئة آدم..

ثم سألته سؤالا: الآن عيسى لما صُلب؛ هل كفَّر خطيئةَ النَّاس الذين ماتوا، أم الذين ماتوا ماتوا بخطيئَتِهم؟، قال: لا، هو كفَّر خطيئةَ مِن عيسى ومَن جاء بعده، قلت له: طيِّب ملايين النَّاس الذين ماتوا ما بين عيسى وآدم؛ هل يلقون الله بخطيئَتِهم؟.. لماذا اللهُ لم يبْعَث عيسى قبل ذلك بألفِ سنةٍ أو ألفَيْ سنةٍ حتى يُكفِّر أكبر قدرٍ مُمكنٍ مِن الخطايا؟، قال: هوَّ ربّنا عايز كده.. قلتُ له: اسمع، قلتَ عيسى تقول إنَّه ابن الله، يعني هو إلهٌ والإلهُ يفعل ما يشاء، قلتُ: افرض أنَّ عيسى أراد شيئًا والله أراد شيئًا آخرَ، يعني مثلاً اللهُ أراد أنَّ فلانًا يموت اليوم السَّاعة الخامسة، وعيسى ابن اللهِ أراد أنَّ فلانًا يعيش إلى غَدٍ، مَن الذي يمشي كلامه؟ الله أم عيسى؟.. لَمَّا سألته هذا السُّؤال قال: يمشي كلام ربِّنا، قلتُ: أيُّ ربٍّ؟، أنتم عندكم ثلاثة أرباب، اللهُ والابن والرُّوح القدس،

قال: كلام ربِّنا الآب، قلتُ: إذن عيسى ليس إلهًا؟، ما دام عيسى ما يمشي كلامُه، فكيف أنَّ إلهًا لا يمشي كلامُه، إذن هو ليس إلهًا، فقال: يمشي كلام عيسى، قلتُ: إذن الرَّبُّ ليس إلهًا؛ لأنَّ الولد يُمشِّي كلامه والرَّبُّ لا يُمشِّي كلامَه، فليس إلهًا، فمِن شروط الإله أنْ يفعل ما يشاء.. قال لي: أتعرف، يمشي كلامهم كلهم، قلت: لا يمكن أنْ يمشي كلام اثنَيْن مع بعضٍ، يعني يكون ميِّتًا وحيًّا في نفس الوقت، قال: يا أخي ما يمشيش كلام حد، قلتُ: كيف وكلُّهم آلهةٌ؟!!..

لذلك فالأمر كما قال الله عز وجل: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ [سورة المؤمنون- من الآية ٩١]، ثُمَّ قال تعالى لو فرضنا أنَّه مع اللهِ إلهٌ آخرَ ﴿إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [سورة المؤمنون- من الآية ٩١].. الشَّاهدُ أَنَّ اللهَ جلَّ جلالُه لم يتَّخذ ولدًا، ولم يكن له شريكٌ في المُلْكِ، ولم يكن له وليٌّ مِن الذُّلِّ، وسبحانه وتعالى، وعلا عُلوًّا كبيرًا..

فلمَّا تناقشتُ معه بمثل ذلك؛ قلتُ له: اسمع يا ياسر، قلتُ: والله أنا لك ناصحٌ، وأنا أحبُّ لك الخير، والله جلَّ وعلا كما قال سبحانه لو أراد اللهَ أنْ يصطفي ولدًا، لو أراد اللهُ أنْ يتَّخذ ولدًا؛ لاصطفى مِن خلقِه ما يشاء، اللهُ تعالى غير مُحتاج للأولاد، والله تعالى لم يلدْ ولم يُولدْ ولم يكن له كُفُوًا أحد؛ لذلك يا جماعة لأنَّ فكرة المسيحيَّة، وأنا حقيقةً أقولها ناصحًا ومُحبًّا، ووالله أحبُّ لهم الخير، أنا تعاملت مع عددٍ مِن المسيحيِّين، وكما ذكرت بيني وبينهم هدايا وبيني وبينهم صداقةٌ، وأحيانًا أعزمهم ويعزمونني، فلا أُريد أنْ يموت على عقيدةٍ وهو يقول:

يا ربِّ أنت ثالثُ ثلاثةٍ، أنا يا ربي لا أعبُدُك وحدك؛ بل أعبد معك اثنَيْن أيضًا، وهذا لا يجوز، وهذا شركٌ بالله العظيم، يقول تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً (٨٩) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً (٩١) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً (٩٢) إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً (٩٥)﴾ [سورة مريم].. لا يجوز أنْ يزعُمَ الإنسان أنَّ الله جلَّ وعلا اتَّخذ ولدًا.

واللهُ واحدٌ لا شريكَ له، المسيح ابن مريم هو نبيُّنا وسيِّدُنا، وهو نحبُّه أكثر ممَّا نحبُّ الصَّحابة الكِرام، نحبُّ رسولَنا مُحَمَّدًا، ونحبُّ عيسى (عليه السلام)، نحبُّ جميع الأنبياء، نحبُّهم أكثرَ مِمَّا نُحِبُّ أنفسَنَا، بل يجبُ علينا الإيمان به كما نؤمن بغيره مِن الأنبياء، يقول تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [سورة البقرة- مِن الآية ٢٨٥].. لا نفرِّقُ بين أحدٍ مِن رسله، ولا يجوز للإنسان أنْ يُزْعُمَ أبدًا أنَّه يكفر بعيسى أو بمُوسى (عليهم السَّلام)، بل نُؤمن به، ولا يُوجد أبدًا نص، أبدا ولا في الإنجيل، وأنا أدعو العقلاء مِن إخواننا مِن النَّصارى، أدعو العقلاء منهم أنْ ينظروا في الإنجيل، فلن تجدوا في الإنجيل أبدًا كلمة أنَّ عيسى قال أنا ابن اللهِ، لن تجدها أبدًا، بل حتى الأناجيل الأربعة الموجودة اليوم، نفس النَّصارى لا يستطيعون أنْ يقولون لك إنَّ هذا الإنجيل هو الصَّحيح وغيره هو الخطأ وهذا هو الصحيح، إلى الآن لم

يتَّفقوا على أنَّ هذه أيُّها كلامُ اللهِ.. أيها تكلَّم اللهُ به..

كَوْن الإنسان يبقى على عقيدةٍ مُضطرِبَةٍ ويعلم أنَّ عيسى (عليه السلام) وهو نبيُّنَا وسيِّدُنا أيضًا، يعلم أنَّه بَشَّر بنبيٍّ مِن بعده اسمه أحمد، قد بشَّر وقال لقومه مِن المسيحيِّين ومِن النَّصارى سوف يأتي رسولٌ من بعدي اسمه أحمد، وأمر باتِّباعه، ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [سورة الصَّفُّ- مِن الآية ١٠]، وجاء نبيُّنا وحبيبُنا (عليه الصَّلاة والسَّلام)؛ فوَجَبَ على الجميع أنْ يتَّبِعَه، لذلك لَمَّا أقبل عمرو بن العاص مصر وفتح المسلمون مصر، وكان عددٌ مِن أهلها على عقيدة المسيحيَّة، والنَّصارى لَمَّا رأَوْا الإسلام ورأَوْا سماحته ورأوا أنَّ الإسلام إنَّما جاء بعد دين المسيح عيسى، وأنَّ دينَ المسيح عيسى كان لقومِه في عصره، ثُمَّ بعث اللهُ تعالى مُحَمَّدًا (عليه الصَّلاة والسَّلام) ليكون خاتَم النَّبيِّين، وليكون هو مُرسلا إلى النَّاس جميعًا.. عندها اتَّبعوه وأَسْلَمَ آلاف النَّاس..

اليوم واللهِ أعرف أعدادًا كبيرةً مِن دكاترة الجامعات كانوا نصارى مِن مهندسين، بل ومِن قساوسةٍ، كانوا نصارى ودخلوا الإسلام..

وأنا أقول الآن لأصدقائِنا مِن عُقلاء النَّصارى، وأنا أحبُّ لهم الخَير، وربما يسمعني منهم: هل تذكُر في يومٍ مِن الأيَّام أنَّ قِسِّيسًا مِن قساوسة النَّصارى تحوَّل مُسلِمًا؟، سيقول لكَ: نعم، أعرف عددًا مِنهم كانوا نصارى، قساوسةٌ وتحوَّلوا مسلمين، مثل الشَّيْخ يُوسف إستس الأمريكيّ ومِثل عددٍ مِمَّن كانوا نصارى وتحوَّلوا مسلمين، قساوسةٌ ولهم كتبٌ وبرامجٌ في التِّليفزيون وعندهم مواقع في الإنترنت، كانوا

قساوسةً وليسوا قومًا عاديِّين، طيِّب هل تذكر أنَّ شَيْخًا أو عالِمًا مِن عُلماء المسلمين تحوَّل للنَّصرانيَّة؟.. لا.. لماذا؟.. لماذا قساوسة النَّصارى يتحوَّلون مسلمين، عُلماء النَّصارى وشيوخهم يتحوَّلون مُسلمين، وشُيوخ المسلمين وعلماؤهم لا يتحوَّلون نصارى، لماذا؟ أنا لا أتكلَّم عن العوام ولكن عن الرُّؤوس، لماذا قسِّيسٌ يتعمَّد أنْ يتركَ دينَه ويدخل في دين الإسلام مُتَّبِعًا لوصيَّة عيسى (عليه السلام)؟..

إذا أنت فعلاً تُحبُّ المسيح عيسى ابن مريم (عليه السلام)؛ فاتَّبعه، والمسيح ابن مريم ما قال اعبدوني، بل قال اتَّبعوني، كما قال تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ... الآية﴾ [سورة مريم].. هذا كلام عيسى، ما قال إنِّي الله ولا قال إنِّي ابن الله؛ بل قال عَبْدُ اللَّهِ.. ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً (٣١)﴾ [سورة مريم].

وأنا أقول حقيقةً، أنا أحبُّ الخَير، كما أنَّ غيري مِن المسلمين يحبُّ الخَيْر للجميع، والله إنِّي أحبُّ الخير للمسيحيين، أحبُّه للنَّصارى وأحبُّ الخير أيضًا للمسلمين.. الإنسان أيُّها النَّاس يبحث عن نجاتِه وعن صفاءِ توحيده وعن صفاءِ عقيدتِه بينه وبين ربِّ العالمين، ويسألُ الله تعالى دائمًا الدَّلالة إلى الخَيْر..

أسألُ اللهَ تعالى أنْ يدلَّني وإيَّاكم إلى الهُدى والخير والصَّلاح، وأنْ يجعلنا جميعًا مُوحِّدين في عبادَتِنا لربِّنا..





هل انتشر الإسلام بحد السَّيف؟

ينتشر ما بين وقت وآخر سؤال: هل انتشر الإسلام بالسَّيف؟.. هل دخل الناس في دين الله بالإكراه، أم أنَّهم دخلوا إليه عن طريق قناعةٍ وحبٍّ لهذا الدِّين؟.. هل كان النَّبيُّ (عليه الصَّلاة والسَّلام) إذا أرسل سراياه بجيوشٍ ومعهم السُّيوف والحِراب، وسافر هذا الجَيش إلى مكانٍ بعيدٍ لأجل القتال، فقطع الفيافي والقفار وهم على دوابهم على تعبهم ونصبهم، ومعهم حرابهم وسيوفهم، ثُمَّ التقى هذا الجيش بجيشٍ آخر، وقامت بينهما الحرب والقتال والقتل وما فيها من سفكٍ للدَّمً؛ هل الإسلام انتشر بهذه الطَّريقة؟..

نقرأ في التَّاريخ أنَّ المسلمين حاصروا القلعة الفلانيَّة أو البلد الفلانيَّ

ولبسوا يُحاصرونه شهرًا أو شهرَيْن أو ثلاثة أو أكثر، كانوا حاصروا مثلاً بيت المقدس، وحاصر النَّبيُّ (ﷺ) خيبر، فمع طول الحِصار؛ يحصُل بينهم رميٌ وقتالٌ ومِن الناس مَن يموت، ومنهم مَن يسقط مِن فوق الحصن وتُلقى شعلٌ مِن نارٍ وما شابه ذلك، فهل الإسلام انتشر بهذه الطَّريقة؟..

معي أرقامٌ وإحصائيَّاتٌ سأقرؤها لك لنُثبت هل انتشر الإسلام بالسَّيف أم انتشر بطريقةٍ غير السَّيف..

هل انتشر الإسلام بالسَّيف أم بغير السَّيف؟ فهذا سؤالٌ كبيرٌ.. أنا أعرف أنَّه سؤالٌ مُكرَّرٌ، لكن أحيانًا بعض الأسئلة تُثار ما بين وقتٍ وآخر، فلابدَّ أنْ نتكلَّم عنها، بمعنى أنَّه هناك بعض المواضيع مهما كرَّرتها؛ إلا أنَّ الأجيال لا تزال تحتاج إلى أن تستمع إلى الجواب أو إلى الكلام والتَّنبيه، مثلا أنا في كل سنةٍ ونصف أو سنتَيْن أخطُب جمعةً عن بِرِّ الوالدَيْن، فيأتي إليَّ أحيانًا بعضُ النَّاس، يقول لي: يا شَيْخ لقد خطبتها قبل سنةٍ ونصفٍ، وأنا صلَّيْتُ معك فلماذا خطبت أيضًا عن بِرِّ الوالدَيْن؟، فأقول: أنا خطبت لسببَيْن: أوَّلاً أنا أنوِّع أسلوب الخطبة.. صحيحٌ أنا خطبتُ عن برِّ الوالدَيْن، ولكن القَصص تختلف، والأحاديث تتنوَّع، الأمرُ الثَّاني أنَّ هذا الموضوع لابدَّ أنْ يُثار في كلِّ مرَّةٍ، فالأجيال التي كانت العام الماضي ١٤ سنةً مثلاً، اليوم عمره ١٥ أو ١٦، وقد بدأت مرحلةُ مراهقته، فيحتاج إلى خُطبةٍ عن برِّ الوالدَيْن، كذلك الحديث عن الصُّحْبة السَّيِّئة، نحتاج كلَّ مرَّةٍ أن نُعيد الكلام عليها، وذلك أنَّ النَّاس لا يتركونه، بمعنى لو أنَّ كلَّ النَّاس بارِّين

بآبائِهم وأُمَّهاتِهم؛ فما تحتاج للحديث عن بِرِّ الوالدَيْن، ولكن لَمَّا كان الأمر على خلاف ذلك؛ احتجنا للحديث عن هذا..

تعالوا نتكلَّم عن هذه المسألة، النَّبيُّ (ﷺ) بُعِثَ إلى النَّاس، وكانت قريشَ تُحاربه وتُضيِّق عليه، حتى هاجر (ﷺ) إلى المدينة.. هاجر إلى المدينة ولَبِثَ فيها، وكوَّن دولةً، وفي يوم مِن الأيَّام عددٌ مِن الصَّحابة كانوا يسيرون حول المدينة يعملون دوريَّاتٍ أمنيَّةٍ، والمدينة بها بيوتٌ قديمةٌ ومتجاورةٌ، ومسجد النَّبيِّ (ﷺ) في نصفها، وكان يسكن معهم اليهود والمنافقون، وكان لها مداخل مُتعدِّدةٌ، ممَّا يجعل الصحابة يحتاجون إلى أنْ يدوروا حول المدينة بخيولهم مِن أجل إذا كان هناك أيُّ إنسانٍ فيه ريبةٌ أو طليعة جيشٍ أو كذا، يُمكن أن يقبض عليه من البداية..

في يوم مِن الأيَّام وجدوا رجلاً مُحْرِمًا مارا مِن عند المدينة، وهو يقول: لبَّيْك اللَّهمَّ لبَّيْك، لبَّيْك لا شريك لك لبَّيْك، إلا شريكا هو لك تملكه وما مَلَكَ.. فأقبل الصَّحابة إليه، وقالوا: مَن أنت؟، قال: أنا ثُمامة بن أُثال سيِّد بني حنيفة، وبنو حنيفة يسكنون في نجدٍ (منطقة الرِّياض)، فقالوا له: إلى أين؟، قال: أنا ذاهبٌ إلى مكَّة.. الصَّحابة يعلمون أنَّ الرياض في نِصف المملكة اليوم ومكَّة في غربِها، والذي يُريد أنْ يذهب مِن الرِّياض إلى مكَّة لا يمرُّ بالمدينة شَمالاً.. ما الدَّاعي أنْ تمرَّ شَمالاً؟، فقبضوا عليه وظنُّوا أنَّه طليعةُ جيش أو نحوه، فذهبوا به إلى المدينة، ودخلوا به إلى المسجد، فما وجدوا النَّبيَّ (ﷺ)، فربطوه في سارية المسجد..

أقبل النَّبيُّ (ﷺ)، وصلَّى ثُمَّ التفتْ، فأخبروه، قالوا: يا رسول الله هذا الرَّجل قبضنا عليه، فأقبل إليه النَّبيُّ (ﷺ) بكلِّ لطفٍ: «مَن أنت؟»،

قال أنا ثُمامة بن أُثال، فقال (ﷺ): أنت سيِّد قبائل بني حنيفة الذين في نجد؟، قال: نعم، فالنَّبيُّ (ﷺ) تركه وجاء إلى الصَّحابة، وقال: «أتدرون على مَن قبضتم؟»، قالوا: مَن؟، قال: قبضتم على ثُمامة بن أُثال سيِّد بني حنيفة، هذا سيِّد قبائلَ في نجدٍ، الحِنطة والشَّعير والرِّزق الذي يأتي إلى مكَّة كله مِن تحت يد هذا الرجل، فهذا سيِّد بني حنيفة، لكنَّ الرَّجلَ قُبض عليه، فجاء النَّبيُّ (ﷺ) إليه، وقال: «يا ثُمامة أَسْلِم»، قال: لا، فقال: «فما عندك يا ثُمامة؟»، قال: إنْ تقتل؛ تقتل ذا دَم، كلامُ مَلِكٍ واثقٍ في قوَّته وفي قومه، قال إنْ تقتُل؛ تقتُل ذا دم، وإنْ تُنْعِمَ؛ تُنعم على شاكرٍ: إذا أنت أنعمت عليَّ وتركتني وسامحتنيَ؛ تُنْعِمُ على شاكرٍ، وإنْ أردتَ المال؛ فاطلب منه ما شِئت؛ فإنَّ قومي يُوفِّرون لك مِن الأموال إلى المليون درهم، والنَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام لا يُريد القتل ولا يريد الفدية، ولا يريد أنْ يطلقه إلا بعد أنْ يتأثَّر بالإسلام..

تركه النَّبيُّ (ﷺ)، وقال: «أحسِنوا إليه وأعطوه مِن أطيب الطَّعام واغدو عليه في كلِّ يوم وروحوا في دابَّته»، فالإنسان دابَّتُه لها قدرٌ عِنده، اليوم الإنسان لو كانتَ عنده سيَّارةٌ مُعيَّنةٌ، وصدمها أو نحوها يشتري مِثلها، ولكن في السَّابق كانت الدَّابة بالنِّسبة للشَّخص غالية عليه؛ لأنَّها مُدرَّبةٌ على طريقة المشي التي يُريدها هو، قد تآلف هو وهي في طريقة التَّعامُل لأنَّها لها مشاعر ولها عقلٌ ولها تصرُّفٌ، فالدَّابة عند الإنسان مِنهم لها قيمتها، وخاصَّة الرَّاحِلة التي يُسافر عليها وتصبرُ على السَّفر، والنَّبيُّ (عليه الصَّلاة والسَّلام) وهو يتكلَّم عن الإبل، يعني أنتم الآن تجد مجموعةً كبيرةً مِن الإبل، وجميع هذه الإبل التي تراها لا تصلح

أنْ يُرتحل عليها سفرًا، تصلح للأكل، أنْ تنحرها وتأكلها، تصلُح ربما لاستعمالات الحرث أو نحوه، أمَّا الدَّواب التي تصلُح للسَّفر فقليلةٌ، كالإبل المائة، لا تكاد تجد فيها راحلةً، تُسافر عليها..

فالنَّبيُّ (عليه الصَّلاة والسَّلام) أمر الصَّحابة أنْ يمروا عليه كل يوم بناقته، يراها كلَّ يوم حتى يطمئنّ أنَّ ناقتَه ما تزال حيَّةً، فلمَّا جاء النَّبيُّ (ﷺ)مِن الغد صلَّى بأصحابه الظُّهر والعصر والمغرب والعشاء، وثُمامة يسمع القرآن ويرى الصَّحابة ويرى تعاملهم مع النَّبيِّ (ﷺ)، ولما جاء مِن الغد؛ مرَّ به النَّبيُّ (ﷺ)، وقال: «ما عندك يا ثُمامة؟»، قال: عندي ما ذكرتُ لك، إنْ تقتُلْ؛ تقتُل ذا دم، وإنْ تُنْعِم؛ تُنْعِم على شاكرٍ، وإنْ أردت المال؛ فاطلب منه ما شِئْت..

النَّبيُّ (ﷺ) ما يُريد الثَّلاثة، فسكتَ النَّبيُّ (ﷺ)، ومضى عنه، وظلَّ مع أصحابه، وثُمامة يرى الصَّحابة، هذا يُصلِّي وهذا يبكي وهذا يقرأ القرآن، وثُمامة يرى هذه المناظر ويتأثَّر بها، فلمَّا كان اليوم الذي بعده؛ مرَّ النَّبيُّ (ﷺ) به، ما عِندك يا ثمامة؟، قال عندي ما ذكرتُ لك، فماذا فعل النَّبيُّ (عليه الصَّلاة والسَّلام)؟.. هل انتشر الإسلام بالسَّيف؟، هل جاء إليه ووضع السَّيف على عنقه، وقال له أسْلِم وإلا قطعنا عنقك؟.. لا.. الإسلام ما انتشر بهذه الطَّريقة؛ لأنَ الله عزَّ وجل يقول: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة- الآية ٢٥٦]، وقال تعالى: ﴿فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ﴾ [سورة الكهف- من الآية ٢٩].. ما في إكراه، حتى في مكَّة، كان النَّبيُّ (عليه

الصَّلاة والسَّلام) يقول: «يا أيُّها النَّاس قولوا لا إله إلا الله تُفلِحوا» [رواه البُخاريُّ]، ما كان النبيُّ (ﷺ) يُكره النَّاس على الإسلام..

فلمَّا وَجَدَ النَّبيُّ (ﷺ) ثُمامة بن أُثال قد أقفل جميع الأبواب، ما فيه أملٌ أنْ يدخلَ الآن في الإسلام، فكيف تصرَّف معه النَّبيُّ (عليه الصَّلاة والسَّلام)؟..

ثُمامة بن أُثال كان فيه عزَّةٌ وشرفٌ، فالنَّبي (عليه الصَّلاة والسَّلام) يتعامل معه بما يصلُح له، لمَّا جاء النَّبيُّ (ﷺ) في المرَّة الثَّالثة، قال: «ما عندك يا ثُمامة؟»، فأعاد نفس الكلام، فقال النَّبيُّ (ﷺ) لأصحابه: أطلقوا ثُمامة، قالوا: نطلقه هكذا بدون فديةٍ أو أيِّ شيءٍ؟، قال: «أطلقوا ثُمامة»، ولكن هذا قومه عندهم أعدادٌ كبيرةٌ مِن القمح والشَّعير، فقال: «أطلقوا ثُمامة»، فأطلقوه، فخرج ثُمامة بعدما رأى هذا الخُلُق الحَسَن واللطف في التَّعامُل..

مضى إلى ماءٍ قريبٍ مِن المسجد، ثُمَّ اغتسل ولَبِسَ إحرامَه مرَّةً ثانيةً، وجاء إلى النَّبيِّ (ﷺ)، وقال: أشهد أنْ لا إله إلا اللهَ وأشهد أنَّك رسول الله.. هل كان بالسَّيف؟.. لا والله، وقال ثُمامة: والله ما كان شيءٌ إليَّ أبغض مِن وجهك، والآن صار وجهُكَ أحبَّ الوجوه إليَّ، ووالله ما كان مِن بلدٍ أبغض إليَّ من بلدك، وقد صار اليوم بلدُك أحبَّ البلدان إليَّ، وما كان مِن دينٍ أبغض إليَّ مِن دينِك، وقد صار اليوم دينُك هو أحب الأديان إليَّ، يا رسول الله مُرني بما شئِت، أنا أحرمت الآن، فقال النبيُّ (ﷺ): أَتِمَّ عُمْرَتَك..

مضى ثُمامة حتى وصل إلى مكَّة، فلمَّا وصل إلى مكَّة تغيَّرت تلبيَّتُه، بدلاً مِن أنْ كان يقول: لبَّيْك الَّلهمَّ لبَّيْك، لبَّيْك لا شريك لك لبَّيْك، إلا شريكًا هو لك تملكه وما مَلَكَ، فغيَّر الأسلوب، فقال: لبَّيْك لا شريكَ لك، إنَّ الحمدَ والنِّعمة لكَ، لا شريك لكَ، فتجمَّعت عليه قريشٌ، وقالوا: تلبيةٌ جديدةٌ، قال: نعم، أشهد أنْ لا إلهَ إلا اللهَ، وأنَّ مُحمَّدًا رسولُ اللهِ، فضربوه لأجل أنْ يحولوا بينه وبين الإسلام، وهذا الفرق، فالإسلام ما يدعو النَّاس للإسلام بالسَّيف غصبًا، ولكنَّ الكُفَّار يستعملون القوَّة والسَّيف ليُخرِجوا النَّاس مِن الإسلام..

ما ننسى إلى اليوم ماذا فعلت الحروب الصَّليبيَّة ببيت المقدس وبغيره لما دخلَتْ إليه، المسلمون ما كانوا يفعلون ذلك، فلمَّا رآهم العباس يضربون ثُمامة، قال: يا قوم هذا سيِّدُ بني حنيفة، والله لو تضربوه لا يصل إليكم مِن بني حنيفة ولا حبَّة شعيرٍ، أنتم تدمرون أنفسكم الآن، يعمل عليكم حصارًا اقتصاديًا، فتركوه عند ذلك، فقال ثُمامة: والله لا يصل إليكم حبَّةُ حنطةٍ حتى يأذن فيها رسول الله (ﷺ).. فأرسلت قريشٌ، وقالت: يا مُحَمَّد هذا الرَّجل مَنَعَنا مِن الطعام، فأرسل إليه النَّبيُّ (عليه الصَّلاة والسَّلام) أنْ أعطهم..

هذا الأسلوب الذي كان يستعملُه النَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام، هو الذي يستعملُه الدُّعاة اليوم.

قرأت إحصائيَّةً عملها الدُّكتور راغب السِّرجاني تتعلق بعدد القتلى مِن الفريقَيْن، تتعلَّق بالشُّهداء مِن المُسلمين والقتلى مِن أعدائهم، المسلمون

خلال حياةِ النَّبيِّ (عليه الصَّلاة والسَّلام) خلال ٦٣ معركةً، منها ٢٧ غزوةً و٣٨ سريَّةً، كُلُّها لم يُستشهد فيها مِن المسلمين إلا ٢٦٢، ولم يُقتَل مِن الكافرين إلا ١٠٢٢.. وإذا نظرت إلى عدد جيش المسلمين، وأحصيت عددَ القتلى؛ وجدتَ أنَّ الشُّهداء فقط ١٪، أي تقع معركةٌ كاملةٌ، وعدد القتلى مِن المسلمين ١٪ فقط، وأيضا عدد القتلى مِن المشركين، تجد القتلى ١٠٢٢ خلال ٦٣ معركةً، فإذا جمعتها وجدتها كنسبة ١,٥٪ فقط.. معناه أنَّ الإسلام لا يتشوق إلى الموت.

لكن إذا نظرنا إلى الحرب العالميَّة الثَّانية، عدد الجنود الذين اشتركوا في الحرب العالميَّة الثَّانية ١٥ مليون و٦٠٠ ألفٍ.. أتدرون كم عدد القتلى الذين قُتلوا في الحرب العالميَّة الثَّانية؟!.. ٥٤ مليونا و٨٠٠ ألفٍ!!، القتلى أكثر مِن عدد الجنود؛ لأنَّ أكثر القتلى كانوا مدنيِّين غير مقاتلين، تأتي الدَّولة المقاتِلة، ويدخل جنودها على المدنيِّين نساءٍ وأطفالٍ وناسٍ عُزَّلٍ ويضربونهم بالرَّشاشات والقنابل، النَّبيُّ (عليه الصَّلاة والسَّلام) ما كان يفعل ذلك، فصار عدد القتلى في الحرب العالميَّة أضعاف عدد الجنود أنفسهم الذين شاركوا.

كان النَّبيُّ (عليه الصَّلاة والسَّلام) إذا أرسل جيشًا؛ يقول: «لا تقتلوا امرأةً ولا صبيًّا ولا تكملوا على جريح» [رواه البُخاريُّ]، لَمَّا جُمع الأسرى في معركة بدرٍ بين يدَي النَّبيِّ (عليه الصَّلاة والسَّلام)؛ تعامل معهم أرقى التَّعامُل، كان (عليه الصَّلاة والسَّلام) يأمر أنْ يُعطوا مِن الطَّعام، حتى قال مصعب بن عمير: كان أخي مأسورًا، ونحن الحرس على الأسرى، فكان يُؤتى إلينا بالخبز والماء، فكُنَّا نُعطيهم التَّمرَ والماء،

ونأكل نحن الخبز اليابس إكرامًا لهم، حتى كان الأسرى أنفسهم وهم كُفَّارٌ مقاتلون، كانوا يخجلون ويقولون: خذوا مِن التَّمر أيضًا، ونقول: لا، بل أمرنا رسول الله (ﷺ) بالإحسان إليكم..

لذلك الله تعالى يقول: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾ [سورة الإنسان- الآية ٨]، ولو كان الإسلام انتشر بالسَّيف؛ لكانوا لَمَّا ارتفع السَّيف عادوا لكفرِهم، أليس كذلك؟.. الآن في روسيا التي لبثت الشُّيوعيَّة فيها ٧٣ سنةً، ونُشرَت الشُّيوعيَّة بالسَّيف، بالحديد والنَّار، انتشرَت الشُّيوعيَّة فعلاً، وانتشر الإلحاد، ولا إله والكون مادَّة، ولكن أوَّل ما سقطَت الشُّيوعيَّة؛ عاد النَّاس لإسلامهم، وعاد النَّصارى لنصرانيَّتِهم، فالقوَّة والعُنف لا تصنع لك مجدًا، ولكنَّ الإسلام لَمَا جاء وانتشر، انتشر بناءً على قناعاتٍ عند النَّاس؛ لذلك اللهُ تعالى أمر بذلك، وقال: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [سورة النَّحل- من الآية ١٢٥].. فالآن إندونيسيا التي فيها ثُلُثُ العالم الإسلاميِّ، فيها أكثر مِن ٢٣٠ مليونا، ومع ذلك لم يصل إليها سيفٌ واحدٌ، دخلها الإسلام عن طريق التُّجَّار، ليسوا علماء، بل تُجَّار، دخلوا إليها، وبلُطْفِ تعاملهم؛ بدؤوا يؤثِّرون في النَّاس.. بنوا مسجدًا.. بدأ النَّاس يُصلُّون معهم، وبنوا مسجدًا آخرَ وآخر، وتفرَّقوا في أنحاء إندونيسيا، حتى انتشر الإسلام في إندونيسيا كُلِّها، ولم يدخل إليها سيفٌ واحد.. الهند لم يدخل إليها سيفٌ واحدٌ، بل دخلها الإسلام عن طريق التِّجارة والكُتُب، وإلى اليوم الذين يدخلون في الإسلام لا يدخلون بالسَّيف، مثلاً في ألمانيا إحصائيَّاتُ الحكومة الرَّسميَّة تقول إنَّ الذين يُسلمون

في ألمانيا عددهم كبيرٌ إلى درجة أنَّ الحكومة الألمانية تقول إنَّه في كل ساعتَيْن يدخل مسلمٌ جديدٌ إلى الإسلام، وهذه إحصائيَّة ٢٠٠٦، ٢٠٠٧، ٢٠٠٨، ٢٠٠٩، ٢٠١٠.. يدخل مسلمٌ جديدٌ.. هل دخلوا بالسَّيف؟.. فهذه إحصائية الحكومة، في اليوم يدخل ١٢ شخصًا، ولَمَّا سألْتُ الإخوة في المراكز الإسلاميَّة عن ذلك، فقلت: هل هذا هو العدد؟، قالوا: لا، العدد أكبر من ذلك، ولكن هذا في السِّجِّلات الرَّسميَّة للحكومة..

فالإسلام انتشر بسماحته ولطفه، وأيضًا انتشر بالجهاد في سبيل الله، فالقول إنَّه لم ينتشر بالسَّيف خطأ، والقول إنَّه انتشر بالسَّيف خطأ، وإنَّما هناك نوعٌ مِن التَّعادُل، انتشرَ بالجهاد في سبيل اللهِ لإسقاط الظَّلمة والمُتسلِّطين، وانتشر أيضًا بالكلمة الحَسَنَة والعبارة الطَّيِّبة التي دخل النَّاسُ بها في دين اللهِ أفواجًا..

أسالُ اللهَ جلَّ وعلا، أنْ يوفِّقَني وإيَّاكم لكلِّ خيرٍ، وأنْ يجعلني وإيَّاكُم مُباركين أينما كُنَّا، وأنْ يستعملني وإيَّاكم في طاعته.



من معجزات النبي

كان يعيش حبيبُنا وسيِّدُنا رسولُ اللهِ (ﷺ) في المدينة بعدما هاجر مِن مكَّة.. كان يُسافر بأصحابِه في كثيرٍ مِن الأحيان للغزوِ والجهادِ في سبيل اللهِ.. سافر (عليه الصَّلاة والسَّلام) بهم يومًا حتى مشَوْا في الليل.. أظلمَ عليهم الليل، ولا تزال تلك الإبل تمشي بهم، وبعضهم في ظُلمة الليل كان يُمسكُ البعير ويسوقه؛ لأنَّهم ليس عندهم عددٌ كافٍ مِن الإبل وعددُ النَّاس أكثر، فهم مثلاً مائةُ بعيرٍ وأربعمائة مجاهدٍ، فهم لا يستطيعون جميعًا أنْ يركبوا على مائةِ بعيرٍ؛ فيتعاقبون، هذا يركب ساعةً والثَّاني ساعةً والثَّالِث، وهكذا، وأطالوا المشي طوال الليل، وهذه الإبل تمشي في الليل، حتى ودُّوا لو أنَّ الرَّسولَ (ﷺ) عرَّس بهم، أي نزل

بجانب الطَّريق، فلمَّا عَلِمَ النَّبيُّ (ﷺ) بشدَّة تعبهم وإرهاقهم؛ أمرهم (ﷺ)، فنزلوا في جانب الطَّريق، ولكن هناك مشكلة، مَن الذي يرقُب لهم الفجر ليوقظهم فهم متعبون جميعًا؟. فماذا فعل النَّبيُّ (ﷺ)؟..

قال النَّبيُّ (ﷺ) لأصحابه: «مَن يرقب لنا الفجر؟»، قال بلال (رضي الله عنه): أنا يا رسولَ اللهِ أرقُبُ لكم الفجر، فقام بلالٌ ليصلِّي والصَّحابة وضعوا عروشَهم وناموا، ونام النَّبيُّ (ﷺ) ونام الصَّحابة، وجعل الليل يمضي عليهم، وبلالٌ قائمٌ يُصلِّي في ظُلمةِ الليل يُناجي ربَّه مُصلِّيًا وداعيًا وقارئًا للقرآن، حتى إذا اقترب الفجر ولم يبقَ عليه إلا وقتٌ يسيرٌ، جلس واتَّكأ على ناقتِه وجعل يرقُب الفجرَ، فبلال مؤذِّنٌ أساسًا، ويعرِفُ متى الفجر ويعرف انفصالَ الليل عن النَّهار.. جعل يرقب الفجرَ وفي أثناء ترقُّبه للفجر، مع شدَّة تعبه طوال الليل؛ غلبَهُ النَّومُ ونام، وطَلع الفجرُ وأَسفرَت الدُّنيا، وطَلعَت الشَّمس والصَّحابة نائمون ورسول اللهِ (ﷺ) نائمٌ..

ثُمَّ فجأة.. يقول عمر (رضي الله عنه): فما أيقظَنَا إلا حرُّ الشَّمسِ، يعني ارتفعَت الشَّمسُ وأصابَتْهُم حرارتها، فاستيقظ عمر واستيقظ النَّبيُّ (عليه الصَّلاة والسَّلام)، فأقبلوا إلى بلالٍ، وقالوا: يا بلال ما هو قولك؟، فقال بلالٌ (رضي الله عنه): أخذ بنفسي الذي أخذ بنفوسكم، وما استطعت إلا ما رأيت، فالنَّبيُّ (عليه الصَّلاة والسَّلام) والصَّحابة غاضبون؛ كيف ينام وكيف يتركَنا وقد طلعَت الشَّمس، وانظر أيضًا إلى تعظيم الصَّحابة (رضي الله عنهم) لصلاةِ الفجر، انظر إلى إعطائهم لها قدرهَا وكيف أنَّهم يشعرون بقدرِهَا عندهم، فلما رأى النَّبيُّ (ﷺ) ذلك قال لهم: «ارتحلوا إلى

موقع آخرَ»، فهذا موقعٌ قد حَضَرَ فيه الشَّيطان، فارتحلوا وصلُّوا، وإذا بواحِدٍ قد اعتزلَ النَّاس فلم يُصلِّ، فقال له النَّبيُّ (ﷺ): «ما لك لم تصلِّ؟»، قال: يا رسولَ اللهِ، إنِّي على جنابةٍ ولا ماءَ، والماء قليلٌ بالكاد يكفي الوضوء، وأنا أحتاج إلى غُسْل، فقال له النَّبيُّ (ﷺ): «إنَّما كان يكفيك الصَّعيد الطَّاهر أنْ تتطهرَ به».. يضرب بيدَيْه، يمسح وجهه ويمسح كفَّيْه، فهذا تيمُّمٌ، فإذا حضر الماءُ بعد ذلك؛ يغتسلُ كما قال النَّبيُّ (ﷺ): «الصَّعيدُ الطَّيِّبُ طهورُ المُؤمنُ ولو لم يجد الماء عشر سنين، فإذا وجد الماء فليتقِّ الله وليمسَّه بشرتَهُ» [رواه البُخاريُّ]..

الشَّاهدُ أنَّ النَّبيَّ (ﷺ) أمرَ الرَّجُلَ بالتَّيمُّم وصلَّى، ثُمَّ ارتحلوا وهم الآن يحتاجون للماء، فأمرَ النَّبيُّ (ﷺ) بعض الصَّحابة أنْ يبحثوا عن الماء، أمر عليًّا وبعضَ الصَّحابة بأنْ يبحثوا عن الماء، فأخذَ عليٌّ (رضي الله عنه) يمشي على بعيره في الصَّحراء بحثًا عن الماء، ويبحث يمينًا ويسارًا يحاول أنْ يجدَ ماءً، حتى رأى امرأةً مِن بعيدٍ على بعيرها، فأقبل إليها وهي معها مزادتان، والمزادة هي القِربة الكبيرة المصنوعة مِن جلود الغنم والماعز، فقالوا لها: أين الماء؟، قالت عهدي بالماء أنْ تسيروا يومًا وليلةً حتى تصلوا إلى الماء، فقالوا لها: تعالَيْ معنا، قالت: إلى أين؟، قالوا: إلى رسولِ الله (ﷺ).. قالت: ذلك الذي يسمُّونه الصَّابئَ؟، وكانت العرب تُسمِّي مَن غيَّر دينَه الصَّابئَ، فقالوا لها: هو الذي تعنين..

فأقبلوا بها إلى النَّبيِّ (ﷺ)، فأمر النَّبيُّ (ﷺ) أن يتلطف وأمر النبي (ﷺ) فأنزلَت المزادتان، وأَمَرَ (ﷺ) أنْ تُحلَّ أفواهها، فجاءوا إلى فم القِربة وحلُّوا فَمَها، ودعا النَّبيُّ (ﷺ) أنْ يبارِكَ اللهُ فيها، فنفث فيه ثُمَّ

رَبَطَه، ثُمَّ أمر (عليه الصَّلاة والسَّلام) أنْ يحلُّوا فَمَ القِرْبَةِ الثَّانية، ودعا النَّبيُّ (ﷺ) أنْ يُبارِكَ فيها، فنفث فيها ثُمَّ ربطَها، ثُمَّ أمرَ (ﷺ) أنْ تطلَقَ العَزالة وهي الجِهةُ الثَّانية مِن القِرْبَةِ، ففكُّوها، وقال للصَّحابة: «مَن كان عنده إناءٌ فليأتِ به وليملأه ماءً»، والمرأة تنظُر.. معقول، قربتَان تكفيان جيشًا كاملاً..

فجاء الصَّحابة يضعون آنيتِهم تحت القِربة، والقِربة يصبُّ منها الماء حتى يمتلئ الإناء، ثَمَّ يذهب صاحب الإناء بمائِه فَرَحًا، ثُمَّ يأتي الثَّاني فيملأ حتى يمتلئ، ويأتي الثَّالثُ والرَّابعُ وهكذا، حتى ملئُوا جميع الآنية التي في المُعَسْكَرِ مِن هاتَيْن القربتَيْن والمرأة تنظر، ثُمَّ أَمَرَ النَّبيُّ (عليه الصَّلاة والسَّلام) بالرَّجُلِ الجُنُب، فوضع له ماءً، فأعطي له واغتسل به، ثَمَّ أَمَرَ النَّبيُّ (ﷺ) ورُبِطَتْ مرَّةً أخرى هذه القِرَب ورُبطَتْ على البعير، وأَمَرَ «عليه الصَّلاة والسَّلام» بفعلٍ يفعَلُه الصَّحابة إحسانًا لهذه المرأة وتلطُّفًا معها وجذبًا لها للإسلام وبيانًا لها بعظمةِ النَّبيِّ (ﷺ)، وأنَّه (ﷺ) لا يأخذُ ماءَها ولا يريد الاعتداء على مالها، فأمر (ﷺ) الصَّحابةَ أنْ يجمعوا لها طعامًا، فجعلَ الصَّحابيُّ يأتي بالتَّمرِ ومَن يأتي بالخُبزِ ومَن يأتي بالسُّويق، وأخذوا يجمعونه لها في ثوب، والمرأة قد صَعَدَتْ على بعيرها، وقام بها البعيرُ ولم ينقُص مِن مائها شيءٌ، ثُمَّ جاءوا إليها وأعطوها ذلك الثَّوب الذي فيه الطَّعامُ، ثُمَّ قال (عليه الصَّلاة والسَّلام) لها لقد: علمتِ أنَّنا لم نرزأك مِن مائِك شيئًا، وهذا خُذيه لأولادك.. ومضت المرأةُ مُتعجِّبة إلى قومِها، وقد رأت عَجَبًا.. فكيف كان تأثيرُ هذه الرُّؤية على قومها، وماذا قالت لهم؟..

لَمَّا فارقَتْ هذه المرأة النَّبيَّ (ﷺ)، وفارقت أصحابَه الكِرام؛ جعلَتْ وهي على بعيرها تسير في الصَّحراء مُتعجِّبة مِمَّا رَأَتْ.. أوَّل مرَّةٍ ترى معجزةً مِثل هذه المُعجزةِ، هي لم تُسْلِمُ بعد، والنَّبيُّ (ﷺ) الآن يتعامل مع امرأةٍ غير مُسلمةٍ، وهذا مصداق لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [سورة الأنبياء- الآية ١٠٧].. فهو رحمةٌ للمسلمين وغير المسلمين، رحمةٌ للكِبار ورحمةٌ للصِّغار، رحمةٌ للعبيد ورحمةٌ للأحرار، فهو رحمةٌ للعالمين، جاءَهم بالرَّحمة واللِّين.. ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [سورة آل عمران- من الآية ١٥٩].. فهذه المرأة مع كُفْرِها وضلالها وعبادتها للأصنام؛ إلا أنَّ النَّبيَّ (ﷺ) كان يتعامل معها أحسن التَّعامُل..

فمضت هذه المرأة تمشي على بعيرها في الصَّحراء القاحِلة المُوحِشة التي ربما لو ضلَّتْ فيها لماتت، حتى وَصَلَتْ لقومِها، قالوا: ما حبسك يا فلانة؟ أي تأخَّرت عمَّا كانت في السَّابق، وقومها كانوا يعيشون الخيام، قالت: لقد رأيت اليومَ أسحرَ النَّاس، ما قالت رأيتُ نبيًّا مُرسلاً.. قالت: لقد رأيت اليومَ أسحرَ النَّاس، يفكُّ طَرَفَ القِرْبَةِ ويصبُّ الماء ويملأ المياه للعسكر، فقالت: رأيتُ أسحرَ النَّاس، إلا أنْ يكون نبيًّا مُرسلاً، فلبثتْ في قومها تحدِّثُهم كيف أنَّ النَّبيَّ (ﷺ) فكَّ القِرْبَةَ وصَنَعَ ما صَنَعَ..

مَضَتْ الأيَّام، والنَّبيُّ (ﷺ) يُرسِلُ أصحابَه مِن أجل أنْ يفتحوا البلدان ويدعون النَّاس إلى الله، وكان الصَّحابة كلَّما وصلوا إلى موضعِ قومِها، يأتي أحيانًا جيشٌ كاملٌ، وكُلَّما أتَوْا إلى موضع قومِها؛ تجنَّبوه،

فغزوا القبيلة في اليمين وفي اليسار وفي الأمام وفي الخلف، فقالت لقومها: يا قومَ، واللهِ ما أظن القومُ يتجنبونكم إلا رجاءَ إسلامِكُم، يعني أنا رأيت آيةً ومعجزةً فكيف ما تصدِّقون ذلك؟، فكانت سببًا في إسلام قومها.. بالمناسبة هذه المرأة وهذا المشهد الذي رأته الصَّحابة قد رأوا مثله مرارًا، فاللهُ تعالى يقول: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [سورة الحديد- مِن الآية ٢٥]، أي بالآيات الواضحات التي تدلُّ على أنَّهم أنبياءٌ، لذلك كلُّ نبيٍّ مِن الأنبياء بعثَهُ اللهُ تعالى، جَعَلَ معه مِن الآيات ما على مثله، تدلُّ على أنَّه نبيٌّ مُرْسَلٌ، فالنَّبيُّ (ﷺ) يأتي بالمعجزات كما أمرَ اللهُ تعالى، وكما يُجري المعجزاتُ على يدَيْه..

بل أعجب مِن ذلك، لَمَّا كان النَّبيُّ (ﷺ) مع أصحابه في الحُدَيْبِيَة، والحُدَيْبِيَة كانت في السَّابقة عبارة عن حيٍّ خارج مكَّةَ، غير اليوم فهي تُعْتَبَرُ حيًّا مِن أحياء مكَّةَ، فالنَّبيُّ (ﷺ) أقبل مع أصحابه، ألفٌ وأربعمائة، أتَوْا معتمرين، فمنعتهم قريشٌ مِن الدُّخول وصارت لهم قِصَّةٌ في الحُدَيْبِيَة، يقول جابرٌ (رضي الله عنه): لَمَّا وُضِعَ بين يدَي النَّبيِّ (ﷺ) إناءٌ ليتوضَّأ منه؛ جَهَشَ النَّاس إليه، فقال (ﷺ) لهم: «ما عِنْدَكُم؟»، أي ما لكم تجمَّعتم عندي وأنا أتوضَّأ؟، قالوا: يا رسولَ اللهِ ليس عندنا في العسكر ما نتوضَّأ أو ما نشرَبُ إلا هذا الماء الذي بين يدَيْك، فالنَّبيُّ (ﷺ) لَمَّا رأى ذلك، وهو النَّبيُّ لا كَذِبَ، جَعَلَ النَّبيُّ (ﷺ) إصْبُعَه في هذا الماء، ولاحظ أنَّ المعسكرَ كبيرٌ، ألفٌ وأربعمائة، والنَّاس متجمعين في أماكنَ، بعضهم تحت خيمةٍ وبعضهم تحت شجرةٍ وبعضهم عند بعيره، فتخيَّل هذا العدد الكبير ليس عندهم مِن الماء إلا

هذا الماء القليل الذي بين يدَي النَّبيِّ (ﷺ).. فوضَعَ النَّبيُّ (ﷺ) يدَه في هذا الماء ودعا الله، فيقول جابرٌ: فوالله لقد رأيت الماء ينبع مِن بين أصابعه (ﷺ)، حتى امتلأ الإناء، وما تركنا إناءً في المعسكر حتى ملأناه حتى شربنا وتوضَّأنا.. قيل لجابر: كم كنتم؟، قال: كُنَّا ألفا وأربعمائة، ووالله لو كُنَّا مائة ألفٍ لكفانا..

أرأيتم اليقين، قال كُنَّا ألفا وأربعمائة، ولو كُنَّا مائة ألف لكفانا، هذه المرأة لَمَّا رَأَتْ هذه المعجزة، وكانت غير مُسْلِمَةٍ وتأثَّرَتْ بهذه المعجزة ودخلَتْ في الإسلام، ومِن الصَّحابة مَن رأى قبل الإسلام أشياءَ ورأى بعد الإسلام أشياءَ..

مِن أعجبُ مَن رأى قبل الإسلام، عبدُ اللهِ بن مسعود (رضي الله عنه)، كان غُلامًا صغيرًا، وخَرَجَ النَّبيُّ (ﷺ) مع أبي بكرٍ في أطراف مكَّةَ، فإذا عبدُ اللهِ بن مسعود غلامٌ وعنده مجموعةٌ مِن الغَنَم يرعاها، فأقبل النَّبيُّ (ﷺ) ورأى هذه المجموعة مِن الغنم المتفرِّقة في هذا المكان، وكان قد أصابه عطشٌ وجوعٌ، فأقبل (عليه الصَّلاة والسَّلام) إلى هذا الغلام بين غَنَمه وناداه، وقال: «يا فلانَ أسقنا لبنًا»، فقال: إنِّي مُؤتمنٌ، فقال النَّبيُّ (ﷺ): «هل عندك شيءٌ لم ينزل عليه الفَحْلُ؟»، أي لم تحمِل وليس في ضرعها لبنٌ طبيعيٌّ، قال: نعم، فأتى إليه بشاةٍ صغيرةٍ فمسح النَّبيُّ (ﷺ) ضرعَهَا، ففتحَتْ رجلَيْها وامتلأ الضِّرعُ لبنًا، وعبدُ اللهِ بن مسعودٍ ينظرُ ويتعجَّب، فالرَّسولُ (ﷺ) حَلَبَ وشَرِبَ وشَرِبَ أبو بكرٍ وشَرِبَ عبدُ اللهِ بن مسعودٍ، فقال عبدُ اللهِ بن مسعودٍ: علِّمني مِمَّا قُلْتَ، فقال (ﷺ): «إنَّك غلام مُعلَّم»، يقول عبدُ اللهِ بن مسعودٍ:

فأسلَمْتُ، وأخذت مِن فِي رسولِ اللهِ (ﷺ) سبعين سورة لا يُنازعني فيها أحدٌ..

هذه مِن آيات نبوَّتِه عليه الصَّلاة والسَّلام، ولا تزال آياتُه إلى اليوم، وأعظمها القرآنُ الكريمُ.. أسألُ اللهَ سُبحانه وتعالى أنْ يثبِّتَ الإيمان في قلوبِنا، اللَّهمَّ يا مُثبِّتَ القلوب ثبِّتْها على طاعَتِكَ.

الكبر والغرور.. طريق إلى الكفر

نحن اليوم مع كِبْر وغرورٍ واعتزازٍ بالنَّفس جرَّ صاحبَه إلى مهاوي الرَّدى، أخرجه مِن الإسلام إلى الكُفر، وجعله يموت كافرًا باللهِ العظيم بسبب كِبْره وغروره، وصدق النَّبيُّ (عليه الصَّلاة والسَّلام) إذ قال: «لا يدخُل الجنَّة مَن كان في قلبه مثقالُ ذرَّةٍ مِن كِبْر» [رواه البُخاريُّ].. وقال(ﷺ): «يُحشر المُتكبِّرون يوم القيامة كأمثال الذَّرِ، يطؤهُم النَّاس بأقدامهم» [رواه البُخاريُّ]، كأمثال النَّملِ أو أصغر، يطؤهم الناس بأقدامهم، هذه قصَّةٌ عجيبةٌ وَقَعَتْ في عهد عمرَ بن الخطَّاب (رضي الله عنه)، سأقف معكم إنْ شاءَ اللهُ على أسرارها..

نقِفُ اليوم على ملكٍ مِن ملوك الغساسنة، والغساسنة هم قومٌ مِن

نصارى العرب كانوا يسكنون في شمال جزيرة العرب، في عهد عمرَ بن الخطَّاب (ﷺ) أَقْبَلَ رجلٌ مِن ملوك غسَّان، خرج مِن بلده شمال جزيرة العرب على إبلٍ ونوقٍ يسير في الصَّحراء قادمًا إلى المدينة ومعه خدمٌ وحَشَمٌ يضرب الأرض برجلَيْن متكبِّرَتَيْن معتزَّتَيْن بمُلكِه، أقبل إلى المدينة لمُقابلة عمر، دخل على عمرَ (ﷺ)، وإذا عليه تاجٌ مِن ذهبٍ وعليه رداءٌ مِن حريرٍ ثُمَّ دعاه عمر إلى الإسلام، وكان هذا الرَّجل هو جبلة بن الأيهم، ملكٌ مِن ملوك الغساسنة، أسلم وأمرَهُ عمرُ أنْ ينزع عنه تاج الذَّهب وأنْ ينزِع عنه رداء الحرير وأنْ يلبَس ما يلبَسُه المسلمون؛ ففعل ذلك، ثُمَّ أراد أن يعتمر، فعلَّمه عمر (ﷺ) كيف العُمرة وعلَّمه أنْ يُحْرِم فلَبِسَ إحرامه ومضى مُلبِّيًا إلى مكَّة، ولكن نفسه ما زالت فيها شيءٌ مِن الاغترار بالنَّفس والكِبْر بملكِه..

مضى الرَّجلُ حتى وصل إلى مكَّة، لبَّيْك اللَّهُمَّ لبَّيْك، لبَّيْك لا شريكَ لك لبَّيْك.. أخذ يطوفُ حول الكعبة، والكعبة حينئذٍ ليست مِثل حالنا اليوم؛ الحرم كبيرٌ جدًّا وواسعٌ ومرافقُه كثيرةٌ، ولكنَّ الكَعبة في السَّابق كان شكلُها قديما والحرم صغيرا، وأيضًا كان حول الكعبة ناسٌ ربما يبيعون وأسواقٌ وكذا، فلم تكُن كما اليوم، فكان جبلة بن الأيهم يطوفُ حول الكعبة، وعمر (ﷺ) أيضًا في مكَّة، فأثناء طوافه مع الزِّحام، أعرابيٌّ بسيطٌ وطأ برجله على طرف إزار جبلة بن الأيهم، فالتفت جبلة إليه: لماذا وطأتَ إزاري؟!، ثُمَّ ضربه على وجهه حتى كاد أنْ يُطيِّرَ عينه، الأعرابيُّ: نحن في الحَرم بين يدَي الله كُلُّنا ندعو اللهَ تعالى ونسألُه المغفرة، أأُضرَب على وجهي في الحرم؟!.. الأعرابي

لم يمد يده عليه، يعرف أنَّ هناك حاكما، فذهب إليه ليحكم بينه وبين الآخر بالكتاب والسُّنَّة..

مضى الأعرابيُّ حتى وصل إلى عمرَ بن الخطاب، أقبل على عمرَ، قال: يا عمر هذا جبلة بن الأيهم ضربني على وجهي، صفعني صفعةً كاد يُطيِّرُ بها عَيني، فدعا عمرَ جبلة بن الأيهم، فالآن مجلس قضاء، والإسلام في مسألة القضاء بين النَّاس لا يُفرِّقُ بين كبيرٍ وصغيرٍ وغنيٍّ وفقيرٍ، النَّاس سواسيةٌ؛ بدرجة أن عليّا (﵁)، وهو أمير المؤمنين في عهده، دخل إلى السُّوق فرأى يهوديًّا يبيع درعًا، فنظر عليٌّ (﵁) للدِّرع، فإذا الدِّرع درعُ عليٍّ قد سقط منه في بعض المعارك ولا يدري أين ذهب، فقال عليٌّ للرَّجل ترى هذا الدِّرع درعي، فقال اليهودي: لا، بل ليس درعَك، أتريد أنْ تشتريه فاشتره، قال: أنا أمير المؤمنين ولا أكذب عليك، فالدِّرع دِرعي، قال: ليس درعَك، فتحاكما إلى القاضي في عهد عليٍّ (﵁)..

فلما جاء عليٌّ وجلس وجاء اليهودي بالدِّرع، قال القاضي: يا أمير المؤمنين قف بجانب خَصْمِك، فاقبل عليٌّ ووقف بجانب اليهوديِّ، فقال: ما دعواك يا أمير المؤمنين؟، فالآن القاضي موظَّفٌ عند عليٍّ (﵁)، ومع ذلك النَّاس أمام الشَّرع سواسيةٌ، قال عليٌّ (﵁): هذا الدِّرع لي، سقط منِّي يوم كذا وكذا، فقال اليهودي: لا، ليس درعَه، هذا الدِّرع أنا اشتريته، وأنا أريد أنْ أبيعه، فقال القاضي: يا أمير المؤمنين عندك أحدٌ يشهد لك؟، قال: نعم، عندي ولدي الحسن، قال: لا نقبل شهادة الولد لأبيه، هل عندك شاهدٌ آخرَ؟، قال: لا،

قال: إذن أقضي بالدِّرع لهذا اليهودي، فلما رأى اليهوديُّ ذلك؛ نظر إلى عليٍّ ونظر إلى القاضي، وقال: سُبحان الله ما أعدل هذا الدين، قاضٍ يحكم على أمير المؤمنين في نُصرة يهوديٍّ، يعني يهوديٌّ يقول العُزير ابن الله، ويقول اللهُ فقيرٌ ويد اللهِ مغلولةٌ ويُحكم له على أمير المؤمنين بين يدي القاضي؟!.. فلما رأى ذلك قال: «أشهد أنْ لا إلهَ إلا اللهَ وأشهد أنَّ مُحمَّدًا رسول اللهِ، خُذ يا أمير المؤمنين هذا دِرعك فعلاً، أنا أخذته منك، سقط منك في بعض المعارك، وأنا أخذته منك في ذهابك، خذه.. فقال عليٌّ (﵁): أما إنَّك قد أسلمتَ فإنَّه هديَّةٌ لك، وأعطاه له..

فكان النَّاس سواسيةٌ، وكانوا لا يحكمون للقويِّ على الضَّعيف، إنَّما النَّاس سواسيةٌ كما قال النَّبيُّ (ﷺ): «إنَّما أَهْلَكَ النَّاس قبلكم أنَّهم كانوا إذا سَرَقَ فيهم الشَّريف تركوه وإذا سرق فيهم الضَّعيف أقاموا عليه الحدَّ [رواه البُخاريُّ].

وقف هذا الأعرابيُّ مع جبلة بن الأيهم بين يدَيْ عمر بن الخطاب (﵁)، فقال عمر: لماذا ضربته يا جبلة؟، قال: هذا وَطِئ على إزاري، قال: واحدٌ وطأ على إزارك بالخطأ تصفعه على وجهه أمام الناس؟!.. هناك تأديبٌ آخرَ، لكن أنْ تصفعه على وجهه؟!، لو فُتِحَ المجال كلُّ واحدٍ يأخذ حقَّه بيده؛ لعادت الجاهليَّة الأولى ولسُفِكَت الدِّماء حتى تصل الرُّكَب، فقال: يا جبلة القضاء، يصفعك مثلما صفعته، قال: يصفعني وأنا ملكٌ؟، قال: نعم، يصفعك وأنت ملكٌ، إلا أنْ تسترضيه ويسامحك، قبِّل رأسه وقُل له: سامحني، فإنْ سامحك انتهى الأمر، فإنْ لَّم تعتذر إليه ولم يُسامِحك؛

فالقصاص.. قال: أنا أرجع غدًا ويقتصُّ منِّي ويضربُني..

النَّبيُّ (ﷺ) قد أمر بالقَصاص، حتى إنَّه صلواتُ ربِّي وسلامه عليه، وهو مَن هو، أمر أنْ يُقتصَّ مِنه هو، في معركة بدرٍ، قبل أنْ تبدأ المعركة؛ كان النَّبيُّ (ﷺ) يُساوي الصَّحابة، تقدَّم يا فلان، تأخَّر يا فلانَ، سواد بن غُزِّيَّة (رضي الله عنه) صحابيٌّ جليلٌ وبدريٌّ، وأيضًا استُشْهِد في معركة بدرٍ، فكان النَّبيُّ (ﷺ) معه عصا، فقال: تأخَّر يا سواد، وكان الصَّحابة قد صُفُّوا في المعركة مِن أجل إذا بَدأ القتال مباشرةً؛ يكونون جاهزين، فصُفُّوا صفوفًا قبل أنْ يأتي العدو إليهم، فقال: تأخَّر يا سواد، فلم يسمع، قال: تأخَّر، فلم يسمع، فضربه النَّبيُّ (ﷺ) بالعصا، وقال: تأخَّر، قال: أوجعتني يا رسول الله، قال (ﷺ): خُذ اقتصَّ منِّي، قال: أعطني العصا، فأعطاه العصا، قال: اكشف عن بطنك حتى أضربَك مثلما ضربتني، فكشف عن بطنه (عليه الصَّلاة والسَّلام)، فانكبَّ سواد بن غُزِّيَّة على بطنه يُقبِّلُه، قال: ما حملك على ذلك يا سواد؟، لماذا فعلت ذلك؟، قال: يا رسول الله قد حضر ما ترى، فأردت أنْ يكون آخر جسدٍ أمسّه هو جسدك» [رواه البُخاريُّ]..

جبلة بن الأيهم لم يرضَ أن يُصفَع، وقال: يا عمر أنا آتيك من غدٍ، فهل جاء إليه أم لا؟.. لمَّا كان مِن غدٍ؛ أخذ عمر (رضي الله عنه) يترقَّب مجيء جبلة بن الأيهم ليُكْمِل الفصل في القضاء بينهما، ولكنَّ جبلة رَكَبَ على بعض دوابّ مع بعض أصحابه، وتوجَّه إلى الشام، رجع إلى دياره وتنصَّر وجلس مع النَّصارى هناك، وأخذ يقول ثالث ثلاثة، بدلاً من أنْ يقول ﴿قُل هُوَ اللهُ أحدٌ اللهُ الصَّمْدُ لَمْ يلِدُ ولَمْ يُولد ولم يَكُنْ له كُفُوًا أحدٌ﴾،

أخذ يقول الله ثالث ثلاثة، وأخذ يقع في أنواعٍ مِن المُخالفات حتى كَبُرَتْ سِنُّه، واشتاق إلى ما فُطر عليه مِن التَّوحيدِ والإيمان، يقولون فلما كَبُر؛ أخذ يبكي، ويقول:

تنصَّرَتِ الأشراف مِن عاري لطمة	وما كان مِنِّي لو صبرت لها ضرر
تغمـــدني منها لجـــاج ونخوة	فبعت به العَيْن الصَّفيحة بالعَوَر
يا ليت أُمي لم تلـــــدني وليتني	رجعتُ إلى القَول الذي قال لي عُمَر
ويا ليت لي بالشَّـــام أدنى معيشة	أُجالس قومي ذاهبُ السَّمْع والبصر

وجعل الرَّجل ينشِدُ الشِّعر، ويقول يا ليتي أعود فقيرًا مسكينًا أرعى المخاض بقفرةٍ، حتى ولو أرعى الإبل، بدلاً مِن أنْ أكون على نصرانيَّتي، ومات والعياذ باللهِ على ذلك، منعه مِن الإيمان كِبْره وغروره بنفسه وعدم تواضعه لحكمِ اللهِ عزَّ وجلَّ..

مشكلةُ الكِبْر أحيانًا أنَّه يمنع الإنسان مِن قبول الحقِّ، وكَمْ مِن إنسانٍ مَنَعَهُ فعلاً الكِبْرُ والغَيُّ مِن أنْ يقبل الحقَّ ويعود إليه، وكَمْ مِن إنسانٍ جذبه التَّواضُع إلى الحقِّ، ذلك اللهُ سبحانه وتعالى أخبر أنَّ الذين يتكبَّرون/ كما بيَّن اللهُ عزَّ وجلَّ ذلك في كتابه، هُم الذين يُبْعَدُون عن رحمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وكَمْ مِن إنسانٍ دُعي إلى الحقِّ وحذِّر مِن الباطل وبيَّن له الخيرَ، ومع ذلك منعه مِن قبوله الكِبْرُ والغَيُّ..

أبو جهل مثلاً لَقِيَهُ في يومٍ مِن الأيَّام واحدٌ مِن الصَّحابة في مكَّة، فقال له ذلك الرَّجل، وذلك الرَّجل أيضًا كان يُريد أنْ يتحدث مع أبي جهل لعلَّه يُسلِم، وأبو جهلٍ هو فرعون هذه الأُمَّة، فقال: يا أبا الحكم،

أسألك ألستَ تعلم أنَّ مُحمَّدًا على الحقِّ؟، قال: لا هذا باطلٌ وكذَّابٌ ومجنونٌ، قال: أصدقني، قال: والله أنا أعلم أنَّه على حقٍّ، وأنَّ عبادتِنَا للأصنام لا تنفعنا، قال: إذن عجبًا، ما الذي يمنعك مِن أنْ تدخلَ في دينه، قال إنَّا (قبيلة بني مخزوم) تنافسنا نحن وبنو عبد مناف الشَّرَف، بنو مخزوم وبنو عبد مناف كُلُّها فروعٌ وأفخاذٌ مِن قبيلة قريش، قال إنَّا نحن وبنو مناف تنافسنا الشَّرَف، كلٌّ واحدٍ يُريد أنْ يكونَ هو قائد مكَّة، وهو الشَّريف في مكَّة وله العلوُّ فيها، قال: فأطعموا؛ فأطعمْنا، وسقوا؛ فسقَيْنا، حتى إذا تحاكت الرَّكْبُ وكُنَّا كفرسَيْ رِهانٍ، يعني كُنَّا مثل الخيول التي تتسابق، وكُنَّا كفرسَيْ رهانٍ، قالوا مِنَّا نبيٌّ، فمِنْ أين نأتي بذلك؟، فكان يقول لو كانت المسألة طعاما؛ نُطعِمُ مثلَهُم، لو كانت شرابا؛ نسقي مثلَهم، لكن يقولون مِنَّا نبيٌّ، فمِنْ أين نأتي بنبيٍّ؟، ما في حلٍّ إلا أنْ نُكذِّب بهذا النَّبيِّ الذي يزعمون أنَّهم آمنوا به..

انظر كيف حَمَلَهُ الكِبْر والطُّغيان والاغترار بنسبه والحسد مِنْ أنْ يتَّبِعَ الحقَّ، وكَمْ مِنْ إنسانٍ مَنَعَه ذلك، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [سورة البقرة- الآية ٢٠٦].. كَم مِنْ إنسان نُصِحَ مِن أجل أنْ يُعيد الحقوق للآخرين؛ فتكبَّر عن هذه النَّصيحة، وقال ما لكم شغلٌ أنا أدرى بنفسي، أنا مُمكن أظلم أحدًا؟، أنتم أحقرُ وأذلُّ مِن أنْ تجعلوني أقبَلْ نصيحَتكُم، وكَمْ مِن إنسانٍ منعه الكِبْر مِن أجل أنْ يُصْلِحَ بينه وبين إخوانه، واحدٌ أخطأ مع زوجتِه وذَهَبَتْ إلى أهلها وصار بينهما مشكلةٌ، قلنا له: يا فلانَ، أنت فعلاً أخطأت، سواءٌ أَقْرَرْت أم لَمْ تُقرَّ، أنت أخطأت..

اذهب إليها واعتذر لها، وأعد بيتَك كما كان، أولادك الآن تشرَّدوا، وزوجتُك لا تطلب منك مالاً، تقول فقط: يعتذر لي، ويقول إنَّه فعلا افترى عليَّ، إنَّه شكَّ فيَّ شكًا خطأً، فيقول: أنا أعتذر لها؟ أنا أتنازل وأعتذرُ؟! ما منعه إلا الكِبْر..

وكَمْ مِن إنسانٍ أحيانًا، ربما أثناء الطعام يأكل بشِماله؛ فنقول له: جزاك الله خير، كُل بيمينك، فلا يلتفت إليك. ما منعه إلا الكِبْر، كان النَّبيُّ (ﷺ) جالسا يومًا مع الصَّحابة؛ وكان هناك رجلٌ يأكل بيسارِه، فقال له النَّبيُّ (ﷺ) بكلِّ لُطفٍ: كُل بيمينك، فقال: لا أستطيع، كِبْرًا، فقال له النَّبيُّ (ﷺ): لا استطعتَ.. قال الرَّاوي فما رفعها إلى فِيه.. هو يقول أنا لا آكل بيساري لأنِّي لا أستطيع أنْ آكل بيميني كِذبًا وغرورًا، فقال له النَّبيُّ (ﷺ): لا استطعت، فقال الرَّاوي فشُلَّتْ يمينه، وما استطاع أنْ يرفعها.. فقال النبي (ﷺ): ما منعه إلا الكِبْر [رواه البخاريُّ]..

انظر كيف دعا عليه النَّبيُّ (ﷺ) لما تكبر عن قَبول النَّصيحة؟.. ناسٌ منعهم الكِبْر حتى مِن الدُّخول في الإسلام، ناسٌ منعهم الكِبْر مِن الصَّلاة في المسجد، يقول أدخل إلى المسجد؟!، كما ذكروا عن الحجَّاج بن أرطرة، رجلٌ مِن رواة الحديث وكذا، ولكن ذمَّه بعضهم، وقالوا إنَّه ضعيفٌ، وممَّا ذكروا، قالوا: كان ينصحونه بأنْ يُصلِّي في المسجد، فيقول: أقف مع السُّوقة؟!، يعني الحمَّالين والبياعين الضُّعفاء، آتي وأقف وأنا بهيبتي وعطري وحُسني وجمالي، أقف مع السُّوقة؟!.. فكَمْ مِن النَّاس اليوم فعلاً يمنعه الكبر مِن الصلاة في المسجد أحيانًا، يكون

مثلاً مُديرَ الشَّركة، عميدَ الكُلِّيَّة، مديرَ الجامعة، أميرَ البلد، وزيرًا.. ولا ينزل يُصلِّي في المسجد مع النَّاس، يضع مصلاه في بيته يُصلِّي هو وأولاده أو هو والخَدَمُ والحَشَمُ..

اللهُ تعالى يُناديك، واللهُ تعالى يقول وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكعين.. اذهب وصلِّ في المسجد، انزل أنت يا مُدير الجامعة أو يا عميد الكُلِّيَّة وصلِّ في المسجد مع النَّاس، فالمساجد إنَّما بُنيَتْ ليُصلَّى فيها؛ لا لأنْ يجعل كلُّ واحدٍ مُصلًّى له يُصلِّي فيه.. فيقول: أنا أُصلِّي مع الطُّلاب؟!.. أنا أُصلِّي مع العُمَّال؟!.. ما منعه إلا الكِبْر.. ويُحشَر المتكِبْرون يوم القيامة كأمثال الذَّرِ؛ يطأهم النَّاس ولا يدخل الجنَّة مَن كان في قلبه مِثقالُ ذرَّةٍ مِن كِبْر..

أسألُ اللهَ تعالى أنْ يرزقَني وإيَّاكم التَّواضُع والانكسار له سُبحانه وتعالى.





غضُّ البصر..
هنا تظهر العبوديَّة لله

كــــلُّ الحوادث مبــداها مِن النظر	ومُعـظم النَّــــار مِن مستصغر الشَّرر
كــم نظـــرةٍ فتكت بقلبِ صاحبها	فَتــــكَ السِّهـــام بلا قوس ولا وتر
يــسرُّ مُــقْلَتَه مــا ضَــرَّ مهجتَه	لا مرحبـًا بسرورٍ عاد بالضَّـــرر

النَّظر وإطلاق النَّظر له قصصٌ عجيبةٌ، خلق اللهُ تعالى آدم (عليه السلام) وجعل له في الجنَّة ما يشاء مِن طعام وشراب ولِباسٍ وأنهار تجري وأنواع المُتع.. ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيَ أَنفُسُكُمْ﴾ [سورة فُصِّلت- مِن الآية ٣١].. ومع ذلك احتاج آدم إلى مَن يُؤنِسُه في الجنَّة، فماذا اختار اللهُ تعالى له مِن أنواع المخلوقات ليؤنسه؟.. هل اختار له طيرًا يُغرِّدُ بين يدَيْه، أم

اختار هرًّا أليفًا يلعب معه؟، أم اختار له فرسًا يطير بطريقةٍ مُعيَّنةٍ؟..
لا.. عَلِمَ ربُّنا جلَّ وعلا وهو الذي خَلَق آدمَ ذكرًا، أنَّه لا يستغني عن الأنثى، وأنَّ قلبه يميل إليها، وأنَّ قلبها يميل إليه، فخلق الله تعالى له أنثى.. ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [سورة الأعراف- الآية ١٨٩].. خلق حوَّاءَ مِن ضلع آدم..

تعالوا نقف على بعض قصص العاشقين، كيف عَشِقُوا؟، ولماذا عَشِقُوا؟، وما هي أخبار العُشَّاق؟.. ذكروا أنَّ الأصمعيَّ مرَّ يومًا ببلدةٍ فسكن فيها يومَيْن أو ثلاثة، ثم جعل يطوف حول البلدة ويتأمَّل، فمرَّ بصخرةٍ كبيرة وإذا مكتوب فيها:

أيا معشـــر العشَّـاق بالله خبِّروا ... إذا حلَّ عِشقٌ بالفتى كيف يصنعُ

فأخذ الأصمعي حجرًا وكتب تحته:

يُداري هــواه ثُمَّ يكتـــم همَّه ... ويقنـع بكـــلِّ الأمــور ويخنعُ

أي يسكت ولا يفعل شيئًا، ثُمَّ مضى الأصمعي، ثُمَّ لَمَّا مضى مِن غدٍ جاء إلى الصَّخرة، فوجد مكتوبا تحتها:

وكيف يُداري والهوى يفجأُ الحشى ... وفـي كـــلِّ يـــومٍ قلبُـــه يتوجَّعُ

فأخذ الأصمعي حجرًا وكتب:

إذا لــم يجد حــلاً لكِتمـان عشقِـه ... فليــس لـــه ســوى المـوت ينفع

ومضى، فيقول: ثُمَّ غاب أيَّامًا، ثُمَّ رَجَعَ إلى الصَّخرة، فإذا بقبرٍ بجانبها، فنظر إلى شِعْرِه، وإذ مكتوب تحت شعره:

سمـــــعنا.. أطـــعنا.. ثُمَّ مِتــنا   فبلغوا سلامي لمن قد كان بالوصل يمنعُ

هذه قصَّةُ صخرةٍ، ولا أدري إنْ كانت صحيحةً أم لا، وللعجب كُنتُ مرَّةً في بلاد الشَّام قبل سنتَيْن، فخرجنا إلى مطعم مع بعض الزُّملاء، وجلسنا بمطعمٍ في مكانٍ مُتنزَّهٍ خارج البلد، فكان بجانب المطعم جبلٌ وعليه صخرةٌ عظيمةٌ في أعلى الجبل، ورُسِمَ قلبُ حبٍّ منحوتٌ بالصَّخرة، فحدثنا الخادم في ذلك المطعم، قال: إنَّ هذه الصخرة نُسمِّيها صخرة العُشَّاق، قلنا لماذا تُسمُّون الصَّخرة التي في هذا الجبل بصخرة العُشَّاق، وجعلتُ أنظر الجبل، فهو جبلٌ شامخٌ كبيرٌ، والوصول إلى هذه الصَّخرة فيه مِن الصُّعوبة ما فيه، وهذه الصَّخرة فعلاً مرسومٌ عليها قلبٌ، فقلت له: لماذا كذلك؟، قال: لأنَّ الذي يحبُّ ولا يستطيع أنْ يواصِل محبوبته، يأتي في أعلى هذه الصَّخرة ويلقي نفسه، وينتحر.

حقيقةً أنا لا أدري هل هذا يقع أم لا يقع، أو أنَّها قصَّةٌ رُكِّب عليها قَصَصٌ، ولكن المقصود أنَّه فعلاً العِشق ربما لعب بقلب الإنسان، ومبدأ هذا العِشق إطلاق البصر..

كُنْتَ مَتَى أَرْسَــلْتَ طَرْفَكَ رَائِــدًا   لِقَلْبِـــكَ يَـــوْمًا أَسْلَمَتْكَ المَحَاجِرُ
رَأَيْتَ الَّــذِيَ لا كُــلَّهُ أَنْتَ قَــادِرٌ   عَلَيْهِ وَلا عَــنْ بَعْضِهِ أَنْتَ صَــابِرُ

يـــا نـــاظرًا ما أقلــعت لحظاته   حـــتى تشـــحط بينـهنّ قتيلا

لذلك نبيُّنَا (عليه الصَّلاة والسَّلام) لَّما كان في الحَجِّ، ولاحظ أنَّ النَّاس يُلبُّون في إحرامهم، وهم ما بين مِنى وبين عرفات وبين مزدلفة، هذا

في قراءة القرآن، وهذا رافعٌ يدَيْه يدعو الله تعالى، وهذا يعمل، فالنَّاس يشتغلون في الحجِّ بقلوبٍ مُقبلةٍ ونفوس مُنكسرَةٍ وأجسادٍ راغبةٍ إلى اللهِ تعالى وأيدٍ سائلةٍ مع المشاعر الجيَّاشة للتَّعبُّد.. كان النَّبيُّ (ﷺ) يسير على بعيره ومعه على البعير المجاور الفضل بن عباس، فأقبلت امرأة خثعميَّة، مِن خثعم، وَقَفَتْ بين يدَي النَّبيِّ (ﷺ) وقالت: يا رسول اللهِ، إنَّ فريضةَ الله على عباده أدركت أبي، وأبي شيخ كبير لا يثبُت على الرَّاحلة، أفأحجّ عنه؟، فالمرأة كانت وضيئةً، حسنةً، والفضل بن العباس كان شابًا حسنًا، فجعل النَّبيُّ (ﷺ) يصرِفُ وجه الفضل عنها، يضع يده على خدِّ الفضل ويصرفه عنها، حتى لا ينظر إليها..

ثُمَّ قال (ﷺ)، بعدما صنع ذلك، قال: «رأيت شابًّا وفتاةً فلم آمن الشيطان عليهما» [رواه البُخاريُّ]، ذلك كان في الحَجِّ، وليس في سوقٍ كما يقع اليوم، وليس أمام الإنترنت وأمامه الكاميرا، ورُبَّما نظر إلى ما شاء مِن المرأة التي يُخاطِبها، وليس عبر الهاتف الجوال ويراها بالفيديو، وليس أمام قناةٍ فضائيَّةٍ والمرأة ربما أَظْهَرَتْ أكثر ممَّا سَتَرَتْ، لا وليس في جامعةٍ، وقد جاءت الفتاة وقد لَبِسَتْ أضيق اللباس، ثُمَّ بعد ذلك وَضَعَتْ إيشاربًا على رأسها، وقالت أنا مُحجَّبةٌ والحِجاب منها بريء، فليس الأمر كله كذلك؛ بل كان ذلك في الحَجِّ، لبَّيك الَّلهُمَّ لبَّيك، وجاءت امرأةٌ تستفتي، وهو مع رسول الله (ﷺ)، ومع ذلك النَّبيُّ (ﷺ) يضع يده المباركة على وجه الفضل (رضي الله عنه)، ويَصْرِفُ وجهه، نعم هو مع نبيّ، وهو في حَجٍّ، لكن الشيطان شاطر، والشيطان شغَّال، والشيطان قد قال وهو يخاطب الله تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ

أَجْمَعِينَ﴾ [سورة «ص»- الآية ٨٢].. فتكفَّل الشيطان أنْ يعمل لإغواء النَّاس، وكما حكى جلَّ وعلا عن الشيطان أنَّه قال: ﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [سورة الأعراف- الآية ١٧]، في هذا الموطن وفي الحَجِّ، ومع ذلك النَّبيُّ (ﷺ) يحول بين الفضل وبين أنْ ينظرَ إلى هذه المرأة؛ لذلك قال «عليه الصَّلاة والسلام»: «مَن غضَّ بصره عن محاسن امرأةٍ وهو قادرٌ على أنْ ينظر إليها أورثه الله إيمانًا يجد حلاوته في قلبه» [رواه البخاريُّ]، غضَّ بصره عن محاسن امرأةٍ في الفضائيَّات، أو عن محاسنها في الإنترنت، أو في مجلَّةٍ أو في السُّوق أو في شارع أو الجامعة أو في طائرةٍ، أو في أيِّ مكانٍ غضَّ بصره.. ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ﴾ [سورة النُّور- الآية ٣٠].. ومع قدرته على النَّظر إليها، أورثه الله إيمانًا يجد حلاوتَه في قلبه..

ما قصَّة الأعرابيِّ الذي كان يعشق جاريته، ومِن شِدَّة عشقه لها قتلها؟.. هذا له خبرٌ عجبٌ.. ذكروا في كُتب الأدب أنَّ رجلاً أعرابيًّا كان له جاريةٌ يعشقها عِشقًا شديدًا، يهيم بها حُبًّا، هذا الأعرابيُّ في البرِّ عنده إبلُه وغنمُه وفي خيمةٍ أو عدَّة خيام مع قومه، وعنده جاريةٌ يُحبُّها حُبًّا عظيمًا، لا يصبر على رؤيتها والنَّظرِ إليها، وهذا الحبُّ لها يذكِّرني بأحد حُكَّام الأندلس، ذكروا أنَّه كان يعشق جاريةً عشقًا عظيمًا، قالوا فجلس معها يومًا يُضاحكها وتُضاحكه، قال فضحكت فأخذ عنبًا فألقاه في فمها، يُلاطفها، والمرأة مع الضَّحِك أخذت نفسًا فأخذَتْ مع النَّفس عِنَبَةً في حنجرتها، فدخلت في حَنْجَرَتِها فماتَتْ، فانكبَّ يبكي ويُقبِّلُها

ويُحرِّكها، وهي قد ماتَتْ.. يقولون فلم يخرج مِن غرفَته سبعة أيَّام وهي أمامه حتى تغيَّرت.. رفض أنْ يُحرِّكوها مِن مكانها، حتى جاءُوا بمَن يُقْنِعَه أنَّ المرأة انتهت.. ولكن شدَّة العِشق والتَّعلُّق، فهو أمرٌ إذا تمكَّن مِن القلب وأعان عليه أحيانا إبليس والشيطان والفراغ، ربما أفسدَ على الإنسان دينَه وعقلَه..

فهذا الأعرابيُّ كان يُحبُّ هذه الجارية، وهو في هذه الصَّحراء بين إبِلِه وغنمه وفي خيمتِه وعنده هذه الجارية، يومٌ مِن الأيام رأى عبدًا له ينظر إلى هذه الجارية، وهم في الصَّحراء، فغضِبَ، كيف ينظر إليها غيره، فأقبل إلى الجارية وأخذ رمحه وطعنها في حلقِها وماتَتْ، وجعل يبكي عند رأسها، ويقول:

يا طلـــعة طلع الحمــــام عليها ... وجنـــى لها ثـــمر الــــردى بيديها

رويـــت من دمـــها التراب وطالم ... روى الهـــوى شفـــتي من شفـــتيها

وأجلـــت سيـــفي في مجال خناقها ... ومـــدامعي تجـــري على خـــديها

فوحـــق نعـــيلها وما وطئ الثرى ... شيء أعـــــز علي من نعــــــليها

ما كـــــان قتلــــها لأني لم أكــــن ... أبكـــي إذا سقـــط الغبار عليها

لكـــن بخلت على سواي بحسنها ... وأنفـــت من نظـــر العيـــون إليها

انظر كيف دفعه شدَّة هذا التَّعلُّق إلى أنْ يقتلَها، اليوم يدفع شدَّة التَّعلُّق إلى الاختطاف، أنا بعيني رأيت في السُّجون شبابًا تعلَّقوا بشبابٍ حِسانٍ، ليس فقط التَّعلُّق بفتاةٍ، أحيانًا بشابٍّ حَسن، مِثل مَن قال:

مـــا زلـــتُ تتبـــع نظـــرةً في نظرةٍ ... في إثـــر كـــلِّ ملـــيحةٍ ومـــليح

وتــظن ذاك دواء قلـــبِكَ وهـــو في التَّـــحقيــق تجـــريحٌ على تجريح

يـــا نـــاظرًا ما أقلـعت لحظاته حـــتى تشـــحط بينـــهنّ قتيلا

فرأيت في السُّجون شبابًا محكومًا عليهم بالسَّجن مُدَّة سنةٍ أو سنتَيْن، وبعضهم قد حُكِم عليه بالقصاص والقتل بسبب العشق، تعلَّق بشابٍّ مثله، ثم اختطفه ليقع عليه بالفاحشة، ثُمَّ قُبِضَ عليه، ورُبَّما اختطفه ثُمَّ قتله ثُمَّ بعد ذلك، والعياذ بالله، جرَّه هذا إلى أنْ يفعل ما يفعل مِن شدَّة العِشق والتَّعلُّق، ولو أنَّه استعاذ بالله تعالى، وترك ذلك لكان هذا أسلم له، سواءٌ في الدُّنيا أو في أُخراه.

ورأيتُ أيضًا بعض النَّاس ممَّن عَشِقَ فتاةً وعَشِقَتْه ثُمَّ احتال عليها أو احتالت عليه حتى هرب معها وحَمِلَتْ منه، ثُمَّ لَمَّا وُلد الغلام وقُبض عليها وتورَّط رفض أن يُنسب الغلام إليه؛ لأنَّه ليس بعقدٍ شرعيٍّ، وأمورٌ كُلُّها بسبب إطلاق البصر وإقامة العلاقة المُحرَّمة..

اليوم الأمر أصبح أعظم مِن ذلك، كما قال أحد العُشَّاق، وذكرها الأندلسي في «بهجة المجالس»، قال كان العاشقون في السَّابق نظرة فجلسة، يعني العشَّاق في السَّابق كانوا نظافا، حتى عنتر وعبلة ما كان يخرجها ويجلس معها في مطاعم، بل كانوا عُشَّاق عشقٍ ربما فيه شيء مِن المخالفة الشَّرعيَّة، ولكن عشقٌ نظيفٌ، يُسمُّونه عِشْقا عذريّا، ينشد فيها الأشعار وتنشد فيه الأشعار وانتهينا.. هذا الرَّجل في «بهجة المجالس»، يقول: «كان العُشاق في السَّابق، العِشق نظرةٌ وجِلسة، ينظر إليها وهُم

يرعون الغنم، ويجلس يتحدَّث معها، عشقٌ، أمَّا اليوم فالرجل إذا عَشِقَ امرأةً، أخذها ثُمَّ قبَّلها ثم جهدها، ثُمَّ كأنما أَشْهَدَ على نكاحها أبا هريرة»، يقول أصبح اليوم العِشق، عافانا الله وإيَّاكم، ما صار عِشْقًا بل فاحشةً، اليوم أصبح الأمر أكبر وأطم، اليوم بعد أنْ أصبح العِشق عبر الإنترنت وغُرَف البال توك، وعبر الماسينجر والشَّات وغير ذلك، وأصبح يَنقل الصَّوت والصُّورة، وربما كانت الصُّورة مع تطوُّر الأمر تزداد صفاء وجودة، الآن بعد الجوَّالات وانتشار إرسال الصُّور والمُحادثات عبر الكاميرات وعبر مكالمة الفيديو، أصبح إضلال الشيطان للنَّاس، أسهل ممَّا سبق..

في السَّابق لمَّا كان الشَّيطان يُريد أنْ يُضلَّ النَّاس هناك حواجز تمنعهم مِن أنْ يصلوا إلى الضَّلال، البنت ما تستطيع، أهلها يراقبونها، ليس عندها هاتفٌ خاصٌّ في غرفتها، ليس هناك سوى الهاتف في الصَّالة، الآن هاتفها أو هاتفاها، ربما كان في كلِّ جَيْبٍ مِن جيوبها هاتفٌ ورقمٌ، أصبحت الآن مِن خلال الكمبيوتر أو غيره تستطيع أنْ تكون هذه العلاقات؛ لذلك هنا تظهر العبوديَّة لله..

يقول ابن الجوزيُّ (رحمه الله) لمَّا ذَكَرَ قِصَّة يوسف (عليه السلام) مع امرأة العزيز، وكيف أنَّه لمَّا تعرَّضت له، وقالت هيت لك قال معاذ الله إنَّه ربِّي أحسن مَثواي، وجعل يهرب مِن بين يدَيْها حتى تمزَّقت ملابسه، وفرَّ، ثُمَّ سُجِنَ سِنين في سبيل أنْ يحفظ نفسه عن الفاحشة، قال ابن الجوزي بعدما ذكر قصَّته: «هنا تظهر العبوديَّة لله، لا في صلاة ركعتَيْن».. يقول العبوديَّة لله تظهر في مِثل هذا الموقف، في أنْ تقدر على المعصية وتمنع نفسك منها،

أنْ يكون عندك مِن الإيمان ما تحوله به بينك وبينها، يقول هنا تظهر العبوديَّة لله لا في صلاة ركعتَيْن.. كُلَّما كان الإنسان أكثر تمسُّكًا فعلا وتعبُّدًا لله تعالى، وإيمانُه مرتفعٌ؛ استطاع بإذن اللهِ أنْ يحول بينه وبين ذلك..

أوَّل شيءٍ ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ [سورة النُّور- الآية ٣٠]، وقال جل وعلا: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [سورة النُّور الآية ٣١]، حتى المؤمنات لابدَّ أنْ يغضضنَ مِن أبصارِهنَّ.

الأمر الثَّاني أنْ يبتعد الإنسان عن مواقع الفِتَنِ، سوقٌ يكثر فيه التَّكشُّف فلا داعي مِن الدُّخول إليه ويذهب لسوقٍ آخر، جامعةٌ فيها أنواعٌ مِن الفساد والتَّكشُّف، يا أخي اذهب وسجِّل في جامعةٍ أخرى، شبابٌ عندهم هذا النَّوع مِن التَّفسُّخ، لا تجلس معهم، وكذلك الفتاة في تعاملها مع غيرها وفي حرصها على حجابها، ولا تنظر إلى الهالك كيف هَلَك، ولكن انظر إلى النَّاجي كيف نجا..

أسأل اللهَ جلَّ وعلا أنْ ينفعني وإيَّاكم بما سمعنا، وأنْ يعيذنا مِن الفِتَنِ ما ظهر منها وما بَطَن..



الحمّار الذي أصبح خليفة !!

هِمَمُ النَّاس تختلفُ، وغاياتهم وتخطيطهم للحياة يختلفُ مِن شخص لآخر، بعضُ النَّاس يكتفي بالأماني، كما قال الله جل وعلا: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً﴾ [سورة النِّساء- الآية ١٢٣].. فالله سُبحانه وتعالى يقول ليس بأمانيّكم تدخلون الجنَّة وليس بأمانيِّ أهلِ الكتاب، فالجنَّة ليست بالأمنية، ولكن مَن يعمل سوءًا يُجز به؛ فلا تعمل سوءًا وإلا جُزيت به، فكذلك الأمانيُّ كما يقولون لا تبني مجدًا ولا تنكأ عدوًّا ولا تصيد صيدًا، فالإنسان مهما نظر إلى الطُّيور فوقه وتمنَّى هذا الطَّير مشويًّا، وهذا الطَّير مقليًّا؛ فلن تصنع شيئًا، والإنسانُ الذي يمرُّ بالبيوت

الفارهة والمراكب المُرفَّهة ويتمنَّى مثل ذلك البيت، ومثل هذه المركبة دون أنْ يصنع شيئًا؛ فلن يستطيع أنْ يبنيَ مَجْدًا.. هذا أمرٌ مُتَّفقٌ عليه، إنَّما الدنيا كما قال شوقي:

وما نَيْلُ المطالِبِ بالتَّمنِّي ولكن تُؤخذ الدُّنيا غِلابًا

وما انقادت الآمال إلا لمغامرٍ.. فالذي يُغامر ويشدُّ، هو الذي يقود الآمال، ونحن اليوم مع قِصَّةٍ عجيبةٍ لرجلٍ كان يشتغل حَمَّارًا، يعني عنده حِمارٌ يؤجِّره وينقل عليه البضائع، ثُمَّ أصبح خليفةً، فما هي قصَّةُ هذا الرَّجل الذي أصبح خليفةً؟..

هذا الرَّجل كان مِن سُكَّان الأندلس اسمه مُحَمَّد بن أبي عامرٍ، كان له صديقان يبيت معهما في مكانٍ واحدٍ ويخرجون معًا، وكلّ واحد من هؤلاء الثَّلاثة يملك حِمارا، ويسوقه في الأسواق، فتارةً يحمل عليها بضاعته، وأحيانًا يحمل بعض الرُّكَّاب فهو يسيرُ بهذه الدَّابَّة، ويتكسَّب من خلاله المال.

يوما مِن الأيَّام أووْا بالليل لمكانٍ ليبيتوا فيه، ووضعوا حَميرَهم بجانبهم، وجلسوا يتحدَّثون وهم يأكلون طعامَهم، فقال لهم مُحَمَّد بن أبي عامرٍ هذا: ماذا تتمنُّون؟، فقال أحدهم: أتمنى أنْ أملُكَ خمسةَ حَميرٍ فبدلاً مِن أنْ أتكسَّب في اليوم درهمًا أو درهمَيْن؛ أتكسَّب عشرة دراهمَ، وقال الثَّاني: أتمنى أنِّي أملكَ دكانًا في السُّوق بدلاً مِن هذا الحِمار، وقالوا له: وأنت يا ابن أبي عامرٍ، ماذا تتمنَّى؟، قال: أتمنَّى أنْ أصْبِحَ الخليفة.. قالوا: ماذا؟!!.. حَمَّارٌ لا تملك مِن الدُّنيا إلا هذا الحِمار، وتُريد أنْ تصبحَ

الخليفة؟، قال لهم: نعم، ثُمَّ قال: وماذا تريدون أنْ أعطيكم لو أصبحت الخليفة؟، قال أحدهم: أتمنَّى أنْ تعطيني قصرًا، قال: وغيره، قال: قصرٌ به حديقةٌ كبيرةٌ، وقال: وماذا أيضًا؟، قال: وتزوِّجني أربعة نساء، قال: وماذا أيضًا؟، قال: كفى.. ثُمَّ نظرَ للثَّاني، وقال له: وماذا تتمنَّى أنت؟، قال: أتمنَّى أنْ تركِبَني على حماري بالمقلوب، وتطوف في المدينة، وتقول هذا أكبر دجَّالٍ وكذَّابٍ، قال: يعني لو صرت خليفةً أفعل بك هذا؟، قال: نعم، بل وسوِّدَ وجهي، قال: نعم.. ثُمَّ أووا إلى فروشِهم..

تَرى الإنسان الذي عنده غايةٌ يجب أنْ يخطِّطَ لها، جعل يقول أنا الآن إذا أردت أنْ أصبحَ خليفةً، فما هي الطَّريقة؟، أبقى أشتغل على حِمارٍ؟!.. لا.. لابدَّ أنْ أُخطِّطَ وأنظر ما الطَّريقة التي أُصبِح بها خليفةً، حتى ولو أصبحت خليفةً بعد عشر سنواتٍ أو عشرين أو ثلاثين، ليست مشكلةً، ولكن أسلُكَ أوَل الطَّريق، وكما يُقال طريقُ الألف ميل يبدأ بخطوةٍ، والنَّبيُّ (ﷺ) لمَّا بعثَهُ اللهُ تعالى بدأ بقول اللهِ تعالى: ﴿اقْرَأْ﴾ [سورة العَلَق- الآية ١]، وبخطواتِ النَّبيِّ (ﷺ) في مكَّة وهو يدعو الله، فلا تحتقر شيئًا.. ابدأ والله يُعينُكَ، فجعلَ يُفكِّرُ، فقرَّر أوَّلَ شيءٍ أنْ يبيعَ الحِمار، وأنْ يشتَغِلَ في الشُّرطة حتى يكون قريبًا على الأقلِّ مِن حاشية الخليفة..

أصبح الصُّبحُ؛ فباع الحِمار، قال له أصحابُه: أبِعْتَ الحِمار؟!!.. ستموت مِن الجوع، قال لا: فأنا عندي غايةٌ أعلى، فمضى وأراد أنْ يشتَغِلَ في الشُّرطة، ودفع شيئًا مِن المال واشترى به لباسَ الشُّرطة وسلاحهم، وقال أنا جاهزٌ وعندي السِّلاح والمال فاشتَغل في الشُّرطة، وكان جيِّدًا وذكيًّا، فما زال يترقَّى في الشُّرطة حتى أصبح

قريبًا جدًّا من الخليفة، أصبح في الحواشي..

ثُمَّ مات الخليفةُ، ولمَّا مات الخليفةُ؛ تولَّى ابنُه، وكان عمر الابن عشر سنواتٍ، فكان لابدّ مِن وصيٍّ عليه، فأُمُّ الخليفة قرَّبَتْ مُحَمَّد بن أبي عامرٍ واثنين معه، واحد اسمه ابن أبي غالب، وواحدٌ اسمه ابن طُمَيْح، فقالت أنتم الثَّلاثة أوصياء على ولدي، فلمَّا أصبحوا أولياءَ عليه ما زال ابن عامرٍ يكيد لابن طُمَيح حتى أبعدته الأُمُّ، وقالت أنت لا تصلح، فأبعدته، ولم يبق إلا ابن أبي عامرٍ وابن أبي غالبٍ، فجاء ابن أبي عامر وخطب ابنة أبي غالبٍ لابنه، وزوَّجه، فلمَّا تزوَّج ابنة الرَّجُل؛ أصبح صاحبًا له ومشَّى كلامه عليه، وأصبح هذا الغلام ابن العشر سنوات يحكمه في الحقيقة هذا الرَّجل، ابن أبي عامرٍ..

يقولون فكان الغُلام لا يخرج من البيت ولا يعود إليه ولا يخرج إلى مكانٍ، ولا يُدخَلُ عليه، إلا بإذنٍ من ابن أبي عامر، فأصبح الوزراء لا يأتمرون إلا بأمره، وأصبح الوُجهاء يبحثون عن رضاه وعن حاجته، وهذا الكلام لم يأت بين ليلةٍ وضحاها؛ بل هذا الكلام مضى عليه أكثر مِن عشرين سنة، ومضى على هذا الحال حتى أصبح في الحقيقة هو الخليفة، تملَّك وأصبح يُرسِلُ الجيوش، ويقول أهل العلم حتى إنَّه لم تُسمَّ تلك الدَّولة بدولة خُلفاء الأندلس، وإنَّما أصبحتْ تُسمَّى بالدَّولة العامريَّة نسبةً له، وبعد ما أكمل ثلاثين سنةً مِن موقفه الأوَّل إلى الآن؛ تذكَّر صاحبَيْه، فنادى رجلاً وقال له اذهب إلى السُّوق الفلانيِّ، واسأل عن فلانٍ وفلانٍ وائتِ بهما إليَّ، فمضى وجعلَ يصيح في السُّوق، فإذا هما ما يزالان على عملهما، كلُّ واحدٍ عنده حِمارٌ يُطلِّعُ كلَّ يومٍ درهمَيْن

يعيش منهما، وصار لهما ثلاثون سنةٍ على هذا الحال..

فأقبل إليهما في السُّوق؛ فإذا هُما على حالِهما فناداهما، فلمَّا أقبلا إلى الخليفة ووقفا بين يدَيْه قال: هل تذكراني؟، قالا: نعم، وقد كُنَّا نودُّ أنَ نراكَ مِنٍ زمانٍ، فقد عرفنا أنَّه قد أصبح لك شأنٌ، ولكن نحن أناس ضعفاء مساكين لا ندخل على الخلفاء وسمعنا بحالك، فقال: تذكران ما كُنتما تمنيتما لمَّا تمنيت أنا أصبح خليفةً؟.. وأصبحتُ خليفةً فهل تذكر أمنيَّتَك يا فلان؟.. قال: نعم، قال: ما أمنيتك؟، قال: أنْ أملُكَ قصرًا فيه حديقة، وأنْ أتزوَّج النِّساء، فقال: خذ هذ القصر وخُذ هذه الحديقة معه، وهذا مهر أربع نساء، وقال: لو كنت تمنيت أكثر؛ لكنت أعطيتُك، ثُمَّ قال: تعال يا فلان، ماذا تمنَّيتَ؟، فقال: أعفني أيُّها الخليفة، قال: ماذا تمنيتَ؟ قال: تمنيتُ أنْ تُركِبَني على حمارٍ بالمقلوب وتُسوِّدُ وجهي وتطوفُ وتقول هذا أكذب النَّاس وأكثر النَّاس دجلاً، فأمر به؛ ففُعِلَ به ذلك..

المقصود، سواءٌ أيُّها الأفاضل ثبُتَتْ هذه القِصَّة أم لم تثْبُت، والرَّاجحُ أنَّها ثابتةٌ لأنَّها مذكورةٌ في كُتُبِ التَّاريخ، أنَّ الإنسان بحسب ما يجعل مِن همَّتِه وحُسْنِ ظنِّه؛ فإنَّ اللهَ جلَّ وعلا يكون عند حُسْنِ ظنِّه به، كما جاء في قَوْلِ النَّبيِّ (ﷺ): «يقول تعالى أنا عند ظنِّ عبدي بي» [رواه البُخاريُّ]، فليظنُّ بي ما يشاء.. فالإنسان يظنُّ بربِّه أنَّه يغفرُ له ذنبَهُ، يظنُّ بربِّه أنَّه سينجِّحُه في دراسته، يظنُّ في ربِّه أنَّه سيقضي عنه دينَه، لا تظنَّ بربِّك ظنَّ السَّوْء، كما قال الله جل وعلا: ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْماً بُوراً﴾ [سورة الفتح- مِن الآية ١٢].. كيف يظنُّ الإنسان الظَّنَّ الحَسَنَ؟،

وكيف يستطيع فعلاً أنْ يُحسِّن ظنَّهُ؟، وكيف يستطيع أنْ يصِلَ إلى القمَّة؟ هذه تحتاج إلى نقاطٍ.. سأذكرها لكم..

الإنسان الذي يُريد أنْ يصِلَ للقمَّة لابدَّ أنْ يخطِّطَ للوصول إلى ذلك، هذا أوَّلاً، لابدَّ أنْ يُصاحب الناجحين، الذين يشجِّعونه على الوصول إليها، لا يُصاحب النَّاس «البطَّالين» الذين يُحبطونَه ويقولون لن تستطيع، لن تقدر، «غيرك كان أشطر»، ونحو ذلك، فليصاحب النَّاس الذين كانت أصلاً همَّتُهم عاليةً مِن أجل أنْ يصل إلى ذلك.

عبد اللهِ بن عبَّاسٍ (ﷺ) لَمَّا تُوفِّي نبيُّنا (عليه الصَّلاة والسَّلام)، كان عبد اللهِ بن عبَّاسٍ غلاما، فقال عبد اللهِ بن عبَّاسٍ لغلامٍ مِن الأنصار: يا فلان.. قد فاتنا أنْ نطلُبَ العِلْمَ مِن رسولِ اللهِ (ﷺ) تعال، نطلب العلم الباقي عند الصَّحابة، فقال له ذلك الغلام- وانظُرُ الفرق في الهِمم-: أتؤمل أنْ تُصْبحَ عالِمًا، طيِّب طلبنا العلم وحفظنا الأحاديث، هل تصير عالمًا، وفي النَّاس أبو بكرٍ وعثمانَ وعليٍّ، وكلٌّ هؤلاء أصبح لهم شأنٌ، أتزاحمهم؟، اذهب وتعلَّم صنعة لتكون حدَّادًا أو نجَّارًا... أرأيتم الفرق في الهِمَّة؟، وبعض النَّاسِ أدنى مِن ذلك..

فلمَّا قال ذلك، يقول ابن عبَّاسٍ: فانصرفت أنا إلى طلب العلم، وانصرف ذلك الرجل إلى شأنه، يطلُب عملَ الحِدادة أو صنعةً له، وفعلاً إذا نظرتَ؛ وجدتَ ذلك الغُلام عند الحدَّاد يشمُّ رائحةَ الكِير والحديد واللحام، وهذا الحدَّاد يشتَغِلُ في حديده وقد أشعل تنوره، وهذا الغلام يتعلَّم كيف يصير حدادًا، وابن عبَّاسٍ قد ثنى رُكَبِه في

طلبِ العِلْم، فيقول (رضي الله عنه): كنت آتي إلى الرَّجلِ مِن أصحابِ رسولِ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) لأسأله عن مسألةٍ، عمره ١٣ سنةً، يقول: فأطرق عليه الباب، فيقال هو نائمٌ، فيقول: فأنظر إلى الباب، وأقول لَئن رجعتُ ربما خَرَجَ وفاتني، وإنْ طرقتَ البابَ أكثر؛ فأزعجته وخرج إليَّ وهو غير طيِّب النَّفسِ، فماذا أفعل؟، يقول: فكنت أنتظر بالباب، فيقول: فيغلبني النَّوم وتَأتي الرِّيحُ ويسفُّ التراب على وجهي..

يقول: فإذا استيقظ الرجل، وفتح الباب؛ رآني غلامًا صغيرًا والتُّراب على وجهي وشعْري، وقال: يا ابن عبَّاسٍ يا ابن عمِّ رسولِ الله (صلى الله عليه وسلم)، ما حاجتُك؟، فيقول: حاجتي أنْ أسمعَ منك أحاديثَ عن النَّبيِّ (صلى الله عليه وسلم).. فيقول لي: يا ابن عمِّ رسولِ اللهِ، أفلا كنت أيقظتني؟، لماذا لم توقظني؟، فأقول له: لا، فإنَّما أريد طِيب نفسِك، يقول: فيحدِّثُني، يقول: وكنت يومًا مع زيدِ بن ثابتٍ (رضي الله عنه)- وزيدٌ بن ثابتٍ هو أفرض النَّاس، أي أعلمُ النَّاس بالمواريث وتقسيم التَّرِكات- فيقول ابن عبَّاسٍ: فأمسكت خِطام ناقته أسوقه، فقال: دعها، فقلت: هكذا أُمِرْنَا أنْ نعملَ بعلمائِنا، نكرمهم، يقول: فقال: هات يدَكَ، وابن عبَّاسٍ كان غلامًا صغيرًا، يقول فناولته يدي؛ فقبَّلَها، وقال: هكذا أُمِرْنا أنْ نفعلَ بآل بيت نبيِّنا (عليه الصَّلاة والسَّلام).. تبادلٌ بينهما..

ولكن ما النَّتيجة التي حصل عليها ابن عبَّاسٍ؟، هذه الهمة العالية كيف أوصلته للقمَّة؟، وهذا الفرق بين النَّاس، وهَذه رسالةٌ أيُّها الأفاضل إلى كلِّ مَن يُريدُ أنْ ينجحَ في الحياة، كلُّ من يريد أنْ يصلَ إلى القِمَّة سواء قِمَّةٌ في دعوةٍ، أو قِمَّة في عِلْمٍ، أو في حِفظِ القرآن، أو قِمَّة في تجارةٍ،

أو في صناعةٍ، أو في اختراعٍ، أو في خطابة، أو في تأليفٍ، لا تكتفي بيا ليتني ويا ليت، فهل تفيد بشيء «ليت»؟.. ليت شبابًا بيع فاشتريت؟.. لا تنفع الليت شيئًا يا جماعة، ليتني كذا وكذا.. هذا لا ينفع، ما ينفعُ الإنسان إلا الاستعانة باللهِ عزَّ وجلَّ وحِرصُه أنْ يعملَ ويجتَهِدَ..

اسمع إلى النَّتيجة التي وصل إليها ابنُ عبَّاسٍ، يقول عنه أبو صالحٍ، أحد أصحابه، كما يقول الذَّهبيُّ في كتابه «السِّيرة عن النُّبلاء»، يقولُ: رأيت مِن ابن عبَّاس منظرًا في الحجِّ، والله لو رآه اليهودُ والنَّصارى والبربرُ لأسلموا جميعًا، قيل له: ما رأيت؟، قال: رأيتُ النَّاس مجتمعين، حُجَّاجٌ في الحجِّ يلبُّون وهم مُحرِمون، يقول: فقام ابنُ عبَّاسٍ خطيبًا بينهم، يقول: فجعلوا يستمعون إليه، وجعلَ يقرأ سورةَ البقرة ويفسِّرُها آيةً آيةً، فواللهِ ما أسقط منها آيةً، فوالله ما أدري بماذا أعجب؟، هل مِن قوَّةِ حفظه للقرآن، أم مِن علمه في التَّفسير؟، يقول: فمِن النَّاس مَن يستمع ومِن الناس مَن يستمعُ قليلاً ويذهبُ.

وقال عنه بعض أصحابه: جئت مرة أريد ابنَ عبَّاسٍ، قال: فلما وصلتَ إلى بيته؛ فإذا الطُّرُقُ إلى بيته مسدَّدةٌ، يعني كلُّ مَن يريد أنْ يصلَ؛ يجدُ الطَّريق مليئا بالنَّاس، قال: فتخلَّصتُ مِن بينهم حتى وصلت إليه.. وتخيل معي هذه المدينة الكبيرة على قدمها مع ازدحام النَّاس فيها، وابنُ عبَّاسٍ بيتُه فيها، ولكنَّه بيتٌ يشعُّ منه نورُ العِلمِ والتُّقى والحِرصُ والنَّجاح ونفعُ الأُمَّة.. فأقبل هذا الرَّجُلُ يتخلَّص مِن بين النَّاس حتى طَرَقَ الباب على ابن عبَّاسٍ، فلمَّا طَرَق الباب عليه ودخل؛ قال: يا ابن عبَّاسٍ ما هؤلاء؟، قال: هؤلاء طُلاب العِلْمِ جاءوا يمشون مِن مِصْرَ

والشَّام والعراق، فهؤلاء طُلاب عِلْم جاءوا يسألوني، قال: سبحان اللهِ، فاخرج إليهم فقد أحرقَتْهُم الشَّمسُ، قال: نعم..

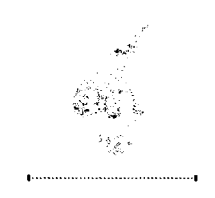
فجاء ابنُ عبَّاسٍ وتوضَّأ وجَلَسَ في فناء المنزل، ثُمَّ أَمَرَ الغُلام، فخرج الغلام، وصاح، وقال: مَن كان يُريد أنْ يسألَ عن القرآن والتَّفسير فليدخل، فدخل عددٌ مِن الناس، فجعلُوا يسألونَه، هذا يسأل عن سورةِ المائدة، وهذا آيةٌ في سورة البقرة، وهذا في سورة آلِ عمران، وهذا في أسباب نزول كذا، وهذا في معنى كذا، ثُمَّ قال لهم ابنُ عبَّاسٍ: إخوانكم.. إخوانكم، يعني اخرجوا، فخرجوا، ثُمَّ خرج الغُلام، وقال: مَن أرادَ أنْ يسأل عن الحديث فليدخل، فدخل عددٌ مِن النَّاس ثُمَّ خرجوا، ثُمَّ خَرَجَ الغُلام: مَن أراد أنْ يسألَ عن الفِقه والأحكام فليدخُل، فدخلوا ثُمَّ خرجوا، فيقول صاحبه: فواللهِ ما سُئِلَ عن مسألةٍ فقال لا أعلم، تفسيرٌ وحديثٌ وفقه وتاريخٌ وشعرٌ، فيقول: لو أنَّ قريشًا جَعَلَتْ مجلِسَه هذا مفخرة لها أبدَ الدَّهرِ؛ لحُقَّ لها ذلك..

صاحبه الأوَّل- وقد أصبح حدَّادًا كبيرًا- كان يمرُّ بابنِ عبَّاسٍ، وهذا يُقبِّلُ رأسَه، وهذا يستفتيه، فكان يقول: والله يا ابن عبَّاسٍ لقد كنت أفقَه مِنِّي..

هذه هي الهِمَّة العالية أيُّها الإخوة والأخوات، ربما أبدأ دراسةً مع إنسانٍ، بعد فترةٍ يُصبح عالمًا وأُصبِح أنا إنسانًا عاديًّا، يُصبح هو إمامَ مسجدٍ حافظًا للقرآن وأنا إنسانًا عاديًّا، تُصبح هذه المرأة داعيةً إلى اللهِ آمرةً بالمعروفِ

وناهيةً عن المُنكرِ، وهذه إنسانة عاديَّة.. فرقٌ في الهِمَم، فمَن كان يُريد أنْ يكونَ له وجودٌ في الحياة فليحْرِصَ على أنْ يكون له هِمَّةٌ عاليةٌ..





عُلوُّ الهمة

يتفاوت النَّاس في رِفْعة وعُلوِّ همَّتِهم فيما يريدون أنْ يفعلوه، مِن النَّاس مَن يرضى بأنصاف ما يُريد، ومِن النَّاس من يرضى بما هو أقلُّ مِن ذلك، ومِنهم مَن ينظر إلى القمَّة ولا يرضى أنْ تكونَ منزلَتُه إلا فيها، كما قيل ليزيدِ بن المُهلَّب، قالوا- وكان يسعى لأجل أنْ يكون أميرًا على البلد، فكان ليس له بيتٌ مُحدَّد، يتنقل مِن بيتٍ إلى آخرَ في كلِّ فترةٍ- له: متى تبني بيتًا؟ فقال منزلي دار الإمارة أو الحبس أو القبر، ما في غير ذلك، كما قال الأوَّل:

ونحـــن قـــوم لا توسُّط عنـــدنا ... لنا الصَّـــدر دون العالمـــين أو القبر

تعالوا اليوم نقف على بعض الصِّفات، بل بعض الحوادث والقَصَص

التي تُبيِّن فروق علوِّ الهمَّة أساسًا، وما معنى علوِّ الهمَّة وكيف يستطيع الإنسان أنْ يُصْبِحَ شيئًا مذكورًا في هذه الحياة؟..

ذُكِرَ أنَّ رجلاً تاجرًا كبيرًا أراد أنْ يُدرِّبَ ولده على التِّجارة، ولا يريدُ أنْ يكون الولد فقط يأكل ويشرب ويَطْعَم؛ بل يريد الولد أنْ يشتَغِل مثل النَّاس ويذهب ويأتي ويتعلم، فقال له: يا بني خُذ هذه الألف درهم وسافر إلى البلد الفلانيِّ واشترِ بضاعةً وتعالَ مِن أجل أنْ تبيعها بربحٍ، ويُريده أنْ يتعوَّدَ على السَّفر ويتعوَّد على المماكسة في البيع والشِّراء، يتعوَّد على تعب الطَّريق ووعثاء السَّفر حتى يُصبح رجلاً، ما يريده فقط جالسا لا يأكل مِن كسبه، فأخذ الألف درهم ومضى، فلمَّا قطع مسافةً تَعِبَ ونَصَبَ، وجلس تحت شجرة ليرتاح، في هذه الأثناء رأى ثعلبًا كسولاً أقبل يجرُّ خُطاه يمينًا ويسارًا، ثُمَّ جاء وجلس في ظلِّ شجرةٍ مُجاورةٍ، ثُمَّ بعدها رأى غزالاً يجري بكلِّ سرعةٍ ووراءه أسدٌ يجري وراءه بكلِّ سرعةٍ، والغزال يذهب يمينًا ويذهب يسارًا والأسد وراءَه والغزال رُبما انطلقت مِن تحت قدمَيْه الحصى والتُّراب والغبار على وجه وأنف الأسد، ومع ذلك الأسد مصرٌّ والغزال يمشي يمينًا ويسارًا ويلتف، والأسدُ مُصرٌّ، وراءه وراءه، ويتعب ووضح عليه التَّعَب، حتى استطاع الأسد أنْ ينقضَّ على الغزال وأنْ يفترسه، فأكل منه شيئًا يسيرًا ثُمَّ مضى، فقام ذلك الثَّعلب الكسول وجاء ووجد وجبة طعامٍ جاهزة بين يدَيْه، لا ركض ولا تعب ولا أصابه مِن الغُبار والنَّصبَ مثلما أصاب الأسد، بل مِرتاحٌ تحت الشَّجرة حتى حضر الطَّعام بين يدَيْه، فلمَّا أقبل جعل يأكل مِن هذا الغزال ومضى إلى شجرةٍ وارتاح..

فقال الشَّاب في نفسه: هذا الأسد أتْعَبَ نفسَه، وجرى وراء هذا الغزال يمينًا ويسارًا، وهذا الثَّعلب جاءه الطَّعام جاهزًا، أنا لماذا أُتْعِبُ نفسي؟ـ لن يموت أحدٌ مِن الجوع، فمضى راجعًا إلى بلده، فلمَّا دخل على أبيه؛ قال له أبوه: يا بُني أنت إنَّما خَرَجْتُ في الصَّباح وعُدتُ المغرب، وكان الأصل أنْ تجلسَ أسبوعًا أو أسبوعَيْن، ثُمَّ أين البضاعة؟، وكيف عُدتُ سريعًا؟، فحدَّثه بالقصَّة، قال: يا أبي أنا أُتْعِبُ نفسي وأجتهد ولن أموت مِن الجوع، وحدَّثه بقصة الأسد والثَّعلب، فقال له أبوه: يا بني إنِّي أعلم أنَّك لن تموت مِن الجوع، لكنِّي أُريدك أنْ تعيش أسدًا لا ثعلبًا.. أنا أريدك أنْ تكون الإمام لا المأموم، أريدك أنْ تكون خطيب الجُمعة ولست المستمع، أنا أريدك أنْ تكون أنت المدير ولست المُدار، أنا أريدك أنْ تكون أنت الذي في السَّيَّارة وعامل محطَّة الوقود هو اللي يُعبِّئ سيَّارتك، ولست أنت مَن تُعبِّئ سيَّارات الناس.. «اليدُ العُليا خيرٌ مِن اليَد السُّفلى» [رواه البُخاريُّ]، يا بُني أنا أريدك أن تكون الطَّبيب ولستَ المريض، أريدك تكون المهندس ولستَ السَّاكن، أنا أريدك أنت الفاعل في المجتمع، وهذا هو الفرق بين هِمم النَّاس؛ لذلك ربما ينشأ طالبان في مدرسةٍ واحدةٍ ثُمَّ يكون هذا له شأنٌ وهذا له شأنٌ آخرَ بحسب فرق عُلوِّ الهِمَّة بينهما.

ومن ألطف ما مرَّ عليَّ في حياتي لَمَّا كُنت في أوَّلِ أسبوع في الجامعة، أذكر هذا الكلام قبل عشرين سنةً، أو ٢٢ سنةً تقريبًا، كُنَّا في السَّنة الأولى كلِّيَّة أصول الدِّين، وتعرفون عادةً مَن يتخرَّج مِن مرحلة الثَّانويَّة إلى المرحلة الجامعيَّة، جرت العادة أنْ يكون فيه تغيُّرٌ في حياته، يشعر أنَّه

كَبُر، في الغالب أبوه يُعطيه سيَّارةً أو على الأقل يُصبح يستعمل السَّيَّارة، يذهب ويرجع، فهو يشعرُ أنَّه كَبُرَ، مرحلة الدِّراسة الآن انتهيت منها، وأنا في المرحلة الجامعيَّة، وهي آخر مرحلةٍ في حياتي، وبعدها سأتخرَّج وأتوظَّف، ويبدأ الآن في الجامعة يُفكِّر في الزَّواج والارتباط، بمعنى تتغيَّر كثيرٌ مِن الأمور في هذه المرحلة..

في أوَّلِ أسبوعٍ في الجامعة وزَّعوا علينا الكُتُب، وأعطونا كتاب «فتح القدير في التَّفسير» للشَّيْخ الشَّوكاني (رحمه الله)، فأخذنا كُتُبًا كبارًا، يعني كان الكتاب ستَّة مُجلَّداتٍ، ما جرت العادة أنْ نَدْرِسَ بهذه الطَّريقة، ففي الثَّانوية كانت الكُتُب صغيرةً، ربما لا يتجاوز الكتاب ٨٠ صفحةً، لكن الآن أعطونا ستَّة مُجلَّداتٍ، فلمَّا وضعتها ووضعها وزملائي على أدراجهم، وبدؤوا يفتحون الكتب، وهذا الحاشية الرَّوض المُربَّع؛ أخرجتُ قلمًا وأردتُ أنْ أكتُب اسمي على الكِتاب، فكتبت د. محمد العريفي، فكان بجانبي أحد زملائي ممَّن تخرَّج معي في المرحلة الثَّانوية، فنظر وأنا ما أزال في المرحلة الأولى في الجامعة، بل في الفصل الأوَّل، بل الأسبوع الأوَّل، وأظنُّ في تلك الأيَّام كان عُمري سبع عشرة سنةً وأشهرًا، فلمَّا رآني كتبتُ د. محمد العريفي، قال لي: «د» يعني دكتور بتصير دكتور!!، أستصبح دكتور؟؟!، فقلت: إنْ شاء الله وبإذن الله، أنا ما دخلت أصول الدِّين إلا بإذن الله سأواصل دراستي لكي أكون دكتورا في الجامعة، فضحك، وقال: بعيدة عليك، ترى الدَّال دائمًا لا تعني دكتورا، يمكن أنْ تعني دجاجة، أو تعني كذا وكذا، وأخذ يعطيني بعض المرادفات، تَرى الفرق في الهِمم، فضحكتُ وقلت:

ستعلم حين ينكشف الغُبار، ستعلم ما الحاصل والنَّتيجة، وسترى ماذا يحدث بعد سنوات..

ومِن تلك الَّلحظة وفَّق اللهُ تعالى العبد الفقير، وأصبحتُ أشدَّ على أموري، وأذاكر حتى يسَّر اللهُ تعالى لي أخذَ الشَّهادة العليا.. ولكن أنا أعني بذلك أنَّ الهِمم إذا أنت وضعت لنفسك خُطَّةً واضحةً مِن البداية، ولم تقنع بالدُّون، ما تقل يا أخي خلاص إحنا عايشين، كذلك فيما يتعلَّق بالأمور المتطوِّرة، ترى النَّبيُّ (ﷺ) ما كان يرضى بمسألة «خلاص الأمور ماشية»؛ بل كان يبحث عن الأفضل..

سيِّدُنا رسول الله (ﷺ) الرَّجل المُعلِّم الأوَّل النَّاجح المبتكِر الذَّكيّ، كان يخطب الجمعة ويتَّكئ على جِذْع نخلةٍ، فأقبلت إليه امرأةٌ مِن الأنصار، قالت: يا رسولَ الله، إنَّ لي غلامًا نجَّارًا (فالمرأة هذه مبتكرةٌ ومخترعةٌ عندها فكرة جديدة)، أفلا آمره فيصنع لك مِنبرًا؟، بدلا من أن تتكئ على جذع نخلةٍ، فالمرأة تَعْلَم أنَّ النَّبيَّ (ﷺ) عنده تقبُّلٌ للاقتراحات والآراء والابتكارات، لا يغلق جميع الأبواب؛ لا، بل منفتحٌ على النَّاس في هذا؛ لذلك المرأة جاءت واقترحَتْ، فماذا قال لها النَّبيُّ «عليه الصَّلاة والسَّلام»؟، هل قال لها وفِّري قيمة المِنبر وأطعمي بها الفقراء والمساكين؟، أم قال هو المقصود وصول الصَّوت في الخُطبة وخلاص؟!.. هو يصل سواء أنا على منبرٍ أو كنت واقفًا، فالوضع ماشي، فهل قال لها ذلك، أم وافق أنْ تصنع مِنبرًا؟..

قال لها (ﷺ): مُريه أنْ يصنع المنبر، فجاء الغُلام خلال أسبوعٍ، فصنع

مِنبرًا له ثلاثُ درجاتٍ يرقى النَّبيُّ (ﷺ) ويخطب النَّاس، وفعلاً جاء النَّبيُّ (ﷺ) وصعد على هذا المنبر، ووقف، فحدث تطوُّرٌ.. من قبل كان يقف، الآن هناك درجاتٌ ومنبرٌ، فأصبحت النَّتيجة أحسن، وأصبحت نظرته للنَّاس أوسع.. في السَّابق رُبما مع الازدحام كان يرى أوَّل أربعةِ صفوف أو خمسة صفوف، لكن الآن لا.. لقد أصبح الاتصال والتواصل لا شك أفضل..

لما جاء إليه سلمان الفارسي، قال: يا رسولَ الله، نحن في فارس إذا جاءنا العدوُّ؛ نحفر خندقًا بيننا وبينه، ونحن الآن في معركة الأحزاب، والعدو جاء إلينا والعدد كبيرٌ، ما قال النبيُّ «عليه الصَّلاة والسَّلام»: لا، سنتوكَّل على اللهِ ولن نصنع خندقًا، وستُقاتل معنا الملائكة.. لا.. نعم، تُقاتلُ معكم الملائكة، وتتوكَّل على اللهِ، لكن ابذل الأسباب، ولا مانع مِن أنْ تستعملَ التَّطوُّر في ذلك، فقال «عليه الصَّلاة والسَّلام»: حَسَنٌ، ثُمَّ أَمَرَ (ﷺ) وخَطَّط لأجل حفر الخندق، جعلوا لكلِّ عشرةِ أشخاص عشرةَ أذرع، أي قُرابة ثلاثةِ أمتار أو أربعة، وجَعَلَ النَّبيُّ «عليه الصَّلاة والسَّلام» مكانًا يُوضع فيه الحصى، وأخبرهم ماذا يفعلون إذا واجههم شيءٌ مِن الحجارة أو الصُّخور الصَّماء الشَّديدة، فكان (ﷺ) عنده مثل هذا المنهج..

إذن نحن أيُّها الأفاضل دينُنا الذي رزقنا اللهُ تعالى ووفَّقنا إليه، هو دينٌ فاضلٌ ودينٌ حَسَنٌ يستطيع الإنسان به أنْ يحصُلَ على ما يُريد عبر الهِمَّة العالية إذا وُجِدَتْ فيه.. لكن الذي يكتفي بالدُّون والكسل، ولا يكون عنده مُواصلة؛ هذا بلا شكَّ لن يكون له أثر في الحياة..

أبو هريرة (﵁) لَمَّا كَبُرَتْ سِنُّه، وكان يُحدِّثُ بأحاديث كثيرةٍ للنَّاس، فكأنَّ بعضَ النَّاس قال: أكثرَ أبو هريرة، أكثرَ أبو هريرة، وقال أبو هريرة ﵁: إنَّ النَّاس يقولون أكثرَ أبو هريرة كأنَّهم يتَّهموني أنِّي أخترعُ أحاديث، ثُمَّ قال: وإنَّ إخواني مِن الأنصار كانت تشغلُهم مزارعُهم وعملُهم فيها عن ملازمة النَّبيِّ (ﷺ) وحِفظ الأحاديث، وإنَّ إخواني مِن المهاجرين كان يشغلُهم الصَّفُّ بالأسواق بالتِّجارة عن ملازمة النَّبيِّ (ﷺ) وحِفظ الأحاديث، وإنِّي كنت امرأً فقيرًا يكفيني شبعُ بطني، فكنت أعيش على ذلك وألزَم رسول اللهِ (ﷺ).. وفي يوم مِن الأيَّام قُلت، يا رسولَ اللهِ إنِّي أشكو إليك أنِّي أحفظُ الحديث ثُمَّ أنساه، فقال «عليه الصَّلاة والسَّلام»: يا أبا هريرة أبسط رداءَك، قال: فخلعت شَمْلَةً كانت عليَّ، خلعتها وبسطتها على الأرض، وكان فقيرًا، يقول: فوالله إنِّي لأرى القملَ يمشي عليها، يقول: فدعا ليَ النَّبيُّ (ﷺ) دعواتٍ، وقال ضُمَّها، فضممتُها إلى صدري، فوالله ما نسيت شيئًا بعدُ سمعتُه مِن رسولِ اللهِ (ﷺ)..

انظروا إلى الفُرَص التي تأتي أحيانًا فجأة، الفرص لا تُمْنَحُ وإنَّما تُنْتَزَعُ وتُؤخَذ، وكما قيل:

ومـا نَيْـلُ المطـالِبِ بالتَّـمنِّي ... ولـكن تُؤخـذ الـدُّنيا غِـلابًا

ثم انظروا إلى هذه الهِمَّة التي جَعَلَت الكبير والصَّغير كلَّهم اليوم يعرفون أبا هريرة.. الآن رُبما لو تسأل بعض التَّلاميذ في الابتدائيَّة تقول له: هل تعرف أبا هريرة؟ يقول: نعم، أعرف أبا هريرة، مع أنَّه لم يُسلم إلا في السَّنة السَّابعة للهجرة في فتح خَيبر، ومع ذلك صار عنده مِن الهِمَّة العالية (﵁) ما جعلَ له في الإسلام تأثيرًا، قُل مِثل ذلك

في خالد بن الوليد، قُل مِثل ذلك في عمر بن الخطاب، قُل مِثل ذلك في أبي بكر وفي عثمان وفي عليٍّ (رضي الله عنهم).. كلُّ الصحابة الذين بقِيَ لهم تأثيرٌ وبَقَوا يُذكرون إذا ذُكِرَ الإسلام؛ كل هؤلاء كان عندهم هِمَّة عالية مِن ملازمة النَّبيِّ «عليه الصَّلاة والسَّلام»، مِن الثَّبات معه في المعارك.. لم يكن الإنسان منهم يرضى بالدُّون، أو يرضى بأقلِّ شيءٍ.. بلالٌ لَمَّا صارتْ عنده همَّةٌ عاليةٌ؛ عندها ثبت على شدَّةِ القِتال وشدَّةِ ما أصابه، وكان الرَّسول «عليه الصَّلاة والسَّلام» يفرح بأصحاب الهِمَّة العالية.

ربيعة بن كعبٍ كان غلامًا بين يدَي النَّبيِّ (صلى الله عليه وسلم)، وكان يُقرِّبُ له وضوءَه، أُعْجَبَ به النَّبيُّ (صلى الله عليه وسلم) فهو غلامٌ لم يتجاوز ثلاثةَ عشر سنةً، فكان هذا الغلام يأتي إلى النَّبيِّ «عليه الصَّلاة والسَّلام»، ويقرِّب إليه الماء ليتوضَّأ، أحيانًا هذا الغلام يبيت عند باب النَّبيِّ (صلى الله عليه وسلم)، ويجلس الليلَ ينتظر النَّبي «عليه الصَّلاة والسَّلام» لعله يُريد أنْ يتوضَّأ وما عنده ماءٌ، فأُعجِبَ به النَّبيُّ (صلى الله عليه وسلم)، فقال له يومًا والصَّبيُّ يوضِّئُه: يا ربيعة بن كعب سَلني واطلب منِّي شيئًا، فهو صغيرٌ وقد يختار أنْ يُعطى رداءً أو إزارًا أو شيئًا مِن هذا، قال: يا رسول الله أسألك؟، قال: نعم، يقول: فقلت: انظرني حتى أُفكِّر، يقول: فجعل (صلى الله عليه وسلم) ينظر إليه وأنا أُفكِّر ماذا أطلُب، فقلت: يا رسولَ اللهِ أسأُلك مرافقَتَك في الجنَّة، فقال النَّبيُّ «عليه الصَّلاة والسَّلام»: أو غير ذلك؟، يعني أتريد شيئًا آخرَ، فخجلتُ، قلت: هو ذاك، فقال «عليه الصَّلاة والسَّلام» مُعْجَبًا به: فأعنِّي على نفسِك بكثرةِ السُّجود..

أسألُ اللهَ تعالى أنْ يجعلنا جميعًا مِن أصحاب الهِمَّة العالية..



همم تناطح السحاب

الهِمَّة في الدَّعوة إلى الله تعالى تتعدَّى وتُحطِّم جميع الحواجز، لا تعتمد على كَثرة مالٍ، ولا تعتمد على قوَّة جسدٍ، ولا تعتمد على ذكاءٍ خارقٍ، ولا تعتمد على قومٍ ولا قبيلةٍ ولا جنسيَّةٍ؛ تعتمد على قلبٍ فعلاً يعرفُ الحقَّ ويحمل همَّ الإسلام.. رأيتُ قبل فترةٍ في رحلةٍ إلى السُّويد- وبالتَّحديد في مدينة مالمو في جنوب السُّويد، فيها مسجدٌ دخلته قبل أكثر مِن خمسة عشر سنةً- غلامًا عمره خمس عشرة سنةً، وهو سويديٌّ مِن أصلٍ صوماليٍّ، كان مُعوَّقًا إعاقةً غريبةً، ومع ذلك أسلمَ على يده عدَّةُ أشخاصٍ، وقد رأيته بعينيَّ.. ما هي إعاقتُه؟، وكيف أسلم على يدِه؟، فهذا له خبرٌ عجبٌ.

أخبرني الإخوة في السُّويد أنْ أذهب لزيارة المسجد الذي في مالمو، في ذلك الحين لم يكن في مالمو إلا مسجد واحد، والباقي كان عبارةً عن مراكزَ إسلاميَّةٍ يُصلُّون فيها كبدرومٍ أو شقَّةٍ وغيره، أمَّا المسجد بالمنارة والقُبَّة، فهو ذلك المسجد، وهو كان الوحيد قبل خمس عشرة سنةً، وربَّما زاد العدد الآن، المقصود أنَّني أقبلتُ على ذلك المسجد، والمساجد في أوروبا لها أشكالٌ مُتميِّزَةٌ ربما تختلف عن غيرها، كان المسجد في ذلك الوقت في مكانٍ وحوله خضرةٌ وأقبلت في غير وقت صلاةٍ.. كُنَّا في الضُّحى، وأقبلتُ أمشي إلى ذلك المسجد.. دخلت إليه وإذا بشابٍّ مِن أصلٍ صوماليٍّ، ولكنَّه سويديُّ الجنسيَّة ومعوَّقٌ على كرسيٍّ، هذا الشَّاب مربوطةٌ يداه في جانبَي الكرسيِّ لأنَّه عنده مشكلةٌ في الأعصاب، فهو لا يتحكم في يدَيْه، فهي تهتزُّ دائمًا، ورجلاه كذلك مربوطتان في الكرسيِّ؛ لأنَّه أيضًا لا يتحكَّم برجلَيْه، ومع ذلك هذا الشَّاب كان داعيةً، وبالمناسبة هذا الشَّاب كان لا يتكلَّم، لكنَّه يفهم اللغةَ الإنجليزيَّة والسُّويديَّة والصُّوماليَّة..

فلمَّا رأيته؛ جئتَهُ، ووضعت يدي على كتفِه وقبَّلتُ رأسه، وكيف حالك يا بني، وهو كان لا يفهم العربيَّة ولكنِّي كنت أحدِّثُه بالإنجليزيَّة، وأخذت أحدِّثُه عن فضل الصَّبر على الأمراض، قلت لواحدٍ مِن الإخوة: تعال يا فلان ترجم لنا؛ فأقبل يُترجِم، فقلت له أنت مأجورٌ على مَرَضِك، ثم قلت: يقول النَّبيُّ (ﷺ)، فترجَمَ له، ما يُصيبُ المؤمن، فترجَمَ له، مِن نَصَبٍ ولا وَصَبٍ.. الأخ المُترجِم كان سويديًّا مِن أصلٍ عراقيٍّ، فقال: إيش يا شَيْخ؟، فقلت له: مِن نَصَبٍ ولا وَصَبٍ، فقال: يا شَيْخ هذه ما

فهمتها بالعربي حتى أترجمها، فذهب، فضحكتُ، وقلت له: تعال وأنا أشرحها لك بالعربي، ولكن جاء شخصٌ آخرَ وترجم لنا..

انتهيتُ ثُمَّ قلت له: أنا سمعتُ أنَّه هناك ناسٌ أسلموا على يدَيْك، فكيف ذلك؟، اشرح لي، فالتفت إلى مرافق معه، ووزارة الشُّئون الاجتماعيَّة السُّويديَّة قد جعلت معه مرافقين في الصَّباح ومرافقين في المساء براتبٍ يقومون بخدمته وعلى جميع شئونِه، فأشار له برأسه، فجاء وركَّب على رأسه مثل القُبَّعة، هذه القُبَّعة لها مِثلُ عصا قد خرجت منها، ووضعوا لوحًا أمامه فيه ورقةٌ كبيرةٌ فيها مُربَّعاتٌ، كلُّ مربَّع مكتوب فيه كلمة.. شكرًا.. أريد ماءً.. أريد الذَّهاب للحمَّام.. أتَّصلُ بأُمِّي.. أتَّصلُ بصديقي، ونحو ذلك.. عباراتٌ مُعيَّنة التي يستعملها غالبًا، فإذا أراد أنْ يقول شيئًا، وهو لا يتكلَّم، فإذا أراد شيئًا؛ حرَّك رأسه حتى تُصيب هذه العصا المربَّع المقصود، ثُمَّ يُبيِّنُ ما يُريد، ثُمَّ طلب منِّي، قال: يا شَيْخ أريدُ أشرطةً عن القرآن كاملاً لأحفظ القرآن، وكل ذلك بالإشارات حتى فَهِمْنَا..

وهو لأنَّه يسمع، نقول له: تقصد كذا؟ تقصد كذا؟، حتى يُشير برأسه، وطلب منِّي أيضًا أنْ يذهب لدولةٍ إسلاميَّةٍ ليطلب فيها العلم.. انظروا إلى الهمَّة العالية؟!. ثُمَّ حدَّثني الإخوة أنَّ عددًا مِن السُّويديِّين تأثَّروا به ودخلوا في الإسلام، قلت كيف؟!، فهو ما يستطيع أنْ ينطق أو يُناظِر أو يُحاجِج؟، ما بين يدَيْه سوى هذه الورقة التي بها مُربَّعات، فهل يدعوهم للإسلام بالإشارة على المربَّعات؟، كيف؟، فقالوا لي: يا شَيْخ إذا جاء إليه المُوظَّفان في الصَّباح، وجلسا؛

يُشير لهما إلى مربَّع «اتَّصِلوا بصديقي فُلان»، فيتَّصلان بصديقه فلانٍ، ثُمَّ إذا اتَّصل الموظَّف بصديقه فلان؛ يُشير لمربَّع ثانٍ، وهو كان اتَّفق مع هذا الصَّديق، فيقول له، للموظَّف: اسأله عن الإسلام وأخبرني، فهذا مُوظَّفٌ، فيسأله، ويقول له: ما الإسلام؟، فيبدأ ذلك الصَّديق يشرح، الإسلام كذا وكذا ليشرح لصديقنا، فيُشير له، ثُم يقول له اسأله: ما الفرق بين الإسلام والنَّصرانيَّة، فيسأل هذه الموظف ذلك الصَّديق، وهذه واقعةٌ يا جماعة أنا رأيتها بعينَيَّ، فيبدأ يشرح له ذلك أيضًا ويستمرُّ نصفَ ساعةٍ أو ساعةٍ، يشرح له الإسلام ويُعطيه درسًا كاملاً عن الإسلام، ثُمَّ إذا انتهى وانتهى دوامه يُشير له إلى الدَّرَج، ويقول له: خُذ كتابًا هديَّةً لك، فيأخذ كتابًا عن الإسلام ويخرج، وقد أسلم عددٌ مِن الموظَّفين على يد هذا المُعوَّق..

هِمَّةٌ تُناطِح السَّحاب فعلاً، يعني يا جماعة هذا المُعوَّق لم يركَن إلى ضعفِه وإلى إعاقتِه، ويقول أنا ما أستطيع أنْ أتحرَّك ولا أستطيع أنْ أتكلَّم، فحتى النُّطق؛ لا أستطيع أنْ أنطِقَ ولا أستطيع أنْ أكتبَ بيدَيَّ دعوةً إلى الإسلام، إذن أنا خلاص لا أستطيع أنْ أفعل ذلك، ولكن ما دام في قلبه هِمَّةٌ يأتي يوم القيامة وهو مثل الأنبياء، الأنبياء أسلم على يدهم أشخاصٌ، فيأتي، وهو مِن ورثة الأنبياء، قد أسلم على يده أشخاصٌ.. ومِن النَّاس مفاتيح للخَير مغاليق للشَّرِّ..

أذكِّر بنفسي، أو بالقَصَص، يقول الإمام مالك: القصص جندٌ مِن جندِ اللهِ، يعني ربما بعضُ النَّاس تابَ إلى اللهِ تعالى بسبب سماعِه لقصَّةٍ، هناك مستشفى في الرِّياض، هذا المُستشفى مختصٌّ بالمُعاقين، المُعاقون

الذين عندهم إعاقةٌ قويَّةٌ جدًّا، بمعنى كَسْرٌ في الظَّهر أو كَسْرٌ في الرَّقَبَة، لا يستطيع أنْ يحرِّكَ إلا رأسَه مثلاً، فنذهب أحيانًا إلى زيارتهم وتصبيرهم، والواحد يقول لهم كلمتَيْن يطلب أجره مِن الله تعالى، وعيادة المريض أصلاً لها ثوابٌ، فما بالك إذا عُدت مريضًا لا يجلس في المستشفى أسبوعَيْن أو ثلاثة؛ بل ربما صار له سنواتٍ، عشرُ سنواتٍ مثلاً في المستشفى، ذهبت إليه لهذا المستشفى، وهو مستشفىً قديمٌ، إذا أقبلت إليه؛ كأنَّك تدخل إلى غابةٍ، لأنَّه مع قلَّة الزَّائرين؛ قلَّتْ العناية بالمستشفى وبجودته، فذهبت مع أحد الإخوة ودخلنا إليه، والزِّيارة متاحةً ٢٤ ساعةً، ودخلت إحدى الغُرَف، وإذ بشابٍّ عمره ١٧ سنةً، كان حدث له حادثُ سيَّارةٍ، جملٌ كان يقطع الطَّريق؛ فصدمه، وأصيب بإعاقةٍ ما يتحرَّك إلا رأسه.. دخلت عليه وإذ هو قد علَّق بين يدَيْه على الغُرفة أشياء غريبةً تدلُّ على هِمَّةٍ عاليةٍ غير موجودةٍ عند عددٍ كبيرٍ مِن الأصحَّاء، فما هي هذه الأشياء التي علَّقها على غرفته؟..

هذا الشَّابُّ الصَّغير على صِغَرِ سنِّه، هو لا يستطيع أنْ يمسِكَ المُصحف حتى يقرأ، ولا يستطيع أنْ يضع أمامه شاشة كمبيوتر، وكلَّما انتهت الصَّفحة يضغط ليرى غيرها أو يعيدها، وأيضًا لو شَغَّل بجانبه مُسجِّلاً؛ لاحتاج كلَّ مرَّةٍ إلى أنْ يُغْلِقَه أو يقلب الشَّريط، أو ربما أراد أنْ يُعيدَ، فكان قد طَلَبَ مِن أهلِه أنْ يصوِّروا له صفحات مِن المصحف، فجئت إليه، وإذ هو يحفظ في سورة المجادلة، وسورة المُجادلة ثلاث صفحاتٍ في المُصحف، وقد صُوِّرَتْ على ورقٍ، تقريبًا متر في متر، ورقٌ كبيرٌ جدًّا .. وقد عُلِّقَتْ أمامه هذه الأوراق على الجدار، وإذا هذا الصَّغير وهو

على سريره يقرأ منها وهي بعيدةٌ عنه مثلاً مترَين، ويقرأ منها وقد حَفِظَ إلى الآن أكثر مِن عشرةِ أجزاء بهذه الطَّريقة، والتفتُّ وإذ بمجموعة أوراقٍ على جنبٍ في كرتونةٍ، كلٌّ ورقةٍ مطوية بعضها على بعض، سألته ما هذا؟، قال: هذه خمسة عشرَ جزءًا يا شَيْخ.. كلها مُصوَّرةٌ، يعني قُرابة ٢٠٠ أو نحوها مِن الأوراق..

سبحان الله، هذا الشَّاب على إعاقتِه؛ استطاع أنْ يفعل شيئًا، استطاع أنْ يحفظَ القرآن، وأنْ يحفظ خمسةَ عشرَ جزءًا، ولم يقل في نفسه أنا عندي عددٌ مِن الأمراض.. أنا أصلاً لا أستطيع أنْ آخذ راحتي في كلامي، ونسيت أنْ أذكر أنَّ هذا الشَّاب لا يستطيع أنْ يتكلَّم، وإنَّما كان مَن يصف لي هو صاحبي الذي معي، ويقول قد انتهى مِن كذا، وحَفِظَ كذا؛ لأنَّه كان يُتابع معه ما يُعلَّق، وإذا انتهى مِن واحدةٍ، أشار لهم برأسه أنَّه قد تمَّ الحفظ فانزعوها، وجئتُ بعد فترةٍ لنفس هذا الغلام، وكان قد استطاع أنْ يحرِّكَ إحدى يدَيْه بنسبة ١٥٪، فكان يرفع اليد فنأتي بالقلم ونركِّبه على يدِه، فيحاول أنْ يمسِكَه ويكتب شيئًا يسيرًا ممَّا يُريد لأنَّه لا يستطيع أنْ يكتب، ولكن سبحان الله همَّةٌ في قلبِه..

كم الآن مِن أبنائي وبناتي ومن الإخوة والأخوات يتمنَّى لو أنَّه قد حَفِظَ القرآن، أو إذا رأى حلقةً مِن حلقات التَّحفيظ، أو رأى غلامًا صغيرًا، ١٠ سنوات، وقد حَفِظَ القرآن؟، يقول أحدنا وقد جاوز سنَّه الأربعين أو الخمسين: يا ليتني مثله، ولكن واللهِ أنا ما أستطيع. بل أنت تستطيع، ولكن قَعُدَتْ بك همَّتُك، تستطيع أنْ تفعل مثلَه، تستطيع أنْ تدعو إلى اللهِ، وتستطيع أنْ تأمر بالمعروف وأنْ تنهى عن المُنكَر،

وتستطيع أنْ تحفظ القرآن، ولكن القضيَّة أنَّ الإنسان نفسه همَّتُه تقعُد به عن مِثل هذا العمل الصَّالح، وإلا لو جئت إلى الجِدِّ؛ لوجدتُ أنَّه يستطيع ذلك..

عبد الله بن أُمِّ عبدٍ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) كان أعمى، لكنَّه استطاع أنْ يُصيبَ الهدف، خرج النَّبيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يومًا مع أبي بكرٍ وعمرٍ في الليل، وكانا هما صاحبيه ووزيريه، فمرَّ بالمسجد، وإذ بقارئٍ يقرأ القرآن بصوتٍ شجيٍّ في ظُلمة الليل في مسجدٍ قديم، مسجد رسولِ الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).. النَّاس قد خلدوا إلى بيوتهم وناموا على فُرُشِهم، وفي ظلمة الليل هذا الرَّجل في مسجد رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يقرأ القرآن.. وقف النَّبيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) خارج المسجد يسمع هذا القارئ يقرأ القرآن في ظلمة الليل، وإذ هو عبد الله بن أُمِّ عبدٍ، فقال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): «مَن أحبَّه أنْ يقرأ القرآن غضًّا كما أُنزِلَ فليقرأه على قراءة عبد الله»، ثم قال لَمَّا انتهى عبد الله مِن قراءته، وبدأ يدعو وهو ما يدري أنَّ النَّبيَّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يسمعه، جعل يدعو، والنَّبيُّ عليه «الصَّلاة والسَّلام» يقول: سَل تُعطى سل تُعطى سل تُعطى، أي اسأل أكثر [رواه البُخاريُّ]، والله تعالى سوف يُعطيكَ.

عبد الله بن أُمِّ عبدٍ تقدَّم به السِّنُّ، ثُمَّ جاءت بعض المعارك بعد وفاة النَّبيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، قال: أريد أن أخرج معكم للمعركة، فقالوا: إنَّ الله قد عذرك والله تعالى قال ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ﴾ [سورة- مِن الآية ٦١]، قال: إني أريد أنْ أخرج للقتال وأعطوني رايةً مِن الرَّايات، أنا رجلٌ أعمى وسأمسك الرَّاية، ولا يمكن أنْ أفرَّ، فعلى الأقل المسلمون يرون الرَّاية ويتوجَّهون إليها، أنا أمسك الرَّاية

بدلاً مِن أنْ يمسكها رجلٌ مِن المبصرين يمكن أنْ يُقاتل، فأنا أوفِّر لكم مقاتلاً جديدًا، وأعطوني الرَّاية أمسكها، فأنا لا أفرُّ، فأنا رجلٌ أعمى، وفعلاً خرج (رضي الله عنه) معهم وأمسك الرَّاية وبدأ القتال، وتناطح الأبطال وصَهلَت الخيول، وهو ممسكٌ بالرَّاية، والرَّاية تُرفرِفُ فوقهم، والمسلمون كلما أرادوا أنْ ينحازوا لرايتهم، فإذ برايتهم كالجبل يحملها جبلٌ، وظلَّ مُمسكًا بالرَّاية يترقَّب في أيِّ لحظةٍ سهمًا أو سيفًا، حتى استُشْهِد (رضي الله عنه) وهو يحمل الرَّاية في سبيل الله، وهو أعمى البصر..

لا عذرَ لمتقاعسٍ، لا عذرَ للمبصرين، ولا عذرَ للمتكلِّمين، ولا عذرَ للسَّامعين ولا للمتحرِّكين، لا عذرَ للمتقاعسين، فالأمر بالمعروف والنَّهي عن المُنكر، نصح النَّاس، توجيههم، كلُّنا سيسألنا اللهُ تعالى عمَّا جعل بين أيدينا مِن قدراتٍ، كلَّما كان الإنسان عنده قدرةٌ؛ سيسأله الله تعالى عنها، سيسأل صاحب اللسان لماذا لم تأمر بالمعروف أو تنهى عن المنكر؟.. لماذا لم تنصح؟ يا صاحب القدم، لماذا لم تمش إلى المساجد؟، ولماذا لم تستعملها في طاعة الله؟.. سيسأل صاحب المال: لماذا لم تنفِقْه في سبيل الله وتُعطي الضَّعيف حقه منه؟.. سيسأل صاحب البصر وصاحب السَّمْع، فإذا كان هؤلاء المعوَّقون الذين حِيل بينهم وبين كثيرٍ ممَّا يشتهون، ومع ذلك استطاعوا أنْ يكون لهم أثرٌ في الحياة؛ فما بالك بغيرهم ممَّن عندهم قدراتٌ كيف يكون لهم تأثيرٌ في حياتهم؟!.. الأب، الأم، الزَّوج، الزَّوجة، الأبناء، المُدرِّس، الطَّالب، إمام المسجد، الموظَّف.. كلُّه.. كلُّ هؤلاء ينبغي أنْ يحرِصَ على أنْ يكون له تأثيرٌ، وأنْ يستعملَ ما استطاع مِن طاقته في سبيل

نصرته لدينه ونفعه لنفسه ثُمَّ نفعه لأُمَّتِه..

أسألُ اللهَ سبحانه وتعالى أنْ يستعملنا وإيَّاكم في طاعتِه، وأنْ يُوفِّقَنِي وإيَّاكم لكلِّ خيرٍ، وأنْ يجعلني وإيَّاكم مُباركين أينما كُنَّا وأنْ يثبِّتَني وإيَّاكم على الحقِّ وأنْ يجعلنا فعلاً ممَّن لهم تأثيرٌ في الحياة.. تأثير يبقى لهم عند ربِّهم جلَّ وعلا، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [سورة يس- الآية ١٢].. مِن النَّاس مَن يموت وتبقى حسناتُه وتموت سيِّئاتُه، ومنهم مَن يموت وتموت معه حسناتُه، وربما بقيت سيئاتُه إذا كان قد ترك شيئًا سيِّئًا.. يعصي النَّاس ربَّهم بسببه، وهذه مسألةٌ لابدَّ أنْ ننتبه إليها، فالإنسان كما أنَّه مطالبٌ أنْ يكون له أثرٌ في الخير كذلك هو مطالبٌ ألا يكون له أثرٌ في الشَّرِّ.. أنْ يكون مفتاحًا للخير بدلاً مِن أنْ يكون مفتاحًا للشَّرِّ.



مع الأصمعي إلى القمة

البلاء الذي يُصيب الإنسان عندما يصل إلى القمَّة بلاءٌ يتنوَّع بين النَّاس، مِنهم مَن يستطيع أنْ يتحمَّل هذا البلاء، ومنهم مَن يعشق الحَفر، كما قال:

ومَــن لا يحب صعود الجبــال | يعــش أبد الــدَّهرِ بين الحُفَر

افرض أنَّ النَّجاح موجودٌ على قمَّة جبلٍ عالٍ، والنَّاس الذين يصعدون هذا الجبل تختلف هِممُهم في الحِرص على الوصول إلى هذه القمَّة، منهم مَن ربما يصعد رُبع الجبل وينزل، ومنهم مَن يصعد إلى النِّصف وينزل، ولكن مَن يصعد إلى النِّصف أقلُّ ممَّن يصل إلى الرُّبع، ومنهم مَن يصل إلى ثلاثة أرباع الجبل، ولكنَّهم أقل، ومنهم مَن يستطيع أنْ يصل إلى

القمَّة، وإذا وصل إلى القمَّة شعر بشيءٍ مِن النَّجاح، قمَّةٌ في طلب العِلم، قمَّةٌ في التِّجارة، قمَّة في الاختراع، قمَّةٌ في حفظ القرآن، قمَّةٌ في الصِّناعة، قمَّةٌ في الخطابة، قمَّةٌ في تطوير الذَّات، قمَّةٌ في تربية الأولاد تربيةً صالحةً على الخير، قمَّةٌ في النَّجاح مع زوجته، قمَّةٌ في الانضباط في عمله، قمَّةٌ في أخلاقه.. القمم تتفاوت بين النَّاس، مِن النَّاس مَن يكون له وجودٌ، ومِن النَّاس من لا يكون له وجودٌ فيها..

نحن اليوم مع قصَّةٍ عجيبةٍ لعبد الملك بن قريب الأصمعيِّ.. مشهورٌ بأنَّه مِن اللغويين، ومِن أشهر قصائده:

صــوت صــفير البلبل ... هيَّــتج قلـــبي الثَّــمِل

المـــاء والـــزَّهر مـــعًا ... مـــع زهـــرِ لحـــظُ المُقَل

وأنـــت يا ســـيد لـــي ... وسيـــدي ومـــوللي

فكـــم فكـــم تيمـــني ... غـــزيلٌ عـقيقـــل

قطفـــته مـــن وجـــنة ... مَن لثـــم وردالخـــجل

فقـــال لا لا لا لا ... وقـــد غـــدا مهـرول

والخـــود مـــالت طربا ... مِن فِعـــل هـــذا الرَّجل

فولـــولت وولـــولت ... ولـــي ولـــي يا ويلـــي

فقالـــت لا تولـــولي ... وبينـــي اللـــؤلؤ لـــي

قـــالت لـه حـــين كذا ... انهـــض وجـــدٌ بالمُقَلِ

وفتيـــةٌ سقـــونني ... قهيـــوة كـــالعسللِ

شممـــتها بأنفـــي ... أزكـــى مـــِن القـرنفل

في وســـط بســـتان حُلى ... بالزَّهـــر والسُّـــرور لي

والعـــــود دندندن لـــــــــي	والطّـــــبل طبطـــــــب طبلي
طبطـــــــب طبطــــــب	طبطـــــب طبطـــــب لـــــي
والـــرَّقص قد طـــــاب لي	والسَّـــــقف سقســــق سق لي

إلى آخر قصيدته العجيبة.. فهو له قصَّةٌ عجيبةٌ تدلُّ على حِرصه على الوصول إلى القمَّة، فما هي هذه القصَّة التي معنا؟..

كان عبد الملك بن قريب الأصمعيِّ اللغوي المشهور، يسكن في البصرة، وهذه القصَّة ذكرها التَّنوخي في كتابه «الفرج بعد الشِّدَّة».. كان يسكن في البصرة وكان حريصًا على طلب العِلم، وكان في كلِّ يوم يخرج ويطلب العِلم في الحديث والتَّفسير والفقه واللغة، ثُمَّ يعود إلى بيته ولم يكن يجد وقتًا ليشتغل ويجمع المال، ولكنَّه كان مُنشغلاً بطلب العِلم وتطوير النَّفس وجمع المعلومات وإتقان العلوم، فكان بجانب بيته دكَّانٌ لبقَّالٍ، وكان الأصمعيُّ يسكن في أقصى هذا الحي، فكان يمرُّ أثناء خروجه ورجوعه للمسجد أو لبيت الشَّيْخ، يمرُّ بدكَّانِ لبقَّالٍ، والأصمعيُّ كان شابًّا تحت العشرين، فكان البقال يسأله: إلى أين يا أصمعيّ؟، فيقول الأصمعيُّ: أنا والله ذاهبٌ إلى الشَّيْخ لأكتب منه أحاديث، ثُمَّ إذا جاء راجعًا العصر؛ مرَّ بهذا البقَّال، فيسأله البقال: مِن أين جئت يا أصمعيّ؟، فيقول: والله جئت مِن عند فلانٍ اللغويِّ، ثُمَّ إذا خرج مِن غده في الصَّباح، قال له البقال: إلى أين يا أصمعيّ ذاهبٌ؟، قال: إنِّي ذاهبٌ إلى فلان الفقيه، وعند عودته عند غروب الشَّمس يمرُّ بهذا البقَّال، فيسأله: مِن أين جئت؟، يقول: مِن عند فلانٍ المفسِّر..

وإذا الأصمعي يمضي عمره في طلب العلم وتطوير ذاته وجمع

المعلومات، فأمسكه البقال يومًا، وقال له: يا بني لا تُضع وقتك مع هؤلاء، فإنَّك في النهاية لن تخرج منهم بشيءٍ، فقال الأصمعيُّ: أنا أطلب العِلم وأحفظ القرآن وأتعلَّم اللغة وأتقِن الشِّعر وأتعلَّم النَّثر، فقال: له لا تُضِع وقتك معهم، قال الأصمعيُّ: لا، حتى أستفيد، فقال له ذلك البقال- وانظر إلى علوِّ الهِمَّة ودنوِّها: أنا عندي لك رأيٌ، كُتبك هذه كلها التي تحملها معك ذاهبًا وراجعًا، ولم تكن كتبهم مثل الكتب اليوم في سهولة الحمل والنَّقل والكتابة، بل كانت ربما مِن جلدٍ أو شرائح أخرى، ويُكتب عليها بمدادٍ مِن الحِبر، وليس بقلمٍ جافٍّ تضعه في جيبك تُخرجه وتكتب به ما تشاء، بل كان أمرا شاقًّا، فقال له البقَّال: اسمع يا أصمعيّ، قال: نعم، قال: كتبك هذه كلها والله لو جمعتها وأعطيتني إيَّاها لأعطيك حزمةَ بقلٍ؛ ما أعطيتك، ما تساوي عندي شيئًا، ثُمَّ قال: اسمع يا أصمعيَّ أنا عندي لك فكرة، قال: ما هي؟، قال: ائتِ بكتبك هذه كلها، وائتِ ببرميلٍ كبيرٍ واملأْهُ ماءً، ثُم اطرح كتبك هذه فيه، ثم أبدأ معك ننظر ما هو اللَّون الذي يخرج علينا، أسود أم أحمر أم أزرق؟..

طبعا هذه إهانةٌ ونوعٌ مِن السُّخرية بالأصمعيِّ.. فيقول الأصمعيُّ: فسكتُّ وكنت غلامًا صغيرًا وذهبتُ إلى بيتي، قال: وصرت أخرج مِن بيتي قبل الفجر حتى لا يراني هذا البقَّال ويتكلَّم معي.. قال: وأعود بعد العِشاء بعد أنْ يغلق البقَّال دكَّانَه حتى لا يراني، ويقول: واشتدت بي الفاقة والحاجة والفقر، حتى بِعتُ أثاثَ بيتي وبِعتُ البِساط وبِعتُ الفِراش وبِعتُ ثيابي، حتى يجد طعامًا يأكل، يقول حتى صارت حالتي

رثَّةً، ثيابٌ متَّسخةٌ ليس عندي غيرها، شعري طويلٌ ما عندي حتى قيمة أنْ أذهب إلى الحلاق ليقصَّ شعري، يعني فعلاً وصل إلى حالةٍ مِن الفقر والحاجة.. حالةٌ شديدةٌ جدًّا، ثيابٌ رثَّةٌ وقديمةٌ ومُتَّسخةٌ.

يقول: وفي يوم مِن الأيَّام بينما أنا في الحيِّ في البصرة أمشي، فإذا برجلٍ يصيح في هذا الحيِّ القديم يقول مَن يدلُّ على الأصمعيِّ، مَن يدلُّ على الأصمعيِّ، فطَفِقَ النَّاس يُشيرون إليَّ، يقول: فجاء إليَّ ونظر إليَّ يقول أنت الأصمعيُّ الأديبُ الشَّاعرُ؟، قلت: نعم، فقال: أنا جئتُ رسولاً مِن عند أمير البصرة مُحَمَّد بن سُليمان الهاشميِّ، وأريدك أنْ تقابله، ولكن واللهِ لا يصحُّ أنْ تقابله بهذه الهيئة وهذه الصُّورة، أنت هيئتك متَّسخةٌ وثيابك متَّسخةٌ وشعرك غير معتنى به ولم تقصه، لا يصحُّ أنْ تُقابله بهذه الصُّورة، قلت: والله ما أجد ما أغتسل في الحمَّامات، وكان في السابق الاغتسال عندهم في حمَّاماتٍ كبار، يأتي النَّاس ويدفعون أجرةً ويغتسلون في هذا الماء، يكون ماءً مُسخَّنًا، وهناك مَن يُساعدك على الاستحمام بالليف والصَّابون ونحوه.. يقول: فهذا يحتاج إلى مالٍ وأنا ما عندي، وأحتاج أنْ أذهب إلى الحلاق، وما عندي مالٌ، يقول: فقال لي: انتظر، ورجع إلى الأمير، ثُمَّ جاء إليَّ وقال: اسمع، قلت: نعم، قال: هذه ألف درهم مِن الأمير يقول حَسِّن مِن هيئتك ثُمَّ تعال، يقول: فقلت الحمد لله هذا أوَّل الخَير، ما يدري إلى الآن ما يُريد منه الأمير، يقول: فأخذتها وذهبتُ واشتريتُ ملابسَ وكذا واغتسلت وأصلحتُ شعري وعمامتي وجئتُ وقابلته، فقال: الأمير أأنت الأصمعيُّ الأديب؟،

قلت: نعم، قال: إنَّ الخليفة هارون الرَّشيد أرسل إليَّ مِن بغداد طالبًا مُؤدِّبًا لأولاده، فلما سألت قالوا إنَّك رجلٌ أديبٌ وشاعرٌ وتعرف الكتابة والقراءة، فيمكن أنْ تكون مُدرِّسًا خاصًّا لأولاده، فقلت: نعم، قال: إذن هذا مالُ نفقةٍ واذهب إلى بغداد، فيقول: فرجعت إلى بيتي وأخذت شيئًا مِمَّا تبقَّى لي مِن متاعٍ، وأودعت البيت عند مَن يحفظه، وخرجتُ إلى بغداد.

قال، فلمَّا جئتُ إلى بغداد ودخلت على الخليفة؛ فأعجب بي وبطريقتي وبأدبي وبشعري وبفصاحتي، فهذا رجل طوَّر نفسه وحرص على أنْ يطلبَ العِلم وأنْ يثني رُكَبَه في مجالس العِلم، وبالتَّالي لمَّا حَرِصَ على أنْ يثنيَ رُكَبَه في مجالس العلم؛ استطاع أنْ يُطوِّرَ نفسَه، وبالتَّالي أسلوبه في الكلام تغيَّر وعباراته تغيَّرت وفصاحته تغيَّرت..

وأنا أقول لأبنائي وبناتي مَن يتعب ويُحسِّن مِن أسلوبه؛ يظهر أثر ذلك عليه ويظهر على حياته، فوقف بين يدي الخليفة، فأُعجِبَ به الخليفة، وقال: أنا أريدك أنْ تكون مُؤدِّبًا لولدي، يقول: فجعلوا لي بيتًا خاصًّا في القصر، وأصبحت أؤدب هذا الأمير..

ظل الأصمعيُّ عند الخليفة سنوات، يُعلِّمُ هذا الغلام ابن الخليفة، يُعلِّمُه اللغة ويُحفِّظُه القرآن ويُعلِّمه الشِّعر.. يقول الأصمعي: فكان الخليفة يعطيني راتبًا، وكان الرَّاتب زائدا على حاجتي، فهو في القصر فيأكل ويشرب على حسابهم، فيقول: فكنت أجمع وأرسل

إلى البصرة، فاشتريت بيتًا بدل تلك الغرفة الصَّغيرة، يقول: ثُمَّ كان النَّاس الذين يُريدون أنْ يخاطبوا الخليفة يريدون مني أنْ أكتب للخليفة؛ لأنَّه عنده أسلوبٌ، فكان يكتب لهم، فإذا أعطاهم الخليفة مالاً؛ كانوا يكافئونه، ويقول: كان ربما أعطى بعضهم لي قِصصًا أوراقًا لأوصِّلها للخليفة، فكنت آخذ هذه الأوراق وأدخل على الخليفة وهو على كرسيه وحوله النَّاس والوزراء والوُجهاء.. آتي أنا وأقترب منه لأنِّي مُؤدِّبُ ابنه، ولي منزلةٌ خاصَّةٌ، فأعطيه الورقة، وأقنعه أنْ يكتب عليها بإعطاء النَّاس مالاً فيوقِّع عليها، فيُعطيها لهم وكانوا يعطونه عليها مالاً، يقول حتى كثُرَ المال عندي، واشتريت مزرعةً واشتريت بساتين في البصرة..

يقول: قال لي الخليفة يومًا: إنِّي أريدُ مِن ولدي أنْ يخطبَ الجمعة، مُمكن؟، قلت: نعم، الغلام وصل إلى ١٧ أو ١٨ سنة، فممكن، وذلك بعد أنْ أكمل الأصمعي قُرابة السَّبع سنواتٍ عند الخليفة، يقول فصعد الأمير المنبر بعد أنْ حفَّظته الخُطبة ودرَّبه عليها مِرارًا، وخَطَبَ النَّاس، فأُعجِبُوا به مِن كلِّ جانبٍ، وأخذوا يلقون عليه المال مِن كلِّ جانبٍ وأنا مثل ذلك؛ لأنَّ الناس يعلمون أني أنا الذي درَّبته على هذا.

يقول ثُمَّ قال لي الخليفة: يا أصمعي، بارك اللهُ فيك يا عبد الملك، والآن الغلام حَفِظَ القرآن وتعلَّم اللغة وتعلَّم الأدب وتعلَّم الحديث، والآن يجالسني ولا أحتاجك معه، أتريد أنْ تجلس عندنا؟ فمرحبًا بك، تريد أنْ تعود إلى البصرة؛ فأنت وذلك، فقلت: أعود

للبصرة، فقال لي: تمنَّى ماذا تريد أنْ أعطيك؟، فقال: بارك الله فيك، فأنا في البصرة عندي مزارع وبيتٌ فلا أحتاج شيئًا، فقال: لا بل لك مِن الدواب كذا، ومِن الإبل كذا وكذا.. فكان معجبا بي، يقول: وأخذ يأمر لي بهذه الأمور، فقال لي: إلا أنْ تخبرني عن أمنيةٍ مِن أمنياتك، فقلت: نعم، أريد منك أيها الخليفة أنْ تكتب إلى عاملك في البصرة مُحمَّد بن سُليمان الهاشمي إذا سمع بمقدمي أنْ يخرج إليَّ هو والحاشية ليستقبلوني، ثُمَّ يأمر النَّاس أنْ يأتوا إليَّ في قصري يُسلِّمون عليَّ ثلاثةَ أيَّام، يعني يجعل لنفسه شيئًا مِن الوجاهة، فقال: نعم، فأرسل لأمير البصرة بذلك، فأقبل عبد الملك إلى البصرة واستقبله مُحَمَّد بن سُليمان الهاشميِّ مع وزرائه في الصَّحراء، ينتظرون مَقْدِم مُؤدِّب ابن الخليفة أنْ يحضر إليهم، فإذا بالأصمعيِّ يُقبل مِن بعيدٍ ومعه حاشيةٌ ومعه حرسٌ يُقبِلُ على بعيره، يمشي في هذه الصَّحراء قادمًا مِن بغداد مِن أجل أنْ يصل إلى البصرة والنَّاس يترقَّبونه، فأقبل وسلَّم عليه مُحَمَّد بن سُليمان الهاشميِّ وأعطاه قدره، ثُمَّ توجَّه إلى قصره، فأتى إليه اليوم الأوَّل، وسلَّم عليه التُّجَّار وكِبار النَّاس، في اليوم الثَّاني أقبل يُسلِّمُ عليه الذين هم أقلُّ منهم، في اليوم الثَّالث أقبلَ يُسلِّم عليه عامَّة النَّاس..

يقول الأصمعي: (وهنا الموقف) فبينما النَّاس يُسلِّمون عليَّ.. مرحبًا يا صاحب الخليفة.. مرحبًا يا مُؤدِّب الأمير، ما يقول عبد الملك الأصمعيُّ صريحًا، لا .. هذا له مقامُه، وكان مِن بينهم رجلٌ عليه ثيابٌ رَثَّةٌ وواضحٌ عليه الفقر وعليه جرموك مِن غير خُفٍّ، يقول: وإذا هو

فعلاً واضح عليه الفقر، يقول: فأقبل، فلمَّا سلَّم عليه، قال: إيه يا عبد الملك، يقول: فلمَّا قال لي يا عبد الملك هكذا صريحةً بدون لقبٍ تذكَّرتُ خِطاب الخليفة لي، فكان الخليفة عندما يُناديه ما يقول يا مُؤدِّب الأمير أو يا فضيلة الشَّيْخ، بل يقول يا عبد الملك، يقول فتذكَّرتُ خِطاب الخليفة لي، فقال: هل تذكَّرتني يا عبد الملك؟، قال: فنظرت إليه، قلت: نعم، ألست صاحب البقَّال؟، قال: بلى، قال: فقلت له: هل تذكر نصيحتك التي نصحتني بها، أنْ أجمع كُتبي وأنْ أُلقيها في برميلٍ وأنْ أصبَّ عليها الماء، ثُمَّ ننظر ما الذي يخرج لنا.. هل تذكر هذه النصيحة؟، قال: نعم، قلت: قد عملت بها، قد أخذت كتبي وقرأتها وأتقنتها وطرحتها في صدري، حفظتها، ثُمَّ صببتُ عليها الحِرْص، يعني أستفيد مِن وقتي وأقرأ وأتعب، ثُمَّ صببت عليها الحِرْصَ فخرج ما ترى مِن شأني.. هذا ما أعطاني اللهُ في الدُّنيا قبل الآخرة.

فالعلم عزٌّ في الدُّنيا قبل الآخرة، كما قال الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [سورة المُجادلة- الآية ١١].. يقول عددٌ مِن أهل العِلم ﴿دَرَجَاتٍ﴾ يعني في الآخرة ودرجاتٌ أيضًا في الدُّنيا، ذلك أنَّ اللهَ تعالى جعلَ لهم قدرَهم، وهم سُرج البلاد وهم غُداة العباد، فإذا كان الأصمعي قد رُفع وهو يُتقِن ما يتعلَّق باللغة والأدب والشِّعر، أتقن هذا أكثر مِن إتقانه غيره، فما بالك بمَن يُتقن الكتاب والسُّنَّة والفِقه والحديث ويُفتي الناس في مسائِلهم ويفصل خصوماتهم ويُصلح ذات بينهم؟!.. بلا شكَّ يكون أنفع لنا.. فالإمام الفقيه أنفع للنَّاس

مِن الشَّاعر وكاتب النثر بلا شك.

وقف ذلك الرَّجُل بين يديَ الأصمعيِّ، وقال له الأصمعيُّ: عَمِلْتُ بنصيحتِك وطرحتُ كُتبي في صدري وصببتُ عليها الحِرْص؛ فخرج ما ترى مِن شأني، فقال له ذلك البقَّال: أرجوك وظِّفني عِندك، بدل ما كان يقول له اجمع كتبك والله ما أُعطيك بها حزمةَ بقلٍ، قال له الآن وظِّفني عندك، قال: فجعلته حارسًا على بعض بساتيني.

لي رسالة إلى أبنائي وبناتي وإخوتي وأخواتي:

لا تحسبن المجد تمرًا أنت آكله	لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرَا

فالإنسان الذي يصل إلى القمَّة، سواءٌ وصل إلى القمَّة في تجارته أو صناعته أو مِن اختراعٍ، أو وصل أيضًا للقمَّة مِن خلال حِفظه للقرآن والدَّعوة إلى الله، في الخطابة، في الإصلاح بين النَّاس، فالإنسان الذي يكسب محبَّة النَّاس ويفرحون بمخالطته إذا خالطوه، كلُّ هؤلاء اعلم أنَّهم يُمارسون مهاراتٍ استطاعوا بها أنْ يصلوا إلى هذه المرحلة.. الأصمعيُّ مارس مهاراتٍ، يستيقظ في الصَّباح ويبيت متأخِّرًا، ويقضي أكثر وقتِه في طلب العِلم، يقضي كثيرًا مِن وقته في طلب القراءة، تحمَّل الشِّدَّة والتَّعب في سبيل ذلك، وبالتَّالي وصل إلى القمَّة، وما نزال إلى اليوم نذكر الأصمعيّ، وإذا ذكرنا الأصمعيَّ؛ عرفه كثيرٌ منَّا، لكن كذلك نحن إذا أراد الإنسان أنْ يصل إلى القمَّة أنْ يحرص مثل هذا الحِرْص، أنْ يَحرِصَ على أنْ يتعلَّم ويتفقَّه ويستفيد مِن وقته، وأنْ يُصاحب النَّاجحين الذين هم يدفعونه إلى الخير بدلاً

من أن يجرُّوه إلى غيره..

أسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ أنْ يوفِّقَني وإيَّاكم لكلِّ خيرٍ وأنْ ينفعنا بهذا، فقد كان في قَصَصِهم عبرةٌ..





بين الخوف والرجاء

«هل تطرحه في النَّار؟».. هذا سؤالٌ سألَهُ النَّبيُّ (ﷺ) لأصحابه.. كانوا في معركةٍ هوازن.. معركة التقى فيها المسلمون بقبيلة هوازن، وكانت هوازن فيهم قوَّةٌ في القِتال وشدَّةٌ، والمسلمون فيهم قوَّةٌ وشِدَّةٌ، التقى الجيشان فتسمع صُراخ الرِّجال وصَهيل الخَيل، وترى القتل يمينًا ويسارًا، فهذه معركةٌ.. انتهت المعركة وانتصر المسلمون وجِيء بالنِّساء والصبيان الذين هُم مِن هوازن مِن العدو، جِيء بهم وأُودعوا في مكانٍ مُعيَّنٍ، إلى الآن النَّبيُّ (ﷺ) لم يتَّخِذ فيهم قرارًا، طبعًا هُم لن يُقتلوا، ولكن هل نطلِقُهُم، أم نجعلُهم أسرى أم نفديهم بالمال؟، فكانت مجموعة نساء وأطفالَ، مِن بين هؤلاء امرأةٌ كانت تطوفُ على النِّساء

وتنظر وتلتفت إلى الأطفال الذين مع النِّساء، وإذا رأتْ طِفلاً رضيعًا أخذته وحملته ونظرت إلى وجهه ثُمَّ أعادَتُه، فكان واضحًا أنَّ المرأة تبحث عن طفلها لتُرضِعه، فجعلَ النَّبيُّ (ﷺ) ينظرُ إليها.. ثُمَّ قال، لأصحابه عبرةً بعدما وجدت ولدَها، فماذا قال لهم النَّبيُّ (ﷺ)..

هذه المرأة لَمَّا وَجَدَتْ طفلَها، وقد كَبُرَ همُّها وعَظُمَ شوقُها، ويكادُ اللَّبنُ أنْ يتفجَّر مِن ثديها، وَجَدَتْ طفلها فضمتْهُ لصدرها وألقمَتْهُ ثديها، وضمَّتْهُ بيديها، لَمَّا رأى النَّبيُّ (ﷺ) رحمتها بصغيرها، وكان قبلها يرى حِرْصَها ويتخيَّل بكاءَها، ورآها وهي تضمُّ صغيرَها، حتى رُبَّما لو جاءت قوَّةُ الدُّنيا لتنزعه منها؛ ما استطاعت، وقال (عليه الصَّلاة والسَّلام) لأصحابه: «أترون هذه طارحة ولدَها في النَّار؟»، قال الصَّحابة: لا يا رسول الله، واللهِ لا تطرَحُه في النَّار.. كيف تطرَحُه في النَّار وقد ضمَّتُه إلى صدرها وألقمَته ثدْيَها وقد عظُمَ حبُّه وحبُّها وطال شوقُه وشوقُها، وقد انطفأ لهيب شوقُها وكربُها.. هل معقولٌ أن تطرحه في النَّار بكلِّ سهولةٍ، فقال (عليه الصَّلاة والسَّلام): «والذي نفسي بيده إنَّ اللهَ أرحمُ بعباده مِن هذه الأمِّ بولدها» [رواه البُخاريُّ وآخرون]..

«إنَّ اللهَ أرحمُ بعباده مِن هذه الأُمِّ بولدها».. كان رسولُ الله (ﷺ) يتعمَّد أنْ يقتَنِصَ الفُرَصَ مِن أجلِ أنْ يضربَ لأصحابه مثلاً، إمَّا بسعة رحمةِ اللهِ أو بتذكيرهم بفضلِ النَّفقة والصَّدَقة، وإمَّا بحثِّهم على خيرٍ أو تحذيرهم مِن شرٍّ، «إنَّ اللهَ أرحمُ بعبادِه مِن هذه الأُمِّ بولدها».. لذلك كان يقول بعضُ السَّلف: واللهِ لو خيَّرَني اللهُ يوم القيامة بين أنْ يُحاسِبَني هو وأنْ تُحاسِبَني أُمِّي؛ لأقول لا يا ربي؛ بل

حاسِبَنِي أنتَ، لأنَّك أرحمُ بي مِن أُمِّي..

وفي موطنٍ آخرَ يقول أنسٌ (ﷺ): بينما نحن مع رسولِ الله (ﷺ)، إذ أقبل رجلٌ قد كَبُر سِنُّه ورقَّ عظْمُه واحدودَبَ ظهرُه وشابَ رأسُه، أقبلَ هذا الرَّجلُ يمشي على ثلاثٍ، على قدمَيْن وعلى عصا يتوكَّأُ عليها، أقبلَ حتى وَقَفَ بين يدَي النَّبيِّ (ﷺ)، شيخٌ كبيرٌ وقد سقط حاجباه على عينَيْه مِن شدَّةِ الكِبَرِ، قال: يا رسول الله، أرأيت رجلاً عَمِلَ الذُّنوب كلّها فلم يترك منها شيئًا، وهو رغم ذلك ما ترك حاجةً ولا داجةً إلا أتاها، لو قُسِّمَتْ خطيئتُه على أهلِ الأرضِ لوسِعَتْهُم، فهل لذلك مِن توبةٍ؟، فرفع النَّبيُّ (ﷺ) بصره إليه، ثُمَّ قال له: «أسلمتَ؟»، قال نعم.. قال: «قد غفر اللهُ لك».. قال: وغدراتي وفجراتي؟، قال: «وغدراتك وفجراتك».. فمضى الرَّجُلُ يتَّكئ على عصاه وهو يقول: اللهُ أكبرُ، اللهُ أكبرُ، اللهُ أكبرُ.. يقول أنسٌ: فما زلنا نسمع تكبيرَهُ حتى مضى الرَّجُلُ بعيدًا [رواه البخاريُّ عن أنسٍ ﷺ]..

كان النَّبيُّ (ﷺ) مبشِّرًا لا مُنفِّرًا، كان مُيسِّرًا لا مُعسرًا، كان يرغِّبُ النَّاس في رحمة اللهِ تعالى، بل كان يقول (عليه الصَّلاة والسَّلام) محذِّرًا مِن أنْ تُغلقَ أبواب الرَّحمة في وجوه النَّاس، كان يقول: «إنَّما بعثتم مُيسِّرين لا مُعسرين» [رواه البُخاريُّ]، وكان يقول (عليه الصَّلاة والسَّلام) لمعاذِ بن جبلٍ وأبي مُوسى الأشعريِّ لَمَّا أرسلهم إلى اليمن: «قال بشِّرا ولا تنفِّرا» [رواه البخاريُّ].. بشِّرا النَّاس وتكلَّما عن الرَّحمة وإحسانِ اللهِ لعباده وحبِّ اللهِ لعباده المؤمنين، بشِّرا ولا تُنفِّرا ويسِّرا ولا تُعسِّرا، وتطاوَعا ولا تختلفا..

وكان (عليه الصَّلاة والسَّلام) يقول للنَّاسِ: «أَيُّها النَّاس إنَّ منكم مُنفِّرين»، أي أناسا ينفِّرون النَّاس مِن الدِّين، ولكن مَن كان يعني؟.. اسمعوا مَن كان يعني ثُمَّ قِيسوها على أحوالِكم.. قال: «إنَّ منكم منفِّرين فمَن أمَّ منكم النَّاس فليخفِّف» [رواه البُخاريُّ].. فالذي يُطيلُ الصَّلاةَ، رغم أنَّه يُطيلُ في الصَّلاة وفي العبادة؛ إلا أنَّه ينفِّرُ عن الدِّين!!، فما بالَكُم بمَن لا يُعطي العُمَّال حقوقَهم، ألا ينفِّرُ عن الدِّين؟.. الذي يتعامل مع غيرِ المسلمين وعَبَسَ في وجوههم، ألا ينفِّرُ عن الدِّين؟.. الذي يكون جارًا وحوله جيرانٌ سواءَ مسلمين أو غير مسلمينَ، ولا يحسنُ التَّعامل معهم، ألا ينفِّرُ عن الدِّين؟.. الإنسان الذي يتعامل مع زوجتِه بسوءٍ، ألا ينفِّرُ عن الدِّين ويُظهِرُ الإسلام كأنَّه غليظٌ في التَّعامُل؟!.. فهؤلاء يا جماعة رُبما فتحوا ثغورًا على الإسلام وظهر فيهم مخالفون، وكلما صار الإنسان أكثر تمسكًا بالدين كان أقرب لرحمة الله تعالى، فرحمة الله تعالى واسعة، ولكن مع ذلك ينبغي على الإنسان ألا يعتمد على هذه الرحمة؛ بل يعلم أن الله تعالى أيضًا شديد العقاب..

مُوسى عليه السلام في عصره، كان هناك رجلٌ مِن بني إسرائيل يُؤذي مُوسى (عليه السلام) أذىً شديدًا، فاشتكاه مُوسى إلى ربِّه، قال: يا ربُّ إنَّ هذا الرَّجل آذاني، يعني يكذِّبُني في دعوتي، يصرُخُ فيَّ في كلِّ مَوْطِنٍ، يُهينني، يا ربُّ قد أذاني، انتقم لي منه، فقال تعالى: «يا مُوسى قد جعلتُ عذابَه إليك إذا أردت أنْ تأمُرَ السَّماء تُمطرُ عليه الحِجارة أو تُخْسَف به الأرض قد جعلت عذابه إليك».. مرَّت الأيام وقابله مُوسى في الطَّريق، فسب ذلك الرَّجلُ مُوسى وتكلَّم على مُوسى، فغضِب مُوسى، وقال: يا

أرض خُذيه، فانشقَّت الأرضُ وابتلعتْه إلى أنصاف ساقَيْه، فقال: تُبتُ يا مُوسى، أغثني، أغثني، قال: يا أرضُ خُذيه، فانشقَّتْ حتى وصل إلى رُكبتَيْه، قال: تبتُ يا مُوسى، قال: يا أرضُ خُذيه، حتى وصلِ إلى حقوَيْه، ثُمَّ وصل إلى ثدييْه، وهو يصيح حتى ابتلعتهُ الأرض كلُّها، ومات الرَّجل.. فأوحى اللهُ تعالى إلى مُوسى، قال: «يا مُوسى ما أقسى قلبكَ وعزَّتي وجلالي لو استغاث بي لأغثتُه»..

صحيحٌ ربُّ العالمين رحيمٌ، ولكنَّه شديدُ العِقــاب، وقد ذَكَــر النَّبيُ (ﷺ) حادثة امرأةٍ مِن قَوْمِ نوحٍ تدلُّ فعلاً على أنَّ الجبَّار جلَّ وعلا إذا غَضِبَ غَضِبَ..

لمَّا كان النَّبيُّ (ﷺ) مع أصحابه ذَكَرَ لهم قصَّةً مِن قَومِ نوح (عليه السلام) لمَّا غرقوا بالطُّوفان.. دعا نوحٌ ربّه كما قال تعالى عن نوحٍ عليه السلام : ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِر(١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاء عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ(١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ (١٤)﴾ [سورة القمر].. ومَضَتْ الآيات تصِفُ كيف كان غَرَقُ قَوْمِ نوحٍ، كما قال جلَّ وعلا: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ﴾ [سورة الحاقَّة- من الآية ١١] طُغيانٌ للماء، وأنتم تعلمون أنَّ الماء إذا طغى وجرى؛ نزع الأشجار ودمَّر البيوت وساق السَّيَّارات وحملها الماء كما لو كانت لُعَبَ أطفال، والنَّاس يصيحون ويبكون ويستغيثون، وهذا مُتعلِّقٌ بشجرةٍ، وهذا في رأس جبلٍ والماء يسوقهم سَوقًا.. ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ﴾، فسمَّاه الله جلَّ وعلا طُغيانًا، يقول تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاء حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١)﴾ في السَّفينة

يضربُ بها المَوج يمينًا ويسارًا وربُّكم يحفَظُها ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ (١٢)﴾.. فعلاً تكون تذكرةً، هنا التَّذكرة، ونذكرها لكم الآن..

النَّبيُّ (ﷺ) ذَكَرَ لأصحابه قِصَّة قوم نوح، ثُمَّ ذَكَرَ أنَّ امرأةً مِن قوم نوحٍ خَرَجَتْ والطُّوفان قد بدأ يكثُر.. ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاء عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢)﴾ [سورة القمر].. السَّماء تُمطر مَطَرًا شديدًا يُغْرِقُ النَّاس ومطرٌ ماءٌ مُتتابعٌ على رؤوس الجبال وعلى الوديان والأرضِ تنبُع بالماء.. ﴿فَالْتَقَى الْمَاء عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ مُقدَّرٌ.. هذا المرأة ركَضَتْ بصبيانها وظلَّت تبحث يمينًا ويسارًا حتى رأت جبلاً.. جعلَتْ تصعد على هذا الجبل هي وصبيُّها، وصبيُّها يصعدُ معها، حتى ارتفعَتْ والماء يتبعُهما، حتى وَصَلَت المرأة إلى أعلى الجبل، وبدأ الصبي يصل الماء إلى رأسِه، فحملته المرأةُ إلى صدرها، فارتفع الماءُ وحملَتْه المرأة على كتفَيْها، فارتفع الماء فجعلَت المرأة تحاول النَّفس وقد رَفَعَتْ ولدَها فوقَها، والماء يرتفعُ ويرتفعُ ويرتفعُ حتى غطَّاها وغطَّى وليدها وغرقا.. يقولُ النَّبيُّ (ﷺ): «لو كان الله راحمًا أحدًا مِن قوم نوح لرَحِمَ المرأة وصبيّها لكن كما قال الله جل وعلا ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾» [سورة القمر- الآية ٤٢] [رواه البُخاريُّ]..

نحن نعلم أنَّ اللهَ تعالى أرحمُ بنا مِن آبائِنا وأُمَّهاتِنا، ولكن أَيُّها الأحبَّة ينبغي ألا يدفعَنَا ذلك إلى المعصيةِ، واحدٌ ينامُ عن الصَّلاة ويقول اللهُ رحيمٌ، أرحمُ مِن أُمِّي وأبي، واحدٌ يأكل الرِّبا، ويقول اللهُ أرحمُ مِن

أُمِّي ومِن أبي، واحدٌ يأكل حقوق الَّناس بالباطل ويحتال على هذا ويسرِقُ هذا ويأكُلُ مالَ هذا، ويستلف مِن هذا ولا يردُّه إليه، ويقول يا أخي هذا أرحمُ بي مِن أُمِّي ومِن أبي، كلا.. صحيحٌ اللهُ جلَّ وعلا هو الغفور الرَّحيم، ولكن ينبغي ألا تدفعَ هذه الرَّحمة وتلك المغفرة والجود والإحسان والكرم ذلك الإنسان كي يقع في المعصية، كلا.. بل يبقى أيضًا عنده نوعٌ من التَّعظيم للهِ ربِّ العالمين؛ لذلك العلماء ذكروا أنَّه كما أنَّ الإنسان عنده رجاءٌ في اللهِ تعالى وسعةِ رحمته، كذلك لابدَّ أنْ يكون عنده خوفٌ وتعظيمٌ لربِّ العالمين مِن أنْ يقعَ في شيءٍ مِن المعاصي، وقد كان النَّبيُّ (ﷺ) يُحذِّر مِن صِغار المعاصي قبل كبيرها..

رَجعَ رسولُ اللهِ (ﷺ) مرَّة مِن غزوةٍ مِن الغزوات، فكان بين يدَي النَّبيّ (ﷺ) غلامٌ يخدِمُه.. هذا الغلام لَمَّا أرادوا أنْ يرتحلوا، أقبل هذا الغلام بعد الرُّجوع مِن الغزوة وكانت هناك غنائم، وكانت الإبل تسير بهم، جاء هذا الغلام إلى النَّاقة، ناقة النَّبيّ (ﷺ)، وأَخذَ الرَّحْل ليضَعهُ على دابَّة رسولِ اللهِ (ﷺ).. جعلَ يضع الرَّحْلَ على الدَّابَّة ويحاول أنْ يربطَ الرَّحْل يمينًا ويسارًا، يُثبِّتُ هذا الرَّحْل خدمةً لرسول الله (ﷺ)..

في هذه الأثناء رُمِيَ سهمٌ على هذا الغلام مِن بعض المشركين الذين كانوا مُختبئين، فوقَعَ في صدره أو في رأسه ومات .. فلمَّا مات؛ كبَّر المسلون، قالوا: اللهُ أكبرُ، هنيئًا له الجنة، هنيئًا له الشَّهادة، غلامٌ يخدم رسولِ اللهِ (ﷺ)، وقد ترَكَ أهلَه ومالَه. يعني هذا شهيدٌ.. فقال النَّبيُّ (ﷺ): «كلا إنَّ الشَّملة التي غلَّها (يعني الرِّداء الذي سرقه مِن الغنيمة قبل أنْ

تُقسَّمَ) لتشتعل عليه في قبره نارًا» [رواه البخاريُّ].. فيقول تعالى: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [سورة آل عمران- من الآية ١٦١]، فهذا الغلام أخذها وخبَّأها معه، فيقولُ الرَّسولُ (ﷺ): «والله هذه الشملة التي غلها لتشتعل عليه في قبْره نارًا».. فأقبلَ رجلٌ إلى النَّبيِّ (عليه الصَّلاة والسَّلام) ومعه مالٌ، قال: يا رسولَ اللهِ خُذ هذا، هذا أنا أخذتَهُ مِن الغنيمة، فقال (عليه الصَّلاة والسَّلام): شراكٌ مِن نارٍ، أو شراكان مِنْ نار، والشِّراك هو النَّعلُ، وسُمِّي شراكًا لأنَّهم كانوا في السَّابق يلبسون النَّعل وله خيطٌ مِن أعلى يربطونه في الرِّجل، يُشركُونه مع بعضٍ، فقال النَّبيُّ (ﷺ): «شراكٌ مِن نارٍ أو شراكان مِن نارٍ [رواه البُخاريُّ وآخرون].

دلَّ هذا على أنَّ سَعة رحمةِ اللهِ ومغفرتِه؛ ينبغي أنْ تدفعنا إلى عدم القنوت مِن رحمته، كما قال جلَّ وعلا.. ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [سورة الزُّمَر- الآية ٥٣]..صحيحٌ نُقْبلُ على الرَّحمة، ولكن ينبغي أيضًا ألا يجرَّنا ذلك إلى الوقوع في أنواعٍ مِن المعاصي، والإنسان يقول إنَّ الله غفورٌ رحيمٌ، نعم.. هو غفورٌ رحيمٌ، ولكنَّه شديدُ العِقاب، فلابدَّ أنْ نساوي بين هذا وهذا، وأنْ نحدِّثَ النَّاسَ به أيضًا، إذا رأينا مَن عنده معاصٍ، ويقول أنا لنْ يَغْفِرَ اللهُ لي؛ نحدِّثُه بالرَّحمة ونقول يا أخي هذه قصَّة امرأةٍ.. يقول الرَّسول (ﷺ): أتطرحه في النَّار.. وهذا رجلٌ وشَيْخٌ كبيرٌ وقع في معاصٍ، يقول: يا رسول الله وغدراتي وفجراتي؟، يقول: «نعم يغفر لك غدراتك وفجراتك»، فنعم نوسِّع له في الرَّحمة، ولكن كذلك إذا رأينا إنسانًا

قد مدَّ لنفسِه الحبلَ الطَّويل في المعصية؛ نبيِّنُ له ذلك..

أسألُ اللهَ أنْ يشملَنَا جميعًا في رحمته، وأنْ يعُمَّنا جميعًا برحمتِه، وأنْ يغفر لنا ذنوبَنا وإسرافنا في أمرِنا، ويثبِّتُ أقدامَنا.





أصحاب السَّفينة

من هُم أصحابُ السَّفينة؟.. هل هم الذين قال فيهم النَّبيُّ (عليه الصَّلاة والسَّلام) إنَّ قومًا استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها؟.. لا ليس هؤلاء.. هل أصحاب السَّفينة هم قومُ يونس (عليه السلام) لَّما ألقوه في البحر، فالتقمه الحوت.. أنتكلَّم عن قصة هذه السَّفينة؟.. أيضًا كلا..

نحن الآن سنتكلَّم عن سفينةٍ أخرى.. سنتكلم عن أوَّلَ رحلةٍ بَحْرِيَّةٍ قام بها المسلمون في الإسلام.. هل شاركهم الرَّسول (عليه الصَّلاة والسلام)، أم لم يُشاركهم؟.. ما هو جزاؤهم الذي أخبرهم به النَّبي (عليه الصَّلاة والسَّلام)؟.. ولماذا سافروا بالسَّفينة أصلاً؟.. هذه

كلها أسئلةٌ فيها عبرٌ وعظاتٌ، وفيها أيضًا فضيلةٌ لأصحاب السَّفينة سنذكرها في السطور التالية..

لَمَّا ضُيِّق على النَّبيِّ (ﷺ) وأصحابه في مكة.. كان بلال يُعذَّب وعمار يُعذَّب.. لك أنْ تتخيَّلَ ذلك الضَّرب الذي كانت تضربه قريش للمسلمين، وهذا التَّعذيب للعبيد المساكين.. منهم من يُجلدُ بالسِّياط، ومنهم من يُحرَقُ بالنَّارِ، ومنهم مَنْ يُعلَّقُ على جذع نخلةٍ ويُصيبِهم أنواع مِن التَّضييق والعذاب لا يحتمله إنسان.

ومع شدة هذا العذَّاب وهذا النَّكال كان النَّبيُّ (ﷺ) يلتفت في مكة وما حولها يبحث عن مخرجٍ.. يبحث عن موطنٍ يهاجرُ إليه أصحابه الكرام، ليتخلَّصوا من هذا العَذاب الذي هُم فيه، حتى قال (عليه الصَّلاة والسَّلام) يومًا لهم إنَّ في الحبشة مَلِكًا لا يُظلَمُ عِنده أحد، فاذهبوا إليه، عندها تجهَّز الصَّحابة.. قُرابة الثَّمانين ما بين رجلٍ وامرأةٍ.. تجهزوا من أجل أنْ يخرجوا إلى أرضِ الغرباء البُعداء.. إلى الحبشة، فخرجوا إلى تلك الدِّيار واستمروا سنةً وسنتَيْن وثلاثًا في ديارٍ لم يألفوها، وأرض مِنْ قَبل لم يطؤوها، ولغة أيضًا لم يفهموها، ومع ذلك ذهبوا إلى هناك.

وكان ملك الحبشة هو النَّجاشيّ (رضي الله عنه).. كان مَلِكًا صالحًا، وقد كان قبلُ نصرانيًا، وبعد ذلك دخل الإسلام لَمَّا جاء إليه جعفر بن أبي طالب (رضي الله عنه) ومن معه من الصَّحابة وتلوا عليه القرآن ووقفوا بين يدَيْه ودعوه إلى الله تعالى وتناقش معهم في إيمانهم بالمسيح عيسى ابن مريم عليه الصَّلاة والسَّلام، وبينوا له وقرؤوا عليه الآيات مِنْ أوَّلِ سورة مريم وبيَّنوا

له عقيدة المسلمين في ذلك، حتى دخل النَّجاشيُّ في الإسلام، وقال لهم وهم بين يدَيْه: «أنتم سيوم في أرضي»، أي أنتم طلقاء وأحرار في أرضي.. لن نتكلم عنه الآن ولكن سنتكلَّم عن أصحاب السَّفينة..

أصحاب السَّفينة هؤلاء هم الصَّحابة الكِرام الذين هاجروا إلى الحبشة عن طريق السَّفينة، ثم لبثوا هناك سبع سنين أو ثماني سنين، حتى هاجر النَّبيُّ (عليه الصَّلاة والسَّلام) إلى المدينة، ثم بعد ذلك في المدينة، لم يقل لهم تعالوا، واستمرُّوا هناك، حتى جاءت السَّنةُ السَّابعةُ للهجرة.. أكملوا في الحبشة خمس عشرة سنة، قد شاخ الشَّاب وكَبُرَ الصَّغير، ودَرَجَ الغلام، ووُلِدَ أقوامٌ منهم هناك..

ممَّن وُلد هناك أم خالد بنت العاص.. بنتٌ صغيرةٌ، حتى أنَّ النَّبيَّ عليه الصَّلاة والسَّلام لَّما جيء بها، جاء أبوها وأُمُّها من الحبشة.. أُهدِيَ إلى النَّبيِّ (ﷺ) يومًا ثوبٌ فيه أعلامٌ وخطوطَ، فقال النَّبيُّ (ﷺ): «ادعوا لي أمَّ خالد»، فجيء بها إلى النَّبيِّ (ﷺ)، فلما وقفت بين يدَيْه ألبسها النَّبيُّ (ﷺ) الحُلَّة بيده، وجعلَ يُشير إلى أعلامها، وهو يقول: «هذا سنا يا أمَّ خالد، هذا سنا» (بلسان الحبشة يعني جميل)؛ لأنَّ الصَّغيرة وُلِدَتْ هناك، وتتكلم مع الصِّغار، وبالتَّالي أصبحَتْ أتقن للغة الحبشة من اللغة الأصليَّة (العربيَّة) فقال هذا سنا يا أم خالد..

لَّما فتح النَّبيُّ (ﷺ) خيبر، ومَنَّ الله تعالى على المسلمين بالغنائم؛ أرسل إليهم أنْ تعالوا إلينا، عندها أقبل فعلاً الصَّحابة حتى وصلوا إلى المدينة، والنَّبيُّ (ﷺ) فرح بهم، خاصَّة بجعفر ابن عمِّه، حتى قيل إنَّ

النَّبيَّ (ﷺ) ضمَّ جعفر، وقبَّلَه بين عينَيْه، وقال له: «أَشْبَهْت خَلْقي وخُلُقي».

يوما من الأيَّام، أقبَلَتْ أسماء بنت عميس زوجة جعفر، لَمَّا مات عنها جعفر؛ تزوَّجتْ أبا بكرٍ بعد ذلك.. أسماء بنت عميس أقبلت زائرة لحفصة زوجة رسول الله (ﷺ)، ابنة عمر بن الخطَّاب (رضي الله عنه)، فدخل عمر على ابنته حفصة، فإذا أسماء بنت عميس عندها، فقال عمر: السَّلام عليكم.. من هذه عندك يا ابنتي؟، قالت: أسماء بنت عميس، فقال: آلبحريَّة هذه؟ قالت: نعم (البحرية التي رَكِبَتْ البحر)، قال: آلحبشيَّة هذه؟، قالت: نعم، فقال عمر لها ملاطفًا: سبقناكم بالهجرة مع رسول الله (ﷺ)، فغضبت أسماء... قالت: أسبقتونا بالهجرة؟!، بل كنتم مع رسول الله (ﷺ)، يرأف على مريضِكُم، ويُطْعِمُ جائِعَكُم وينصر ضعيفكُم، ونحن كُنَّا في أرض الغرباء البُعداء، والله لا أسكت حتى أُبلغ عنك النَّبيَّ (ﷺ)..

ثُمَّ خَرَجَتْ أسماءَ إلى رسول الله (ﷺ)، وقالت: يا رسول الله إنَّ عُمرَ يقول سبقتمونا بالهجرة والجهاد، أليس لنا أجرٌ أنا وزوجي جعفر؛ لأَنَّه فاتنا ذلك كله؟.. فقال لها النَّبيُّ (ﷺ): «يا أسماء اذهبي فأبلغي مَنْ خلفك مِنْ أصحابِك، مِنْ أصحاب السَّفينة، أنَّ للمسلمين أجرًا واحدًا وأنَّ لكم أجرَيْن؛ أنتم هاجرتم الهجرة الأولى للحبشة، ثم هاجرتم الهجرة الثَّانية للمدينة»، فخرجت أسماء وتقول: فوالله لقد رأيت الذين كانوا معنا في الحبشة يأتون إليَّ أفواجًا ليسمعوا منِّي هذا الحديث.

وفعلاً هم بهجرتهم من خلال البحر وركوبهم هذه السَّفينة، يلعبُ بها الموج تارةً، ويرفعُها تارةً، ويهبطُ بها تارةً، ويتعرَّضون لخطر الموت في سفرِهم في هذا البحر، وهم مُؤمنون مُسلمون معهم صغارهم ونساؤهم، ومع ذلك يُخاطِرون بأنفسهم في سبيل هذا.. بلا شكَّ فإنَّ هذا كلَّه بأجر، والله تعالى لا يُضيعُ أجرَ المُحسنين.

أسماء بنت عميس (﵂) كانت تشعر فعلاً أنَّها ليست تابعةً لزوجها فقط؛ بل إنَّها صاحبةُ قضيَّةٍ.. لما هاجرت إلى الحبشة ما قالت واللهِ إنَّ لي أجرَ زوجي المُهاجِر للحبشة، وسأهاجر معه؛ لا .. إنَّما هي أيضًا فرَّت بدينها، فترى أنَّ لها أجرًا.. لا ترى أنَّها مُجرَّد زوجةِ مهاجرٍ للحبشة وذهبت معه؛ كلا .. ذهبت أسماء بنت عميس مع زوجها جعفر في المدينة مع رسول الله (ﷺ) ثمانية أشهر أو تسعة فقط بعد وصولهم، ثُمَّ النَّبيُّ (ﷺ) أرسل رسولاً إلى مَلِكِ الرُّوم يدعوه للإسلام، فقتل ملك الرُّوم ذلك الرَّسول، وجهَّزَ جيشًا لحرب المسلمين، فلمَّا عَلِمَ النَّبيُّ (ﷺ) بذلك؛ جَهَّز جيشًا لأجل أنْ يخرج إليهم للقتال في معركة مُؤتة.. خرج جعفر بن أبي طالب زوج أسماء بنت عميس، فماذا حصل له؟، وماذا فعل النَّبيُّ (ﷺ) لَمَّا جاء يتحدث عنه مع زوجته وأبنائه؟.. هذا له حديثٌ مُؤلِمٌ، ولكن فيه خيرًا وبركةً وصلةً وأجرًا..

لَمَّا جاءت معركة مُؤتة؛ جهَّز النَّبيُّ (ﷺ) جيشًا قوامه ٣ آلاف مقاتل، ثُمَّ قال: «أميرُكم زيد، فإنْ أُصيب؛ فجعفر، فإنْ أُصيبَ؛ فعبدُ اللهِ بن رواحة».. مضى الجيش حتى وصلوا مُؤتة، فإذا الرُّوم قد جمعوا لهم أكثر من مائتَيْ ألفَ مقاتلٍ، فليس جيشًا ضِعفُهم مرَّةً واحدةً أو مرَّتَيْن أو

ثلاثا؛ بل أضعافهم بأعداد كبيرة جدًّا.. ثلاثة آلاف أمام مائتَيْ ألف.. وبدأ القتال، ومِنْ أوائل المعركة قُتل زيدٌ (رضي اللهُ عنه)، وأخذ الرَّاية جعفر، وأخذ يقاتل قتالَ الأبطال، وإنَّما هو جاء من الحبشة قبل أشهرٍ، حتى قُتل (ﷺ)، وقُطعت يداه، ثم أقبل عبد الله بن رواحه، وهو يقول:

أقسمـــتُ يا نفـــسُ لتنزِلنّ	لتنـــزِلِنَّ أو لتُكـــرَهِنّ
إنْ أجـلبَ النَّاس وشـدُّوا الرَّنَّة	مـــالي أراكِ تكـرهينَ الجنَّة

ويلتفت، ويرى القتال، ويرى الموت بين يدَيْه، ويرى السُّيوف يضرب بعضها بعضًا، وصهيل الخيول، وصُراخ الرُّجال والأبطال، وجماجم ودما، ومع ذلك ما يزال يُقاتِلُ حتى قُتل أيضًا رضي اللهُ عنه، وسَقَطَتْ الرَّاية، وماج المسلمون بعضهم في بعض ولا راية.. الرَّسولُ (ﷺ) وضع ثلاثةَ قُوَّادٍ واستُشْهِدُوا، والآن لا يوجد راية، فأقبل ثابت بن أقرن وأخذ الرَّاية ورفعها، وقال: أيُّها النَّاس إليَّ إليَّ.. فاجتمع النَّاس إليه، وقال: اصطَلِحوا على قائدٍ، قالوا: أنت، قال: أنا ما أصلح، فقالوا: خالد بن الوليد.. أقبل خالد وأخذَ الرَّاية، وقاتل حتى جاء الليل، ثم بعد ذلك قال أرجعُ بالجيش، ولكن قال إذا رجعتُ للمدينة سيشعر القوم أنَّنا انسحبنا، ويتبعونا ويقتلونا.. ليس لنا إلا أنْ نَثْبُتَ لغدٍ، لكن عمل خُطَّة.. أخذ ميمنةَ الجيش ووضعها في الميسرة، والميسرة في الميمنة، والوسط، وغيَّر الرَّاية من بيضاء إلى زرقاء، ومن زرقاء إلى صفراء، ومن صفراء إلى حمراء..

ولَمَّا أصبح الغدُ، إذ ميمنة الرُّوم تُقابل ميمنةً جديدةً، ورايةً جديدةً،

وميسرةٌ تُقابل ميسرةً جديدةً، فشعر الروم أن المسلمين قد جاءهم مددٌ، فليست الوجوه وجوه الأمس، والرَّاية اختلفَتْ، فوقع في نفوسهم شيءٌ من الوجل، ولكن قاتلوا، وأخذ المسلمون يقتلون مقتلةً عظيمةً.. يقول خالد بن الوليد: اندقَّ في يدي في يوم مُؤتة تسعة أسياف، أي تكسَّرت السُّيوف في يده، ولم يثبت معي إلا صفيحةً يمانيةً، واشتد القتال وصار المسلمون يقتلون منهم قتلاً عظيماً، وانتهت المعركة ذلك اليوم، ورجع الجيشَان، كلٌّ في مكانه، وخالد لم يرجع إلى المكان، وأمر المسلمين بالعودة مباشرةً إلى المدينة، لم يُقتل من المسلمين سوى اثني عشر رجلاً فقط، وقُتِلَ من الكُفَّار أعدادٌ كبيرةٌ، ويكفي أنَّ خالد اندكَّ في يده تسعة سيوف.. هذا خبر مُؤتة..

أما خبر المدينة، فإنَّ النَّبيَّ (ﷺ) نادى في الناس، فأقبلوا إليه في المسجد فقال: ألا أحدثكم بخبر جيشكم هذا، قالوا: بلى، فقال: أخذ الرَّاية زيدٌ، فأُصيبَ، فقُتلَ، فاستغفروا له، قالوا: اللهم اغفر له وارحمه، قال: ثُمَّ أخذ الرَّاية جعفر، فأُصيبَ، فقُتلَ، فاستغفروا له (ودمعت عينا النَّبيِّ (ﷺ) قالوا: اللَّهم اغفر له وارحمه، قال: ثُمَّ أخذَ الرَّاية عبد اللهِ بن رواحة، فأُصيبَ، فقُتلَ، فاستغفروا له، قالوا: اللهم اغفر له وارحمه، قال: ثُمَّ أخذَ الرَّاية سيفٌ من سيوف الله مسلولٌ ففتح عليه.. يعني انسحب بالجيش سالمًا..

ثُمَّ بعدها، مضى النَّبيُّ (ﷺ) إلى بيت جعفر، ليُصبِّرَ أهله ويرى أولاده الأيتام الذين كانوا مُتعلِّقين بأبيهم أشدَّ التَّعلُّق.. أطفالٌ صغارٌ أيتامٌ كانوا مع أبيهم سنوات طويلة في الحبشة يُصبحون ويُمسون في حضنِه،

يُلاعبهم ويلاعِبونه، يُؤاكِلُهم ويُؤاكِلُونه، يُشارِبُهم ويُشارِبُونَه، طالما ضحك إليهم وضحكوا إليه، وطالما قبَّلَهُم وقبَّلوه، طالما مسحَ دموعهم بيده، وطالما لاعبهم ولاطفهم، طالما ضمَّهم لصدره وشمَّهم، وإذا به شابٌّ لم يجاوز عمره الثَّلاثين ويموت ويُقتل في سبيل الله..

مضى (عليه الصَّلاة والسَّلام) حتى دَخَلَ بيت جعفر، واستأذن فأُذِنَ له، وضعت أسماء على نفسها حجابها، وأَذِنَتْ، فدخل النَّبيُّ (ﷺ).. قال: ادعي لي بنيّ أخي.. قالت: فدعوتهم له، كأَنَّهم أفراخ، قالت: فلما رأوا النَّبيَّ (ﷺ)، أقبلوا إليه يضمُّونَه ويقبِّلُونَه، يظنونه للوهلة الأولى أباهم جعفر، تقول وقد كنت زيَّنْتُهم ونظَّفْتُهم، وعجنت عجيني نترقَّب رجوع جعفر، وكان الأطفال فعلاً يترقَّبون.. متى يأتي أبونا؟.. متى يرجع؟.. يا أمي لماذا تطبخين الطعام؟.. قالت من أجل أبوكم إذا جاء يأكل معنا، لماذا تغسلين؟.. قالت حتى إذا جاء أبوكم يراكم في هيئةٍ حسنةٍ.. فأقبل الأطفال للرَّسول (ﷺ) يقبِّلُونه ويضمُّونَه، فجعلَ النَّبيُّ (ﷺ) يضمُّهُم ويشمُّهُم وهو يبكي ويبكي، فقالت له أسماء: يا رسول الله، أبلغك عن جعفر شيءٌ؟، فسكت.. قالت: أبلغك عن جعفر شيء؟.. قال: قُتل جعفر.. قالت: يا رسول الله يُتِّمَ بنوه؟.. قال (ﷺ): آلعيلة تخافين عليهم؟، أنا وليُّهُم في الدُّنيا والآخرة.. قالها وهو يبكي، ثم خرج (ﷺ) وهو يقول: ابعثوا لآل جعفر طعامًا فإنَّهم أتاهم ما يشغلُهُم..

بطولة امرأة

سنتكلم اليوم عن بطولاتٍ من نَوعٍ آخر.. ليست بطولاتٍ لخالد بن الوليد، ولا بطولاتٍ لعمر بن الخطّاب ولا لأبي بكر ولا لعليٍّ ولا لعثمان، ليست بطولاتٍ أيضًا لحبيبنا وسيِّدنا رسول الله (ﷺ).. سننتقل إلى بطولة امرأة من النِّساء، عَمِلَتْ في خدمة الدِّين ودعوة النَّاس إلى عبادة رب العالمين.. عَمِلَتْ أعمالاً فات أنْ يعملها كثيرٌ من الرِّجال، وبالمناسبة المرأة لها تأثيرٌ في الإسلام لا يقلُّ عن الرَّجل.. أوَّل من شَرِبَ من ماء زمزم، وطاف بين الصَّفا والمروة، هي امرأة (هاجر أمُّ إسماعيل).. أول مَنْ آمن بالنَّبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام، امرأةٌ وليس رجلاً، وهي خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ، وأوَّل دم سُفِكَ

في سبيل الله كان دم امرأةٍ (سُميَّة بنت خيَّاط أمُّ عمَّار بن ياسر)..

سنتحدث عن امرأةٍ لها ثِقَلُها في الإسلام من نواحٍ مُتعدِّدةٍ.. إنْ أردتَ جهادًا.. إنْ أردتَ تعليمًا.. إنْ أردتَ دعوةً.. إنْ أردتَ ذكاءً وتربيةً لأولادها، وجدت من كلٍّ ذلك عجبًا.. تعالوا نجلس مع أمِّ سليم..

أم سليم رضي الله عنها هي الرُّوميساء (أو الرُّميصاء).. قال عنها النَّبيُّ (ﷺ): «دخلتُ الجنَّة فرأيتُ الرُّوميساء» [رواه البُخاريُّ].. يعني في الجنَّة..

أم سليم هي زوجة مالك بن النَّضر، وكانت في المدينة مع قومها، وكانت امرأة في شبابها ليس عندها ولدٌ إلا أنس بن مالك بن النَّضر، لما أقبل النَّبيُّ (ﷺ) إلى المدينة، أرادت أم سليم أنْ تُسْلِمَ وتدخل الإسلام، فأبى عليها زوجها، وقال: بل نذهب إلى الشَّام ونهرب من المدينة ونعيش عند النَّصارى ونتنصر، فقالت: وما الذي يمنعك أنْ تدخل في الإسلام، وتترك عبادة الأصنام؟، أنت الآن تعبد صنمًا لا ينفَعُك ولا يضرُّك ولا يُغني عنك شيئًا.. أنت الآن إنْ تدعُ هذا الصنم لا يسمع دعاءك، وإنْ تستغث به لا يُغيثكَ، كيف تأتي إلى صنم وحجرٍ وتتقرَّب إليه وتتعبَّد له وتطوف عليه؟!!، هذه الأصنام التي بينَ يدَيْك لا تضرُّكَ ولا تنفَعُك.. اعبد الله وحده لا شريك له.. فلم يلتفت إليها زوجها وطلَّقها وسافر إلى الشَّام..

هاجر النَّبيُّ (ﷺ) إلى المدينة، وتمكَّن له الإسلام، فأقبلَتْ إليه أمُّ

سليم، فقالت: يا رسول الله هذا أنسٌ عمره تسعُ سنواتٍ يخدِمُك يا رسول الله.. اقبل منِّي يا رسول الله، فأنا لا أستطيع أنْ أجاهد معكم، وما عندي مالٌ، وهذا ابني أنس.. أم سليم ذكيَّةٌ، وهي تريد من وراء ذلك أنْ يتولَّى النَّبيُّ (ﷺ) تربية أنس، وهو عمره تسع سنواتٍ فيتعلَّم من النَّبيِّ (ﷺ).. كان النَّبيُّ (ﷺ) يأكل يومًا.. يقول عمرو بن سلمة كنت غلامًا بين يدَيْه (عليه الصَّلاة والسَّلام)، وكانت يدي تطيش في الصَّحفة، فقال النَّبيُّ (ﷺ) لي: «يا غلام سمِّ اللهِ وكُلْ بيمينِكَ وكُلْ ممَّا يليك» [رواه البخاريُّ ومسلم]، فكان النَّبيُّ (ﷺ) يُربِّي مَنْ تحت يده من النَّاس، وأمُّ سليم تقول: يا رسول الله هذا أنس أريدك أنْ تربِّيه أيضًا.. وكانت تريد أيضًا أنْ يكون حلقةَ وصلٍ ما بين أسرتها وأسرة النَّبيِّ (ﷺ)، وأيضًا أرادَتْ أنْ ينقُلَ إليها سُنَنَ النَّبيّ (ﷺ) في بيته.. يقول: يا أُمِّي الرَّسول (ﷺ) لمَّا يأكُل يأكُل بيمينه.. يا أُمِّي النَّبيُّ (ﷺ) قام يُصلِّي وقرأ السُّورة الفلانيَّة، وهكذا، فهي تُريد أنْ تتعلَّمَ السُّننَ من خلال ولدها أنسٍ..

وقَبِلَ النَّبيُّ (ﷺ) أنسًا، وصار أنسٌ يخدمُ النَّبيُّ (ﷺ)، وله في ذلك قصصٌ وأخبارٌ..

أبو طلحة عَلِمَ أنَّ أمَّ سَليم أصبحَتْ عزباء لا زوج لها، وكان أبو طلحة رجلاً غنيًّا، ولكنَّه لم يدخُلْ في الإسلام بعد، وكان من أكثر أهل المدينة مالاً.. عنده الصَّفراء والبيضاء والذَّهب والفضَّة ومزارعَ ودوابّ، فأقبل إليها خاطبًا، فقالت له: يا أبا طلحة.. إنِّي

فيكَ لراغبة، ولكن يمنعني مِنك شيءٌ، قال: ما يمنعك منِّي؟.. أُعطيكِ الصَّفراء والبيضاء وأُعطيكِ الذَّهب والفضَّة مهرًا، قالت: لا.. يمنَعُنِي مِنك أنَّني مسلمةٌ وأنت كافرٌ.. تُسلم أكن زوجتَك، فقال لها أبو طلحة: يا أمَّ سَليم إنِّي على ديني، فقالت: دينُك هذا صنمٌ تعبُدُه، أَمَا تستحي يا أبا طلحة أنْ تعبد خشبةً نبتَتْ من الأرض ثم نحتها حبشيّ بَني فلان، يعني أنتَ إلهُك الذي تعبُدُه وتلجأ إليه في مضرَّتِكَ وفي فَقْرِكَ ومرضِكَ وحاجتِكَ وتبكي بين يدَيْه، أصلُه خشبةٌ نبتت من الأرض، والعبد الحبشيُّ الذي عند فلان نحتها على شكلٍ مُعيَّنٍ، ثم أتيت أنت لتعبدها، أَمَا تستحي أنْ تعبد خشبةً نبتَتْ من الأرض ونحتها حبشيٌّ بَني فلان.. قال لها: بلى.. ولكن أعطيكِ مهرًا من ذهبٍ وفضَّةٍ ونتزوَّج، قالت: لا.. يا أبا طلحة إنْ دخلتَ في الإسلام، فهذا مهري لا أريد منك شيئًا غيره أبدًا، فأسلَمَ أبو طلحة، وتزوَّج بعدها أمَّ سَليم..

يقولُ الصَّحابة واللهِ ما نعلمُ مهرًا في الإسلام كان خيرًا من مَهرِ أمِّ سَليم.. مهرُها أنْ تدخلَ في الإسلام.. أبو طلحة هذا يقول فيه النَّبيُّ (ﷺ): «لصَوْتَ أبي طلحة في الجيش خيرٌ من فئةٍ تُرعِبُ المُشركين».. إنَّ أبا طلحة كان من المسلمين الذين ثبَتُوا مع النَّبيِّ (ﷺ) في معركة أحدٍ، وذلك أنَّه لَمَّا تفرَّق عنه النَّاس في معركة أحدٍ، كان (عليه الصَّلاة والسَّلام) قد جعل سبعين من الرُّماة على جبلٍ وهو يُقاتل تحت، فالرُّماة لَمَّا لاحظوا أنَّ الكُفَّار قد انهزموا؛ نزَلُوا عن أماكنِهم ليجمعوا الغنائم، فاستولى الكفار

على الجبل، وبدؤوا يرمون النَّبيَّ (ﷺ) وأصحابه، وتراجع النَّبيُّ (ﷺ) وأصحابُه، وصارَ مع النَّبيِّ (ﷺ) عددٌ قليلٌ من الصَّحابة يُقاتلون معه، ومنهم أبو طلحة (رضي الله عنه).. حتى أنَّه لما أقبل أبو بكر إلى النَّبيِّ (ﷺ)، كان أبو طلحة قد أصابه الكثير من السِّهام، والنَّبيُّ (ﷺ) أيضا كان يقاتلُ، فقال النَّبيُّ (ﷺ): «دونكم أخاكم، فقد أَوْجَبَ».. أي قد أَوْجَبَ دخول الجنَّة بعمله.. قالوا: فأقبلوا إليه فحملوه وبه جراحاتٌ.. أبو طلحة (رضي الله عنه) كان من أفاضل الصَّحابة..

أُمُّ سَليم اهتدى على يدَيْها أبو طلحة، أُمُّ سَليم أيضًا كانت مع النَّبيِّ (ﷺ) تحرصُ أنْ تتَّبع سُنَّتَه، وكانت حريصة أنْ يكون لها تأثيرٌ في الإسلام ودورٌ في كلِّ لحظةٍ.. لمَّا كان المسلمون يحفرون الخندق، وأصابهم ما أصابهم من الجوع والتَّعب، ويحفرون في الأرض، وفي أثناء ذلك كان النَّبيُّ (ﷺ) قد ربط بطنه بحجرَيْن، وشدَّ عليهما خرقة، حتى يضغط الحجر على بطنِه حتى لا يُؤلِمَهُ الجوع، فأقبل أبو طلحة على أُمِّ سَليم وقال: يا أُمَّ سَليم.. إني سمعتُ صَوتَ رسولِ الله (ﷺ) ضعيفًا، فهل عندكِ مِنْ شيءٍ؟، قالت: عندي كسرُ خبزٍ وتمرٍ.. قال: نعم، فاصنعي، فخبَزَت الخبز، ووضعت التَّمر، ولفَّته في ثوبٍ وأعطته لولدها أنس، قالت: يا أنس خذ هذا إلى النَّبيِّ (ﷺ) يأكلَه، فمضى أنسٌ إلى النَّبيِّ (ﷺ)، فوجده جالسًا، وأقبل على النَّبيِّ وقال: يا رسول الله (ﷺ) هذا بعثَتْ به إليك أُمُّ سَليم.. فماذا فعل النَّبيُّ (ﷺ)؟ هل أكله وحده؟..

أخذ النَّبيُّ (ﷺ) هذا الخبز وقال لأنس: «عُد به لأُمِّ سَليم»، ثم قام، فقال: «أيُّها النَّاس هلمُّوا إلى الغَداء»، أبو طلحة يعرف المسألة كلَّها خُبْزَتَيْن وتمرٌ، فمَنْ سيغدِّي هذا الخلق، فمضى أبو طلحة يجري إلى أُمِّ سَليم، وقال: «يا أُمَّ سَليم.. جاءك رسولُ اللهِ (ﷺ) بالمهاجرين والأنصار، أُمُّ سَليم مؤمنةٌ.. قالت: الله ورسوله أعلم.. دَخَلَ النَّبيُّ (ﷺ).. استأذن، فأُذِنَ له، وجاء النَّبيُّ (ﷺ)، وأخذ الخبز وقطَّعه مع التَّمر، وأحضرَتْ أُمُّ سليم عكَّةً لها (قِربَةٌ فيها سمنٌ)، وصبَّت عليه من السَّمن، وعجنه النَّبيُّ (ﷺ) بيدِه المُباركة، ثم نفث فيه، وقال: «اللَّهمَّ بارك لنا فيه»، ثم أمرَ النَّاس أنْ يدخلوا ويأكلوا، فجعلَ يدخل العشرة، فيأكلون من الخُبزِ والتَّمرِ والسَّمنِ.. حتى يشبعوا، ويشربوا من الماء، ويخرجوا ويدخل عشرةٌ، ويأكلوا، وأُمُّ سَليم تنظر إلى طعامها.. إلى ثلاث أو أربع خُبْزاتٍ وقليلٍ من التَّمر، وعليها شيءٌ من السَّمن، وتكفي هؤلاء جميعًا، وهي ترى هذه المُعجِزَةَ من معجزاتِ رسولِ اللهِ (ﷺ)..

.

كانت أُمُّ سَليم رضي الله عنها تُحبُّ للنَّبيِّ (ﷺ) كلَّ خير.. لمَّا بَنى النَّبيُّ (ﷺ) بزينب (رضي الله عنها) زوجته أُمّ المؤمنين، لمَّا تزوَّجَها في تلك الليلة، أرادَتْ أُمُّ سَليم أنْ تُرسِلَ إلى النَّبيِّ (ﷺ) هديةً، فماذا تهدي؟.. أَقْبَلَتْ أُمُّ سَليم إلى أقطٍ عندها (لبن مُجفَّف) وجعلَتْ تطحَنُه حتى أصبح مثل البودرة، وأقبلت بخبزٍ وتمرٍ وسمنٍ وعجنته، حتى جَعَلَتْ منه طعامًا لذيذًا، وقالت: يا أنس اذهب به إلى رسولِ اللهِ (ﷺ) هدية في هذه الليلة، وقُل له يا رسولَ اللهِ إنَّ هذا مِنَّا إليك لقليل.. أخذ

أنسٌ الطَّعام، ومضى به إلى النَّبيِّ (ﷺ) ووضَعَهُ بين يدَيْه، وقال: يا رسول اللهِ هذا طعامُ ضيافةٍ أرسلته إليك أُمِّي، وتقول لك يا رسولَ اللهِ إنَّ هذا مِنَّا إليك لقليل، ففتحه النَّبيُّ (ﷺ) وعجبه الأكل، وقال لأنسٍ اذهب وادع فلانًا وفلانًا وفلانًا، يقول أنسٌ لرجالٍ سمَّاهُم النَّبيُّ (ﷺ)، فيقول فذهبتُ ودعوْتَهُم، ثم جئتُ إلى النَّبيِّ (ﷺ)، قال: فجلسوا وأكلوا معه..

يومٌ من الأيَّام، قالت أُمُّ سَليم: يا رسول اللهِ إنَّ لي إليك حاجة، قال: «ما هي؟»، قالت: خادِمُك أنسٌ.. ادع اللهَ لهُ يا رسول الله، فرفع النَّبيُّ (ﷺ) يدَيه وقال: «اللهم أطِلْ عُمْرَهُ وأحسِنْ عملَهُ وأَكْثِرْ مالَهُ وولدَهُ».. ما أجمل هذه الدَّعوة!!.. فليس عمرًا طويلاً على سوء عملٍ، لا.. أَطِلْ عُمْرَهُ واجعل عمله صالحًا، حتى مع طول العمر يزداد قُرْبًا إليك، فيقول أنس: فطالَ عُمري، وكثُرَ مالي وولدي، وحدثتني ابنتي أمينة أنَّه دُفِنَ لي من صلبي أكثر من مائة وعشرين..

أُمُّ سَليم كان لها أنسٌ من زوجها الأوَّل، وكان لها غلامٌ مِنْ أبي طلحة.. غلامٌ صبوحٌ، وكان أبو طلحة يحبُّ هذا الغلام حُبًّا عظيماً، كُلَّما دخل على ولدِه ضمَّهُ إليه وشمَّهُ ولاعبه ولاطفَهُ، والولد ثمرةُ الفؤاد وحبّة القلب ولُبَّةُ النَّفس.. في يومٍ من الأيَّام مَرِضَ هذا الولد، واشتدَّ مَرَضُه، وضاق صدرُ أبي طلحة، ولكن خرج إلى الصَّلاة وإلى النَّبيِّ (ﷺ)، واشتدَّ المرض على الولدِ الصَّغير ومات، فقالت أُمُّ

سَليم: لا تخبروا أبا طلحة حتى أخبره أنا، فرجع أبو طلحة والأُمُّ غطَّت الولد ميِّتًا على حاله، ولم تبك ولا شيء، وتزيَّنَتْ وتطيَّبَتْ وصنَعَت الطَّعام لزوجها، ودخل وبدأ يأكُل ثُمَّ سأل: كيف الغلام، قالتْ: هو أسكنُ ما يكون، ففهم أنَّه مُرتاحٌ تمامًا .. فأكل ثم أصاب منها ما يُصيب الرَّجلُ من امرأته، ثم قالت له: يا أبا طلحة أرأيتَ لو أنَّ قومًا دفعوا عاريةً لهم لقومٍ آخرين، ثم لمَّا جاءوا يُريدون آنيتَهم أَبوا أولئك أنْ يعطوها إيَّاهم.. هل أصابوا أم أخطئوا؟، قال: بل أخطئوا، قالت: إذن احتسب وَلَدَكَ عند الله.. إنَّ ولدَكَ كان عاريةً من الله لَكَ وقد أخذه اللهُ إليه.. فحَزَنَ وغَضَبَ، وقال: تركتني حتى تلطَّخْتُ بما تلطَّخْتُ به، ثُمَّ تُخبريني أنَّ ولدي قد مات؟!، فقالت: قُم، وجهِّز ولدَكَ، فقام إلى وَلَدِه وغسَّله، ثُمَّ صلَّى الفجر خلف النَّبيِّ (ﷺ)، وقدَّم قطعةَ قلبه ليُصلِّي عليه، وإنَّما أولادُنا بيننا أكبادُنا تمشي على الأرض.. فلمَّا صلَّى النَّبيُّ (ﷺ) عليه، اشتكى أبو طلحه لرسول الله (ﷺ) مِنْ فِعْلِ زوجتِه وما حدث منها، فقال (ﷺ): «اللهم بارك لهما في ليلتِهما لأبي طلحة وزوجته»، يقول بعض الرُّواةُ فلقد رأيتُ لأبي طلحة وأُمِّ سَليم سبعةً من الولد لولدهما مِنْ تلك الليلة، كلُّهُم حَفِظوا القرآن..

هذا يدل على تربيَتِها وحرصها، وعلى تشجيع أبي طلحة لها، وعلى أنَّ العزَّ والشَّرف ورفعة الإسلام وإعزاز الدِّين ليس فقط مقرونًا بالرِّجال واللحى والشَّارب؛ بل المرأة المسلمة لها في ذلك نصيبٌ،

ولها في ذلك رايةٌ يُمكِنُها أنْ تنفع الإسلام من خلالها.

أسأل الله أنْ يجمعنا بأُمِّ سَليمٍ ورسول الله (ﷺ) في الجنَّة.. آمين يا ربَّ العالمين..



سفيان الثَّوريُّ.. طريدًا

تعرَّفوا إلى اللهِ في الرَّخاء، يعرفكُم في الشِّدَّة، هكذا أوصى حبيبُنا وسيِّدُنا رسولُ اللهِ (ﷺ)، عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما، قال عبد الله بن عباس: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) يَوْمًا، فَقَالَ: يَا غُلامُ «إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَو اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَو اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ» [الحديث أخرجه الإمام التِّرمذيُّ]، وفي روايةٍ أنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام قال: «تعرَّف إلى اللهِ في الرَّخاء يعرفكَ في الشِّدَّة»..

النَّبيُّ (ﷺ) يُنبِّهُ على أنَّ مَنْ تعرَّف إلى اللهِ في الرَّخاء؛ عَرِفَهُ في الشِّدَّة، نحن اليوم مع قصَّةٍ عجيبةٍ لسُفيان الثَّوريِّ.. كيف تعرَّف إلى اللهِ في رخائِه؟.. كيف وَقَعَتْ لهُ الشِّدَّة؟.. ما قصَّتُه لمَّا ذَهَبَ إلى اليمن؟.. لمَّا اشتغل حارسًا في بعض البساتين؟.. ما هي القصَّةُ العجيبة التي وَقَعَتْ له مع العنب؟.. هذه كلها قَصص سنقفُ عليها إنْ شاء الله تعالى..

سُفيان الثَّوريُّ هو سفيان بن سعيد الثَّوريّ، إمامٌ من الأئمَّة، كان في بغداد، طَلَبَه الخليفة من أجل أنْ يُصبِحَ قاضيًا، وكان السَّلفُ رَحِمَهُم الله في السَّابق يهربون من القَضاء خِشيَةَ أنْ يظلِمَ أحدًا في حكم أو في قضيَّةٍ من القضايا، والأمر كما قال النَّبيُّ (ﷺ): «مَنْ جُعِلَ قاضيًا فقد ذُبِحَ بغير سكِّينٍ» [رواه الترمذيُّ]، وقال (ﷺ): «القضاة ثلاثة قاضيان في النَّار وقاض في الجَّنة» [رواه التِّرمذيُّ].. فهم يخشون من أنْ يكونوا من القاضيَيْن اللَّذَيْن في النَّار.. أنْ يظلمَ النَّاس.. أنْ يتكلَّم بغير علم، أنْ يفصلَ في قضيَّةٍ دون أنْ يُتقِنَها أو يعرف مسائلَها.. السَّلامة لا يعدلها شيءٌ، ومن ثم من البداية يقول: لا أريد أنْ أصبحَ قاضيًا.

دعاه الخليفة أبو جعفر المنصور، وأبو جعفر هو أبو جعفر، شدَّةٌ وغِلظةٌ وصرامةٌ وقوَّةٌ في التَّعامُل، قال له: يا سفيان أُريدُكَ أنْ تصبحَ قاضيًا، قال: يا أمير المؤمنين أنا لا أريدَ أنْ أكون قاضيًا، فقال: بل تصبح قاضيًا، قال: والله لا أصبحَ قاضيًا، قال: يا غلام النَّطعُ والسَّيف، والنَّطعُ هو جلدٌ يُوضعُ مِنْ أجلِ أنْ يُوضع عليه رأس الإنسان ويُضْرَبُ، فقال: أنظرني إلى غدٍ، فقال: نعم لك إلى الغد.. فلما كان من الليلِ رَكِبَ سُفيان الثَّوريُّ دابَّته وفرَّ هاربًا من العراق

كلِّها.. خرج ولا يدري إلى أين يتوجَّه، فقرَّر أنْ يتوجَّه إلى اليمن..

في أثناء الطَّريق إلى اليمن فَنِيَت النَّفقة التي معه، وهم قديمًا كانوا يأخذون معهم نفقةً إذا سافروا، رُبَّما لا تكفيهم بقيَّة سفرهم، وذلك بسبب هو أنَّهم لو معهم مالٌ كثيرٌ لأغرى ذلك قُطَّاع الطَّريق والسُّرَّاق أنْ يأتوا ويقطعوا عليهم الطَّريق ويأخذوا منهم المال، فكانوا يأخذون نفقةً قليلةً من أجل أنْ يستطيعوا بها أنْ يقضوا أسبوعَيْن ثلاثة في السَّفر، وإذا انتَهتْ أجَّروا أنفسهم لأحدٍ، يعني يدخلون إلى بلدٍ ويدخلون إلى سوقٍ في هذا البلد، ويَجْعَل يطوف في السُّوق عند النَّاس.. يشتغل حَّمالاً ويحمل بضائع من مكانٍ إلى مكانٍ في هذا السُّوق، أو مثلاً يشتغل مساعدًا لبائع، أو يشتغل حارسًا على دُكَّانٍ أو بستانٍ، أو بنَّاء، ويجمع مالاً مدَّةَ شهرٍ، ثُمَّ يُكْمِلُ به طريقه.. أجَّر سُفيان الثَّوريُّ نفسه عِند صاحب بستان، وكان أبو جعفر المنصور قد عمَّم على المناطق أنَّ مَنْ قَبَضَ على سُفيان الثَّوريِّ حيًّا أو ميِّتًا فله كذا وكذا، وأجَّر نفسَهُ عند صاحبَ بُستانٍ، وصاحبُ البستانِ ما يدري أنَّه سُفيان الثَّوريُّ..

وفي يوم من الأيام قال له صاحب البستان: «يا غلام تعال، فقال: نعم، قال: أحضر لنا عنبًا حلوًا أنا وضيفي هذا، فأكله فإذا هو حامضٌ، قال: احضر لنا حلوًا، فذهب وتخيَّر، واختار قطْفًا آخرَ، ووضَعَه بين يدَيْه فإذا هو حامضٌ، قال: أما تعرف الحُلو من الحامض؟، قال: لا، والله ما أعرف، قال: عجبا.. لماذا؟، قال: لأنِّي لم آكل من البستان ولا حبَّة عنبٍ، قال: ولماذا؟، قال: لأنَّك لم تأذن لي، وبالتَّالي لا يجوز لي أنْ آكل ذلكَ يُحاسبني اللهُ عليه، فقال له الرَّجل صاحب البستان: يعني كلُّ هذا

ورعٌ وخوفٌ مِنْ الله؟، والله ولو أَنَّك سُفيان الثَّوريُّ، فسُفيان هو سُفيانٌ فعلاً والرَّجل لا يدري عنه، وأخذ سُفيان يسير في هذا البستان بين العِنَبِ والدَّار وسقاء الماء، يمشي بين الدَّواب، يسير في ذلك البستان، وقد منع نفسه أنْ يأكُلَ منه إلا أنْ يأذنَ له صاحب البستان.

مضى صاحب البُستان إلى السُّوق، وجلس مع بعض أصحابه والنَّاس يمرُّون بين يدَيْه ذاهبين وآيبين، وهو يتحدَّث مع صاحبه، وقال له في أثناء الكلام: «والله اليوم حصل موقف بيني وبين الغلام الذي يعمل عندي، فقال: ما هو الموقف، فحكى له الموقف، فقال له الرَّجُل: ما صِفة هذا العامل عندك؟، قال شكله كذا ولحيته كذا وشعره أبيضَ وبعضه أسود، وعينه كذا، وبدأ يصفَهُ له، فإذا ذلك الرَّجل يعرف وَصْفَ سُفيان الثوريّ، قال: والله هذا وصف سُفيان الثُّوريّ، فلنقبض عليه ونسلِّمه إلى الخليفة ونأخذ الجائزة، فلمَّا أقبلوا إذا سُفيان قد خرج من البستان ماضيًا إلى اليمن..

دَخَلَ إلى اليمن، ومضى داخلاً إلى سُوقٍ في اليمن يحاول أنْ يشتغل في ذلك السُّوق عاملاً أو حَمَّالاً أو مساعدًا لبائع، يعني عملا شريفا، وهذا حال المؤمن، فالمؤمن القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلَى الله مِنَ المُؤمنِ الضَّعيف، وفي كلٍّ خيرٍ، المُؤمن يعلمُ قَوْلَ النَّبيّ صلوات ربِّي وسلامه عليه: «اليدُ العُليا خيرٌ مِنَ اليَدِ السُّفلى» [رواه التِّرمذيُّ، وقال حديثٌ حسنٌ صحيحٌ]، ويقول عليه الصَّلاة والسَّلام: «لأنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ فَيَأْتِيَ بحُزْمَةِ الْحَطَبِ عَلَى ظَهْرِهِ فَيَبِيعَهَا فَيَكُفَّ اللهُ بِهَا وَجْهَهُ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ» [رواه البخاريُّ]، ولَمَّا أقبل رجلٌ إلى النَّبيِّ (ﷺ)، وقال:

يا رسولَ اللهِ أنا فقيرٌ وما عندي مالٌ، أمره النَّبيُّ (ﷺ) أنْ يُحْضرَ ما عندهُ في البيت، فأحضر نعلاً ووضعه بين يدَي النَّبيِّ (ﷺ)، فأمره النَّبيُّ (ﷺ) أنْ يبيعَ النَّعلَ، فلم يستطع، فنادى النَّبيُّ (ﷺ) على النَّعلِ: «من يشتريها؟»، فاشتراها أحدُ الصَّحابة بدرهمَيْن، وأعطى النَّبيُّ (ﷺ) الدرهمَيْن للرَّجل، وقال: «خُذ درهمًا اشترِ به فأسًا وحبلا، والدِّرهم الثَّاني اشترِ به طعامًا لولدك»، فاشترى الرَّجل الفأس والحبل، وقال النَّبيُّ (ﷺ): «اذهب إلى المكان الفلاني واحتطِب»، فمشى الرَّجلُ إلى الصَّحراء، ونظر إلى هذه الزُّروع وهذا الشَّجر، وجعلَ يضربُ الشَّجرَ بفأسِه ويحتطب، ويجمع الحطب يمينًا ويسارًا ويضمُّه إليه ويحاول أنْ يربطه، والصَّحراء فسيحةٌ، وهذه الزُّروع للجميع، النَّاس شركاءَ في ثلاثٍ: في الماء والكلأ وفي النَّار، فهذا الكلأ هو للنَّاس جميعًا، حتى إذا احتطب أقبلَ على النَّبيِّ (ﷺ)، فقال النَّبيُّ (ﷺ): «من يشتريه؟»، فباعه النَّبيُّ (ﷺ) بدرهم وأعطاه له.. فالآن أصبح عِنْدَكَ رأسُ مالٍ، وعندك الفأس والحبل، وأمره أنْ يفعل كلَّ يومٍ مثل ذلك..

لذلك سُفيان الثَّوريُ يعلمُ أنَّ النَّبيَّ عليه الصَّلاة والسَّلام كَرَّه السُّؤال للنَّاس، فبعضُ النَّاس اليوم مع الأسف تجد أنَّه لا يُكلِّفُ نفسَه أنْ يذهبَ ويتعبَ ويشتغلَ، بل رُبَّما يعتمدُ فقط على أنْ يسألَ النَّاس وعلى أنْ يُذلَّ نفسَه لهم، وقد وقع موقفٌ عجيبٌ لصاحبٍ لي مع إنسانٍ جاء يطلب منه شيئًا، فاقترَحَ عليه اقتراحًا عجيبًا، صاحبي هذا نزل عند مطعمٍ فأقبل إليه إنسانٌ، وقال: أنا فقيرٌ ومسكينٌ.. أرجوك أعطني، وإذا هو نشيطٌ وقويٌّ، فقال له صاحبي: وأنت لماذا لا تشتغل بدلاً مِنْ أنْ

تسألَ النَّاس، قال: «يا أخي أنا ما أحدٌ يشغِّلُني، وأنا ما وجدت شُغلة، وأرجوك ريالَيْن أتعشَّى بهما الليلة، يقول صاحبي فقلت له تعالَ، ثُمَّ فتحتُ حقيبةَ السَّيَّارة من الخلف، وأخرجتُ خِرْقَة، وقلت له: هذه خِرقةٌ، وهذا سطلٌ عبِّئ هذا الدَّلو ماءً وخُذ هذه الخِرْقَة اغسل سيَّارتي، ولنْ أُعطيَكَ ريالَيْن ولا ثلاثة، بل سأعطِيَكَ خمسةَ عشر ريالاً، فقال: يا أخي ما أُريد أنْ أشتغل، أريدك أن تتصدَّقَ عليَّ، فقلت: سبحان الله.. الآن خمسة عشر ريالاً، ومِنْ عَرَقِ جبينِكَ غسيلٌ لهذه السَّيارة، والخِرقة خِرقتي، والدَّلو دَلوي، والماءُ ماءُ اللهِ، وأنتَ مُجرَّد أنْ تغمِسَها وتمسح السَّيَّارة وتأخذ خمسةَ عشر ريالاً، خيرٌ لك من أنْ تسألَ النَّاس، أعطوك أو منعوك، فيقول: فألقى عليَّ خِرقَتي، وذهب..

فالمشكلة يا جماعة أنَّه هو أصلاً ليس عِندَهُ استعدادٌ أنْ يشتغل أو يعمل.. سُفيان الثَّوريُّ رَحمه الله كان يعلم بأنه عندما يعمل فسيحفظ ماءَ وجهه، الرَّسول (ﷺ) يقول: «ما تزال المسألةُ بالرَّجل حتى يَلقى الله وليس في وجهه مُزعة لحم» [رَواه التِّرمذيُّ].. سُفيان دَخَلَ كما يدخُلُ الرِّجال إلى السُّوق، يريدُ أنْ يعملَ، ولا يريدُ إحسانًا، فاتَّهمه بعض النَّاس بالسَّرقة، وقال: والله يا جماعة ما سَرَقْتُ شيئًا، قالوا: بل سرقت، ثم اختلفوا معه، حتى حملوه إلى والي اليمن..

والي اليمن والٍ تابعٌ للخليفة أبي جعفر المنصور، فجيء به إلى والي اليمن، فنظر له الوالي، فإذا به سَمْتُ عُلماء ووجهٌ مُشرقٌ واضحٌ عليه الطَّاعة والعلم، فهذا لا يصلحُ سارقًا، والوالي يُقابِلُ السُّرَّاق والحراميَّة،

وهذا لا ينطبق عليه أنَّه سارقٌ، فقال الوالي للنَّاس: اخرجوا، أنا أحقِّقُ معه، فخرجوا، فقال له الوالي: مَنْ الرَّجل؟، فقال: عبد الله، قال: ما اسمك؟ قال: عبد الله، قال: أقسمتُ عليك أنْ تخبِرَني باسمك، قال: سُفيان، قال: سُفيان بن مَنْ؟، قال: سُفيان بن عبد اللهِ، والوالي الآن واقفٌ في قصرِه، وسُفيانٌ بين يدَيْه يُحاول وهو معه في ذلك القصر أنْ يستخرج منه المعلومات، سُفيان قد ترك أهلَهُ وهَجَرَ بلدَهُ هربًا من أنْ يُبتلى في دينِه، فإذا به فرَّ من الموت وفي الموت وقع، فرَّ من الخلاف مع أصحاب السُّوق، وإذا به يقع مع هذا الرَّجل، مع الوالي..

حاول الوالي.. ما اسمك.. ما اسمك، قال: ما اسمُ أبيك؟ قال: عبد الله، قال: أقسمت عليك أنْ تُخبِرَني باسمك وباسم أبيك.. قال: سُفيان بن سعيد، قال: الثَّوريُّ؟، قال: الثَّوريُّ.. قال: أنت سُفيان بن سعيد الثَّوريُّ.. أنت الشَّيخُ العالمُ؟، قال: نعم.. قال: أنت بُغية أمير المؤمنين؟، قال: نعم، قال: أنت الذي جعل فيك الجائزة لمن قَبَضَ عليك؟، قال: نعم.. فسَكَتَ الوالي، ثُمَّ خَفَضَ رأسَهُ ورفعها، وقال: يا أبا سعيد، أَقِم كيف شئت في اليمن، وارحل متى شئت، فواللهِ لو كُنْتَ مُختبئًا تحت قدميَّ ما رفعتُها عنك..

تعرَّف إلى اللهِ في الرَّخاء، يعرفكَ في الشِّدَّة، تعرَّف إلى اللهِ في الرَّخاء، في حال صحَّتِكَ، يعرفكَ اللهُ تعالى في حال مَرَضِكَ، تعرَّف إلى الله في حال غِناك، يعرفكَ اللهُ في فَقْرِكَ، تعرَّف إلى اللهِ في حال قوَّتك، يعرفكَ اللهُ في حال ضَعْفِكَ، تعرَّف إلى اللهِ في حالِ حُرِّيَّتك، يعرِفكَ اللهُ في حال سَجْنِكَ، تعرَّف إلى اللهِ في حالِ نَسَبِكَ ورِفْعَتِكَ، يعرفكَ اللهُ عند وَضْعِكَ

وعند ذِلَّتك.. تعرَّف إلى اللهِ في الرَّخاء، يعرفك في الشِّدَّة، قال: والله لو كنت مختبئًا تحت قدميَّ ما رفعتُها عَنْكَ.. فخرج سُفيان الثَّوريُّ، ولم يَطِبْ له المُقام في اليمن، وذهب إلى مكَّة..

سَمِعَ أبو جعفر المنصور أنَّ سُفيان الثَّوريُّ في الحرم، وكان على إقبال أيَّام الحَجِّ، فمباشرة أرسلَ مِنْ عِندَهُ الجنود، وقال اقبضوا على سُفيان الثَّوريِّ في الحرم، كلُّ هذا حتى يتولَّى القضاء غصبًا عنه، قال: اقبضوا عليه وعلِّقوه على الخشب حتى آتي أنا وأقتُلُه بنفسي، فذَهَبَ الجنود إلى الحرم، وجعلُوا يُنادون: مَن يدلُّنَا على سُفيان الثَّوريِّ؟، من يدلُّ على سُفيان؟، وأبو جعفر قادمٌ في الطَّريق إلى مكَّة، عندها قام سُفيان ورفع يدَيْه وتوجَّه إلى القِبْلَة ورفع يدَيْه، قال: اللهم أسأُلُكَ، أقسمتُ عليك ألا يدخُلُها أبو جعفر، يا ربُّ لا يدخل مكَّة، فهذا ظَلَمَنِي وظَلَمَ النَّاس، يا ربّ لا يدخُلُ أبو جعفر مكَّة.. والنَّبيُّ (ﷺ) يقول: «إنَّ من عبادِ اللهِ من إذا أقسمَ على اللهِ لأبرَّه» [مُتَّفقٌ عليه]، ويقول (ﷺ): رُبَّ أشعث أغبر ذي طمرَيْن، فتراه فقيرًا مُعدمًا رث الهيئة باليَ الثِّياب مُحقَّرا بين النَّاس، تراه يذهبُ يمينًا ويسارًا في الطَّريق، والنَّاسُ ينظرون إليه مُحتقرين له، يقول عليه الصَّلاة والسَّلام: «رُبَّ أشعث أغبر ذي طمرَيْن لا يؤبه له لو اقسم على اللهِ لأبرَّهُ» أي يلبس الثَّوب الأوَّل وفيه خروقٌ، ويلبسُ الثَّوبَ الثَّاني أيضًا وهو مُخرَّقٌ ولكن خروق هذا يسدُّها بالثَّاني.. ورفع سُفيان يدَيْه: «لا يدخلها أبو جعفر، وإذا بملائكةِ السَّماء تهبطُ على أبي جعفر على أبواب مكَّةِ، وتقبض رُوحَه، ويدخُل أبو جعفر مكَّةَ في جنازةٍ، ويُصلَّى عليه في الحَرَمِ..

تعرَّف إلى اللهِ في الرَّخاءِ، يَعرفْكَ في الشِّدَّة.. أسأل اللهَ تعالى أنْ يجعلَنا مِمَّن يتعرَّفون إلى اللهِ تعالى في الرَّخاء والشِّدَّة، واسألُ اللهَ جلَّ وعلا أنْ يرزُقَنا وإيَّاكم العظة والعبرة.. ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [سُورة يُوسُف- الآية ١١١].



أطِبْ مَطْعمك

سألُ رجلٌ سُفيانَ الثَّوريّ (رحمه الله تعالى)، قال: يا إمام، أيُّهما أفضل؛ أنْ أصلِّي في يمينِ الصَّفِّ الأوَّل أم في يسار الصَّفِّ الأوَّل؟، قال له: انظر كسرةَ الخُبز التي تأكلها مِن حلالٍ أم مِن حرامٍ، وما يضرُّك صلَّيت في أيِّ صفٍّ.. يقول أنت أحيانًا تُدقِّق أُصلِّي أين، وأنت واقعٌ أحيانًا فيما يمنع عبادتك مِن القبول، كما قال النَّبيُّ (ﷺ): أتدرون مَن المفلس؟، قالوا: المُفلس فينا مَن لا درهمَ عنده ولا دينار، فقال (ﷺ): المُفلس مِن أُمَّتي مَن يأتي يوم القيامة بصلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ، ولكن يأتي وقد شَتَمَ هذا وضَرَبَ هذا وأَكَل مال هذا- يعني ينبت جسده مِن سحتٍ- قال: وأكل مال هذا؛ فيأخذ هذا مِن حسناته وهذا من حسناته.. الحديث

[رواه البُخاريُّ].. فيقول له سفيانُ الثَّوريُّ: ما الفائدة أنْ تصلي في الصَّف الأوَّل وأنت ربما تأكل حقوق الناس، أَطِبْ مَطْعَمَك..

تعالوا نتكلَّم اليوم عن مَواطِن السَّلف في هذا، نتكلَّم عن أنَّ سرًّا مِن أسرار إجابة الدُّعاء، أنْ يكون المطعم طيِّبًا.. وفي ذلك قَصَصٌ وأخبار..

قال النَّبيُّ (ﷺ): إنَّ الله طيِّبٌ لا يقبل إلا طيِّبًا، وإنَّ الله أمر المؤمنين بما أمر به المُرسلين، فقال جلَّ وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [سورة المؤمنون- من الآية ٥١]، فقدَّم اللهُ تعالى في هذه الآية الأكل مِن الطَّيِّبات على العمل الصَّالح، أي قبل أنْ تحرص على أنْ تُصلِّي وتصوم النَّهار وتبكي في الأسحار وتقرأ القرآن؛ كُلْ مِن الطَّيِّبات، لذلك اللهُ تعالى يقول يا أَيُّها الرُّسُل، نعم يا ربِّي، بماذا تأمر رُسُلَك؟، ﴿كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾، ثُمَّ قال: ﴿وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾، قبل أنْ تعمَلَ الصَّالح؛ احرص أنْ تأكُلَ طيِّبًا، حتى لا تعمل الصَّالح ثُمَّ يذهب عنك هذا العمل الصَّالح بأكلك المالِ الحرام، قال: ﴿كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾..

ثُمَّ ذَكَرَ النَّبيُّ (ﷺ) مثالاً، ذَكَرَ الرَّجُل يُطيل السَّفر أشعث أغبر يمدُّ يدَيْه إلى السَّماء يا ربي.. يا ربي، قال (عليه الصَّلاة والسَّلام): «ومطعَمُه حرامٌ ومشرَبُه حرامٌ وملبَسُه حرامٌ وغُذِّيَ بالحرام فأنَّى يُستجاب لذلك؟» [رواه البُخاريُّ]

أبو المعالي الجويني، إمام الحرمَيْن، إمامٌ مِن الأئمَّة، كان عَلَمًا بارزًا في

المُناظرة، عنده دائمًا مِن الذَّكاء ما يستطيع أنْ يُسكِتَ به خَصْمَه.. لما وُلد كان أبوه رجلاً صالحًا، وكان على فقره وعلى مسكنته؛ يحرصُ على ألا تأكل امرأتُه ولا يُحضَر إلى بيته إلا الطَّعام الحلال ومِن الكسب الحلال، فكان يقول لامرأتِه: انتبهي، لا يُرضِعُ ولدي إلا أنتِ، فأنا أعلم أنَّ اللبن الذي ترضعينه من طعام حلال؛ لأنِّي أنا الذي أحضره، فانتبهي، لا يُرضع ولدي إلا أنتِ، حتى لا يُغذَّى الولد إلا بالحلال.

في يوم مِن الأيام جاءتهم جارةٌ زائرةً لبيتهم، فلمَّا دخلَت الزَّوجة لتُحْضرَ لها ضيافةً؛ بكى الصَّغير، فأخذته الجارة، وكانت مرضعةً، أخذته الجارة وألقمته ثديها، وكانوا يتساهلون في مثل ذلك، الرَّضعة والرَّضعتين ما لم تصل الخمس، فأقبلت الأم، فإذا هذه الجارة تُرضعه فجذبته منها، وعاتبتها، وقالت: إنَّ أباه قد أبى عليَّ ذلك، ويقول إنَّه يثق فيما يطعمني حتى لا يشرب ولدي لبنًا إلا حلالا، لكن لا يثق في غيري. كبر أبو المعالي الجويني وصار مِن العلماء، يقولون فكان أحيانا أثناء المُناظرة يُرتجُّ عليه، أيْ يُغلَق عليه أثناء الحوار (يتلخبط)، فكان يسكت ويقول هذا مِن تلك الشَّربة المشئومة، فدلَّ هذا على أنَّ الكسب الحلال فعلاً يؤثِّرُ في الإنسان ويؤثِّر في ذكائِه، ويؤثِّر في علمه وخُطاه ويؤثِّر في إيمانه وصلاته، الإنسان أحيانًا كما قال سُفيان يحرص على الصَّفِّ الأوَّل وعلى يمنيه أو يساره، فيقول فانظر إلى كِسْرَتِك، مِن أين تأكلها؛ مِن حلالٍ أم مِن حرام.

دخل نبيُّنا وسيِّدُنا رسولُ اللهِ (ﷺ) يومًا إلى بيته، فوجد على فراشِه تمرةً، وكان (ﷺ) جائعًا، فرفعها (ﷺ) إلى فِيه، ثُمَّ لَمَّا كاد أنْ يأكُلَها،

قال: والله لولا أنِّي أخشى أنَّها مِن تمر الصَّدقة لأكلتُها، ثُمَّ أمرَ (ﷺ) أنْ يتصدَّق بها [رواه البُخاريُّ].. ولما جُمع بين يدَيْه (ﷺ) صدقاتٌ، وأقبل الحسن أو الحسين (رضي الله عنهما) وأخذ تمرةً ووضعها في فمِه مِن الصَّدقة، أقبل عليه النَّبيُّ (عليه الصَّلاة والسَّلام)، ووضع يده في فمه وأخرجها وهو يقول: كِخ.. كِخ، ثُمَّ أخرجها في يدِه ومسحها النَّبيُّ (ﷺ)، ووضعها، وقال: أما علمت أنَّها مِن صدقةٍ، وأنها لا تحلُّ لمُحَمَّدٍ ولا آل مُحَمَّدٍ [رواه البخاريُّ].. دلَّ هذا على أنَّه (صلوات ربِّي وسلامه عليه) كان حريصًا جدًّا على ألا يأكُل إلا مِن حلالٍ.

أقبل مرَّة سعد بن أبي وقَّاص إلى النَّبي (ﷺ)، وقال: يا رسول الله، ادع اللهَ أنْ يَجْعَلَني مُستجابَ الدَّعوة، كان النَّبيُّ قادرًا أنْ يرفع يدَيْه، ويقول: اللهم اجعل سعدًا مُستجابَ الدَّعوة، ولكنَّه كان (ﷺ) يعلِّمُ أصحابه، ما يُعطيهم الشَّيء جاهزًا، ولكن يُعلِّمهُم كيف يفعلون، فقال: يا سعد، أَطِبْ مطعَمَك تكُنْ مُستجابَ الدَّعوة [رواه البخاريُّ].. المشكلة ليست في الدَّعوة، ولكن فيك؛ أَطِبْ مَطْعَمَك؛ تكُن مُستجاب الدَّعوة، فكان سعدٌ بعدها لا يأكل إلا حلالاً، حتى ذكروا أنَّه كان عنده في البيت داجنٌ يشربون مِن لبنها كلَّ يومٍ، هذه المعزة، يوما مِن الأيام دخلت مزرعةً لجارهم فيها أعشابٌ وقمحٌ وشَعيرٌ، دخلت إليها هذه المعزة وأخذتْ ترعى وتأكل مِن هذا العُشب، حتى شَبعَتْ هذه المعزة مِن كَثرة ما أَكَلَتْ مِن هذه المزرعة، ثُمَّ عادَتْ إليهم، فلمَّا عَلِمَ سعدٌ أنَّها أَكَلَتْ مِن مزرعة جيرانهم مِن غير إذنهم؛ امتنع أنْ يشرَبَ مِن لبنها إلى أنْ مات؛ خوفًا مِن أنْ يكون هذا اللبن تكوَّن مِن فعل ذلك العُشب

الذي أكلته في ذلك اليوم.. فكان سعدٌ مُستجاب الدَّعوة..

عيَّنه عمر (رضي الله عنه) على بلدانٍ في العراق، فوقع بين أهل هذه البلاد وسعد أميرهم شيءٌ، فكتبوا إلى عمر أنَّ سعدًا فيه كذا وكذا، فأراد عمر (رضي الله عنه) أن يتأكَّد مِن الأخبار قبل أنْ يتخذ فيها قرارات، فليس أوَّل خطابٍ يُقال فيه إنَّ سعدًا فَعَلَ كذا وكذا فافصلوه أو افعلوا فيه، لا.. تأكَّد مِن الخبر مثلما جاء الهدهد إلى سليمان وقال: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤)﴾ [سورة النَّمل] .. فماذا قال سليمان؟، لَم يقُل مباشرةً هيَّا يا جيش اهجموا عليهم وهدِّموا عليهم بيوتهم وافعلوا، بل ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧)﴾ [سورة النَّمل].. وهذا هو المنهج الشَّرعيُّ؛ لذلك النَّبيُّ (عليه الصَّلاة والسَّلام) كان يقرأ على أصحابه قولَه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [سورة الحجرات: من الآية ٦].. يجب أنْ تتبيَّنوا، فليستُ المسألة أنْ تطيروا مع كلِّ خبرٍ..

فأرسل عمر (رضي الله عنه) رسولاً، قال: أريدك أنْ تسألَ أهلُ العراق عن سعدٍ، مضى الرَّسول حتى وصل إلى سعدٍ وأخبره، وقال: يا سعد حتى أسألَ النَّاس سأذهب وأصلِّي في عدَّة مساجد وأسألهم عنك، قُم معي، فيأتي المسجد ويصلِّي مثلاً الظُّهر، ويقول بعد الصَّلاة: أيُّها النَّاس أنا جئتكم مِن عند عمر بن الخطاب، وصله كذا وكذا، إنْ كانت لكم ملاحظةٌ على أميركم قوموا وتكلَّموا، فكان النَّاس يُثنون خيرًا، حتى

وصلوا لمسجدِ لبني أسدٍ، فحصل في هذا المسجد شيءٌ أزعج سعدًا، وجعله يرفع يدَيْه إلى الله داعيًا..

وصل هذا الرَّسول مع سعدٍ إلى هذا المسجد، صلُّوا فيه إحدى الصَّلوات، وقام الرَّسول، وقال: أيُّها النَّاس أنا جئتكم من عند عمر، وصله كذا وكذا، أنتم لكم ملاحظةٌ على أميركم أم لا؟، أثنوا عليه خيرًا، قالوا: خَيْرُ أمير، وآخرٌ يقول هذا صاحب رسول اللهِ (ﷺ)، لنا الشرف أن يكون أميرنا، والثَّالث.. وأخذ الرَّسول يقول هل عندكم غير هذا الكلام؟، والنَّاس قد جلسوا يستمعون إليه، ولما أراد الرَّسول أنْ يعودَ إلى عمر، وكلُّ النَّاس يُثنون، قال: أسألكم بالله هل عندكم غير هذا الكلام؟، فقام رجلٌ مِن آخر القوم، قال: أمَا إنْ سألتنا باللهِ فلابد أنْ نصدُقَك، فقال: ما عندك؟ قال: أما إنَّ سعدك لا يَقْسِمُ بالسَّويَّة، ولا يَعْدِلُ في القضيَّة، ولا يخْرُجُ في السَّريَّة.. ما يَقْسِمُ بيننا بالتَّساوي، ولا يعدل في القضايا التي بيننا، تكون بيننا قضايا فيحكم لهذا على هذا ميلاً وعدوانًا، ثُمَّ إنَّ سعدًا جبانٌ لا يخرج في السَّريَّة، نحن نخرج نقاتل وهو جالسٌ..

هل هذا يُقال عن سعدٍ؟، وسعد بن أبي وقَّاص هو الصَّحابيُّ الوحيد الذي قال له النَّبيُّ (ﷺ) في معركةِ أُحد، لَمَّا بدأ النَّبيُّ (ﷺ) مع أصحابه يرمون بعدما تفرَّق النَّاس واضطربوا، وصار النَّبيُّ (ﷺ) يحاول أنْ يَصْعَدَ على جبل أُحُد، وهو جبلٌ عظيمٌ في المدينة فيه مِن الصُّخور العظيمة ومِن الكهوف والمداخل، فكان النَّبيُّ (ﷺ) يصعد للجبل حتى يجد مكانًا آمنًا أثناء المعركة والنَّاس في قتالٍ، فجعل سعدٌ

(﵁) يرمي، فقال له النَّبيُّ (ﷺ): ارم سعدًا فِداك أبي وأمي [رواه البُخاريُّ]، الصَّحابيُّ الوحيد الذي قال له فِداك أبي وأمي هو سعد، وأنت تقول سعد جبانٌ لا يخرج في السَّريَّة؟..

نظَرَ إليه سعدٌ وعَلِمَ أنَّه ظالمٌ له، وسعدٌ كان قد أطاب مطعمه فرفَعَ يدَيْه، وانظر إلى عدله في الدُّعاء، قال: اللهُمَّ إنْ كان عبدُك هذا قام رياءً وسمعةً، اللَّهُمَّ فأطِلْ عمُرَه وأدِمْ فقرَه وعرِّضه للفِتَن، ثُمَّ خَرَجَ سعدٌ، بيني وبينك، اللهُ الذي يعلم سرِّي ويعلم سرَّك، ويعلم ماضيَّ ويعلم ماضيك، بيني وبينك، الله حسبي، اللهُ عليك.. وقال: لا أريد إمارةً ولا شيئًا، ومضى سعدٌ وترك الأمر، ولكن دعوته مازالت تُلاحق هذا الرَّجل؛ لأنَّ سعدًا مات، والله حيٌّ لا يموت، فكان ذلك الرَّجل قد كَبُرَ سِنَّه حتى سقط حاجباه على عينَيْه، واشتدَّ فقرُه، فكان يجلس في الطَّريق يسأل الناس، وكان إذا مرَّت به النساء يبدأ يرفع حاجبَيْه ويلمس النِّساء ويتعرَّض لهُنَّ، فكانوا يقولون له: أما تستحي على وجهك؟!، أما تخجل؟!، أنت رجلٌ وتجلِسُ وَسَطَ الطَّريق على فقرِكَ وتسألُ النَّاس وتشحذُ مِنهم على كِبَرِ سِنِّكَ، ومع ذلك تمرُّ بك النِّساء، تُخْرِجُ يدَكَ وتلمس النِّساء، أما تستحي؟!، لو فعلها شاب لانتقدناه وخاصمناه، فكيف مِن شَيْخٍ كبيرٍ مثلك؟!..

ويقبحُ بالفتى فعلُ التَّصابي ... وأقبحُ منه شَيْخٌ قد تفتَّى

فكان يقول: وماذا أفعل، شيخٌ كبيرٌ مفتون، أصابتني دعوةُ الرَّجل الصَّالح سعد بن أبي وقَّاص.. أَطِبْ مطعمك؛ تكُن مُستجابَ الدَّعوة..

أمرنا ربُّ العالمين بالدُّعاء ووعدنا بالإجابة، وقال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي﴾ [سورة غافر- من الآية ٦٠]، وإذا دعوناك ربَّنا، ما هي النَّتيجة؟؛ ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ..﴾ ؛ وقال جل وعلا: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى﴾ [سورة الأعراف- من الآية ١٨٠]، لماذا أخبرتنا يا ربِّي بأسمائك؟؛ ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾.. قُل يا سميعَ اسمعني، يا قريب قرِّبني، يا غفور اغفر لي، يا شافي اشفني، يا ستِّير استرني، يا غنيّ اغنني.. إذن الله تعالى وعدنا بالإجابة، لكن ليسَت القضيَّة هنا، القضيَّة أيُّها الأفاضل أنَّنا أحيانًا نجعل بيننا وبين استجابة دعائِنا حوائل تحول بيننا وبين ذاك، ومِن أعظمها أَطْبْ مَطْعَمَكَ؛ تكُن مُستجاب الدَّعوة. النَّبيُّ «عليه الصَّلاة والسَّلام» ذَكَرَ الرَّجُل يُطيلُ السَّفر أشعثٌ أغبرٌ يمدُّ يدَيْه للسَّماء.. يا رب.. يا رب.. قال: ومَطْعَمَه حرامٌ، ومَشْرَبُه حرامٌ.. الواحد ربما تعاطى المحرَّمات، ربما تعاطى أُمَّ الخبائث؛ الخمر، ثُمَّ قال: يا أخي ربِّي لا يستجيب لي.. نعم.. لأنَّك تتعاطى الخمر، والنَّبيُّ (ﷺ) يقول: «مَن ماتَ مُدمن خَمْرٍ لَقِيَ اللهَ كعابد وثنٍ» [رواه البُخاريُّ]، ويقول: «مَن شَرِبَ الخمر في الدُّنيا كان حقًّا على اللهِ أنْ يسقِيَه مِن الخَبال يوم القيامة» [رواه مسلمٌ]، عصارةُ أهلِ النَّار، فربما أكلتَ حقوقَ النَّاس بالباطل، عندك عُمَّالٌ ما أعطيتهم رواتِبَهم، خادمةٌ في البيت مسكينةٌ، صار لها فترة ما تأخذ راتِبَها.

أمس استفتاني واحد، يقول: يا شيخ أخي عنده خادمةٌ مِن سبع سنوات ما استلمت راتِبَها، لم يرضَ أنْ يُسفِّرَها لأهلها ولم يصرف راتِبَها، مِن سبع سنواتٍ!!، أليس لها حقٌّ؟!.. يا أخي دخلت امرأةٌ النَّار في هرَّةٍ

حبستها، فما بالك بمَنْ يَظْلِمُ عباد اللهِ مِن النَّاس؟!.. يا أخي لو يهوديٌّ يشتَغِل عندك؛ يجب أنْ تُسدِّدَ له مالَه، فما بالك بغيره؟!..

أطِبْ مطعمك تكُن مُستجابَ الدَّعوة، أنا أقول لأبنائي وبناتي انتبهوا مِن الخمر، انتبهوا مِن التَّدخين، فإنَّه خبائث، ويحلُّ لهم الطَّيِّبات ويُحرِّمُ عليهم الخبائث، انتبهوا مِن السَّرقة والاحتيال على النَّاس، انتبهوا مِن أكل المال الحرام..

أسأل الله تعالى لي ولكم التوفيق والسداد، وأن يجعلني وإياكم مباركين أينما كنا، وأسال الله أن يطيب لنا مطعمنا جميعا..



الأمة تحتاج العصاة أيضا

نحن اليوم في جولةٍ مع رجلٍ ابتُلِيَ بشُرب الخمر، هو أبو مِحْجَن الثَّقفيّ، وبلغ مِن شدَّة تعلُّقه بالخمر أنَّه كَتب في الجاهلية وصيَّته شِعرًا.. يقول فيها لولده:

إذا متُّ فادفنِّي إلى جنب كَرْمَة	يَرْوي عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفنني بالفلاة فإنَّني	أخاف إذا ما متُّ أنْ لا أذوقها

جاء الإسلام ودخل أبو مِحْجَن الثقفي في الإسلام، يشرب خمرًا، ثُمَّ جاء بعد ذلك الحُكم الشَّرعيُّ، قول الله جل وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ

وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ (٩١)﴾ [سورة المائدة].. قال الصحابة: انتهينا ربنا انتهينا، وقال أبو مِحْجَن أيضًا انتهينا ربنا انتهينا، وحُرِّمَت الخمر، فكيف تعامل أبو مِحْجَن مع هذا الحدث؟..

أبو مِحْجَن كان في عهد رسول اللهِ (ﷺ) ربما شرب الخمر أحيانًا فيُجْلَد ويشرب ويُجلد ويشرب ويتصبَّر فترةً، وربما أغواه الشيطان وشرب، لكنه كان مؤمنًا مُصلِّيا، وبالمناسبة النَّبيُّ صلوات ربِّي وسلامه عليه، كان يتعامل مع العُصاة بما عندهم مِن الخير، لا بما عندهم مِن الشَّر، فعندما يكون إنسانٌ يشرب خمرًا فيه خطأ يصل مثلا إلى ٧٠٪، ولكن فيه خير يصل إلى ٣٠٪، والخير هذا عبارة عن حُبِّ اللهِ وحُبِّ رسوله (ﷺ) وحِرْص على الصَّلاة وربما صدقةٌ، أو تربيةٌ لأولاده أو برٌّ بالوالدَيْن، فيكون شُرْب الخمر يمثِّل مِن أخطائه أو مِن حياتِه ٣٠ أو ٤٠ في المائة، فنحن عندما نتعامل معه ينبغي أنْ نُشجِّعَهُ على الخير، لا أنْ نتكلَّم دائمًا كلَّما رأيناه: أنت تشرب الخمر فابتعد عنا، فيكبُر الإثم ويصل إلى مثلاً ٤٥ في المائة، نقابله مرة أخرى.. لا تجالسنا، فيزيد تحمُّسُه للخمر وإصراره عليها إلى ٥٠ في المائة، ولكن كان ينبغي أنْ نقول له: صحيحٌ أنت وقعت في المُنْكَر وشَرِبْت الخمر، ولكن الحمد لله أنت عندك إيمانٌ بإذن الله سيمنعك مِن الخمر، أنت عندك برٌّ والدَيْن وسيُوفِّقُك اللهُ بدعائِهما للتَّوبة مِن الخمر.. أنت عندك صلاةٌ، وصلاتك إنْ شاء الله تنهاك عن الفحشاء والمنكر ومِن أعظمها الخمر، فلمَّا نُشجِّع الخير؛ نبدأ نعصر ذلك الشَّر ونُضيِّقُ عليه..

قبل أن نكمل قصة أبي مِحْجَن، واحدٌ مِن الصحابة كان اسمه عبد الله وكان يُدعى حمارًا، ولم تكن هذه في السَّابقة مسبَّة، فنحن إلى اليوم عندنا أُناسٌ سماه أهلُه صقرًا، وهذا اسمٌ مشهورٌ عند العرب، وهم لا يعنون أنَّك طيرٌ حيوانٌ، ولكن أنت فيك مِن صِفات الصَّقر الشُّموخ والعِزَّة، هناك أناسٌ يُسمَّون اليوم ذئبا، فلا يعني أنَّه مُتوحِّشٌ، وإنَّما تعني القوَّة والشَّجاعة ونحو ذلك، وهم كانوا يُسمُّون بعض النَّاس عندهم حمارًا، يقصدون منه الصَّبْر والجلد، هذا الصَّحابيُّ اسمه عبد الله، وكان يُدعى حمارًا، وكان يحبُّ النَّبيَّ (ﷺ) حُبًّا عظيمًا، وكان يتمنَّى دائمًا أن يهدي إلى النَّبيِّ (ﷺ) الهدايا، ولكن ما كان عنده مالٌ، وكان أحيانًا يدخل الأسواق، والأسواق قديمةٌ، يأتي يتنقَّل بين البائعين، فهذا يبيع ثيابًا وهذا يبيع طعامًا، وهذا يبيع أحذيةً، وهذا يبيع ذهبًا وفضَّةً، فسوقٌ مليءٌ بالنَّاس والرِّجال والنِّساء، يأتي هذا الصَّحابيُّ الفقير يبحث في السُّوق، وينظر في الثِّياب وينظر في الطَّعام.. ينظُر فيُعْجَبُ بشيءٍ مُعيَّنٍ في هذا السُّوق فيشتريه، فيأخذه ويقول له: ألحقني أسدد لك ثمنَه، فيلحقه البائع حتى يصل بيت النَّبيِّ (ﷺ).. يطرق الباب على النَّبيِّ (ﷺ)، ثُمَّ يقول: يا رسول الله خُذ هذا هديَّةٌ، طعامٌ أو ثيابٌ، فالنَّبيُّ (ﷺ) يقبل الهديَّة، فيأخذها منه، ثُمَّ يقول: يا رسول الله ادفع ثمنها لصاحبها، فيقول النَّبيُّ (ﷺ): «ألم تهدها إليَّ؟». يقول: بلى يا رسول الله، ولكن ما عندي قيمتها وأُحِبُّ أنْ أهديَ إليك فادفع قيمتها إلى صاحبها، فيدفع النَّبيُّ (ﷺ) للبائع قيمتها، فكانت علاقة النبي بهذا الرَّجل رائعة، وكان مُحبًّا للنَّبيِّ (ﷺ)، ولكنَّ الرجل كان مُدمن خمر، فكان مدمنًا في الجاهليَّة، وقد امتنعوا عنها، ولكن ربما نفوسهم أحيانًا

ضَعُفَتْ وشَرِبَتْ، وكان يؤتى به دائمًا إلى النَّبيِّ «عليه الصَّلاة والسلام»، يُجلَد ويخرُج، يُقام عليه الحدُّ ويخرُج.. في يوم من الأيام جُلد بين يدي النَّبيِّ (عليه الصَّلاة والسَّلام)، ولمَّا خَرَجَ قال واحدٌ مِن الصَّحابة: لعنه الله ما أكثر ما أُوتي به، يعني هذا ما يتوب مِن الخمر، فقال النَّبيُّ (عليه الصَّلاة والسَّلام) له: لا تلعنه فوالله ما علمت إلا أنَّه يحبُّ الله ورسولَه.. نظر الرَّسولُ (ﷺ) إلى جانب الخَير..

أبو مِحْجَن «رضي الله تعالى عنه» كان صالحًا وتقيًّا، ولكنَّه ربما ذلَّت به القدم أحيانًا وشَرِبَ الخمر.. في يومٍ مِن الأيَّام خَرَجَ مع الصَّحابة مِن أجل الغزو في معركة القادسيَّة.. زعيم الجيش وقائده هو سعد بن أبي وقَّاص (رضي الله عنه).. وصلوا إلى المعركة وطالت المراسلات ما بين سعد بن أبي وقَّاص وبين قائد الفُرس.. طالت المراسلات يومَين وثلاثة.. أربعة.. أسبوعا، فأبو مِحْجَن اشتاق إلى الخمر، فاختبأ في مكانٍ ودبَّر نفسه وشرب خمرًا وقُبِضَ عليه وهو سكران، العقوبة التي عاقبه بها سعد هي أنَّه حبسَهُ وقيَّده في بيتٍ ومنعه مِن دخول المعركة، فما قال أبو مِحْجَن؟ هل قال: أحسن أرحتني مِن القتال؟. لا، أبو مِحْجَن يرى أنَّ مَنْعَهُ مِن دخول المعركة تفويتٌ لأجرٍ عظيم والجهاد في سبيل الله، فثار كثيرًا وقال ليست المسألة راحة، أنا جئت لأُحصِّل أجورًا عظيمة، منعنى منها سعد عقوبةً لأنِّي شربت الخمر، فجلس أبو مِحْجَن مُقيَّدًا في سجنِهِ في هذا البيت، ويسمع صهيل الخيول ورمي الرِّماح وصياح الأبطال والمعركة يضرب بعضهم بعضًا.. معركةٌ عظيمةٌ، وأبو مِحْجَن مسجونٌ في هذا البيت مربوطٌ وحده.. جعل يصيح:

كفى حُزنًا أنْ تدخل الخَيل بالقنى وأُترَكُ مشدودًا عليَّ وثاقي
إذا قُمت عناني الحديد وغُلِّقَتْ مصاريعُ دوني تصمُّ المناديا
يُقَطِّع قلبي حسرةً أنْ أرى الوغى ولا سامعَ صوتي ولا مَن يَرَانيا
وأنْ أشهدَ الإسلام يدعو مُغوِّثا فلا أُنجدَ الإسلام حينَ دعانيا
وقد كنت ذا مالٍ كثيرٍ وإخوة وقد تركوني واحدًا لا أخَ ليا
فللهِ عهدٌ لا أَحيفُ بعهدِه لأنْ فُرِّجْتُ لا أزور الحوانيا!

يقول هذا وهو مسجونٌ مُقيَّدٌ في هذا البيت، وحده لا أنيسَ ولا ونيسَ، ثم جعل يصيح يا أهل الدَّار.. يا أهل الدَّار، يعلم أنَّ البيت الذي هو فيه به نساءٌ، زوجة القائد؛ لأنَّهم كانوا يرحلون بزوجاتهم، فكانوا يغيبون بالسِّتَّة أشهر وأكثر، والقتال ليس أربعا وعشرين ساعة، بل أوقات مُعيَّنةٌ، فجعل يقول يا أهل الدَّار.. يا أهل الدَّار، حتى أجابته سلمى زوجة سعد، فماذا قال لها؟.. وهل اشترك في المعركة أم لم يشترك؟..

نادته سلمى وقالت له: ماذا تريد؟، ظنَّت أنَّه يُريد طعامًا أو شرابًا، قال: يا سلمى أطلقي قيدي وأعطيني سيفي وأعطيني البلقاء فرس سعد، هو يعلم أنَّ سعدًا لم يشترك في القتال، وذلك أنَّ سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه) أثناء مجيئهم للقتال، مع طول ركوب الخيل، أُصيب بتسلُّخاتٍ وقروحٍ بفخذَيْه، فلا يستطيع أنْ يركب الخيل حتى تخف هذه القروح، فكانَ يصعد في أعلى البيت ويرقب المعركة وفرسه مربوطةً بالأسفل، ومع أنَّ سعدًا لم يحضر المعركة لعذرٍ ومرضٍ، ومع ذلك لم يسلم مِن هجاء الشُّعراء المشاركين، حتى قال أحدهم:

وعدنا وقد آمَتْ نساءٌ كثيرةٌ ونِسوة سعدٍ ليس فيهن أيِّمٌ

أي أصبحت النِّساء أراملَ، أمَّا نِسوة سعد فلسن أرامل، فسعدٌ لم يُقاتل حتى يُقتل، فهو يقولها هجاءً لسعد.

قال أبو مِحْجَن: أعطني البلقاء فرس سعد، ولك عليَّ عهد الله وميثاقه إنْ سَلِمْتُ مِن القتل أنْ أعود حتى أضع رجلي في القَيْد ويديَّ في الحديد، ولك عليَّ إنْ مت أنْ تتخلَّصوا منِّي وانتهى الأمر، ففكَّت قيدَه وأعطته البلقاء، وسعد ما يدري؛ فهو مشغولٌ ينظر للمعركة، وركب الأسد على الفرس وانطلق، وهجم على فرسِه ودخل في القتال، وبدأ يقاتل قتال الأشاوس.. يفرُّ به فرسه، مُكرٌّ مُفرٌّ مُقبلٌ مدبرٌ معًا، كجلمود صخرٍ حطَّه السَّيل مِن عل، وجعل يضرب هذا ويدفع هذا ويتلقَّى السَّهم مِن هذا، ويضرب بالرُّمح هذا، والفَرَسُ يذهب يمينًا ويسارًا، والغُبار يعلو.. معركة وهو يُقاتل قتالَ الأبطال، وسعدٌ ينظر إليه من الأعلى فيعجَب، مَن هذا الفارس الذي هَجَم في المعركة، وكان يقول الضَّرب ضربُ أبي مِحْجَن، والكرُّ كرُّ البَلْقَاء، والبَلْقَاء مربوطة وأبو مِحْجَن بالحبس، إذا قلنا هذه البَلْقَاء فكيف ركبها أبو مِحْجَن، وإذا قلنا أبو مِحْجَن، فكيف دبَّر البَلْقَاء؟.. وغابت الشَّمس عليهم وانتهى القتال ورجع كلُّ جيشٍ في مكانه، ورجع أبو مِحْجَن وفيه آثار دماء وملابسه ممزَّقة، فهو ذهب معركةً ولم يذهب لعُرْس، ووضع رجله بالقَيْد والحبس، وأَدْخَل البَلْقَاء إلى مكانها، نزل سعدٌ ونظر إلى البَلْقَاء فإذا هي ترشح عرقًا، فعلم أنَّها دخلت المعركة وأنَّها استُعْمِلَتْ، ونظر إلى أبي مِحْجَن فإذا به آثار قتالٍ، فقال: يا أبا مِحْجَن أقاتلت؟، قال: نعم قاتلت، ولك عليَّ عهدُ اللهِ وميثاقُه ألا أشرب الخمر أبدًا، فقال له سعد: وأنت

لك عليَّ عهدُ الله وميثاقُه ألا أعاقبك أبدًا ما دُمت لا تشرب الخمر..

أصبح أبو مِحْجَن بعد ذلك مِن أعظم المجاهدين؛ لأنَّ الشيطان لم يفلح أنْ يقنع أبا مِحْجَن ويقول كيف تخدم الدِّين وأنت تشرب الخمر، أنت إنسانٌ فاسقٌ تشرب الخمر، كيف تخدم الدِّين، كيف تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وأنت شارب خمرٍ.. لا.. الإنسان ما دام إنَّه مسلمٌ، فإنه مطالبٌ أنْ يقدِّمَ لهذا الدِّين ما يستطيع..

الدِّين يحتاج المؤمن الكامل الإيمان، ويحتاج المؤمن النَّاقص الإيمان، ويحتاج المؤمن العاصي، ويحتاج المؤمن الفاسق، ويحتاج المؤمن أيضًا الواقع في كبائر.. ماذا يمنع واحدا وقع في كبيرةٍ مِن الكبائر، ومع ذلك يبني مسجدًا؟ صحيحٌ هو آثمٌ بكبيرتِه، لكن بناءَه للمسجد فيه قُربى لله تعالى، وهو ببنائِه لهذا المسجد قد يتوب مِن كبيرتِه التي هو عليها.. ما يمنع أنَّ إنسانا ربما كان تاركًا للصَّلاة، ومع ذلك يقول يا فلان لا تشرب الخمر اتَّقِ الله... يا فلان صلِّ اتَّق الله، فما يمنع أنْ يأمرَ بالمعروف وإنْ كان هو مُقصِّرًا.. مَن ذا الذي ما أساء قطّ، ومَن ذا الذي له الحُسنى فقط..

الإنسان مهما وقع في شيءٍ مِن الخطأ، فإنَّه يجب ألا ينسى أنَّه مُخاطبٌ مِن قول الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [سورة النَّحل- من الآية ١٢٥].. أنَّه مخاطبٌ بقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [سورة فُصِّلَتْ- الآية ٣٣].. نحن مخاطبون بجميع النُّصوص مهما كُنَّا عصاةً، وذلك أنَّنا أصلاً

مُسلمون ومُخاطبون بها ونسعى لعلَّ الله تعالى يغفر هذا بهذا..

أقبل رجلٌ يومًا على الحسن البصريِّ، فقال له الحسن: يا رجل أتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟، قال: لا، قال: فلِمَ؟، قال: أخشى أنْ آمرَ بالمعروف ولا أفعله، وأنهى عن المُنكر وأفعله، أنا عِندي أخطاء وعندي معاص، فقال له الحسن البصريُّ: سبحان الله ودَّ الشيطان لو يظفر مِن أحدكم بهذا.. يا رجلَ مَن مِنَّا سليمٌ مِن المعصية والمُخالفة، لكن نعظ ونذكر لعلَّه ينجو بها ناجٍ، وكذلك نحن، فيجب ألا يلعب عليك الشيطان، حتى ولو خرج إنسانٌ مِن بيت معاص وفجور، ووجد فقيرًا يتصدَّق عليه بصدقةٍ، فأنت قد تُؤجر بهذا، قد تقول يا شيخ وأنا شربت الخمر قبل لحظات أو في جنابة فاحشةٍ، ولكن هذا أمرٌ وهذا أمرٌ آخرَ، فكونك عاصيا، فهذا أمرٌ يُحاسبك الله عليك، وكونك تفعل الطاعة فهذا أمرٌ آخر.

النَّبيُّ «صلوات اللهِ وسلامه عليه» عندما كان يخرج للقتال، لم يكن يقول للصحابة لا يخرجِ معنا إلا الطَّاهر المُطهَّر، لا يخرج معي إلا الذي لم يعمل معصيةً قطٍّ، كلا.. فالذين يخرجون معه ليسوا ملائكةً لا يعصون الله ما أَمَرَهُم ويفعلونَ ما يُؤمَرون، بل يعلمُ النَّبيُّ (ﷺ) أنَّ النَّاس هُم مِن بني آدم، وقد كان النَّبيُّ «عليه الصَّلاة والسَّلام يقول: «كُلُّ ابن آدم خطَّاء وخير الخطَّائين التَّوَّابون» [رواه البُخاريُّ].

إذن نتَّفق على هذا، ومَن كان منَّا في مدرسةٍ أو في جامعةٍ ومَن كان مِنَّا له زملاء سواء في شركةٍ أو في مُؤسَّسةٍ، أو ربما تعرَّف عليهم في سفرٍ

أو ما شابه ذلك، الأخوات اللَّاتي يجتمعن أحيانًا، طالباتٌ في الجامعة، أو ربما امرأةٌ خرجَتْ إلى السُّوق، فرأت شيئًا مِن الأخطاء، الأخوات الزَّميلات في مهنةٍ واحدةٍ، كم مرَّة نرى مُنكراتٍ، حتى إنْ كنتِ أنتِ مُتبرِّجة في لباسِك وعندك أنواعٌ مِن المعصية، لا يمنع أنْ تقولي لهذه الأخت يا أخت صحيحٌ أنا مُتبرِّجةٌ وعندي شيءٌ مِن المعصية، لكن مع ذلك لا تتركي الصَّلاة، فإنَّ النَّبيَّ (ﷺ) قال: «بين الرَّجل وبين الكُفر والشِّركِ ترك الصَّلاة» [رواه البخاريُّ]، وقال (ﷺ): «العهدُ الذي بيننا وبينهم الصَّلاة فمَن تركها فقد كفر» [رواه التِّرمذيُّ].. حتى ولو كنت مُتبرِّجَة، ما يمنع أنْ تنصحي تاركة الصَّلاة؟!.. ما يمنع أنْ تنصحي مَن تقع في الفاحشة، أو من يلعب بعقلها شابٌّ؟!.. كلما كان الإنسان آمرًا بالمعروف وناهيًا عن المُنكر وشاعِرًا أنَّه مسلمٌ مخاطبٌ بالنُّصوص الشَّرعيَّة العامَّة؛ كان فعلاً يُعيد عهد الصَّحابة الكِرام.

أبو مِحْجَن مع وقوعه في الخطأ، إلا أنَّه مع ذلك ما احتقر نفسه، قال نعم أنا واقعٌ في خطأٍ، وواقع في كبيرةٍ، ولعب عليَّ الشيطان، لكن لن أفتح للشيطان مجالاً أنْ يسيطرَ عليَّ أكثر، صحيحٌ سيطر عليَّ مرَّةً وجعلني أشرب خمرًا، فلنْ يُسيطر عليَّ أكثر، بل الآن سأخرج وأجاهد في سبيل الله، وبهذا انتصر الدِّين وصار للدِّين أعوانٌ كثيرون لم يُفلحُ الشيطان في تفكيكهم.

أسألُ اللهَ أنْ يستعملنا وإيَّاكم في طاعته، وأنْ يجعلنا وإيَّاكم مُباركين أينما كُنَّا..



كم فوّتنا مِن قراريط!

يتفاوت النَّاس في حرصهم على الدَّرجات العُلا مِن الجنَّة، وقد كان حبيبُنا وسيدُنا رسول اله (ﷺ) يحرص على أنْ يغرس في أصحابه الحِرصَ التَّامَّ على أنْ يبلغَ أحدهم الدَّرجات العاليات مِن الجنَّة، لذلك إذا تأمَّلتُ في أحوالهم صغارًا وكبارًا؛ وجدتُ أنَّ هذا الأمر لا يزال واقعًا في قلوبهم، مِن خلال أسئلتهم، مثلاً يأتي واحدٌ مِن الصَّحابة يقول: يا رسول الله ما أحبُّ الأعمال إلى الله؟.. لاحظ أنَّ الأفعال كلها أفعل تفضيل، ما أحسن، ما أعظم، ما أفضل.. قال: يا رسول الله ما أحبُّ الأعمال إلى الله؟. قال: «الصَّلاة على وقتِها» [رواه البُخاريُّ].. يأتي الثَّاني، يا رسول الله مَن أقربُ النَّاس مِنك مجلسًا يوم القيامة.. هو لم

يقل مَن القريبون، بل قال مَن أقربهم منك.. مَن أقرب النَّاس مِنك مجلسًا يوم القيامة؟. فقال «عليه الصَّلاة والسَّلام: «إنَّ مِن أحبِّكم إليَّ وأقربكم منِّي مَجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا» [رواه البُخاريُّ].. قبل أنْ تبدأ المعركة يأتي الصَّحابيُّ.. يا رسول الله ما يضحك الرَّبُّ مِن عبدِه؟، فيقول عليه الصَّلاة والسَّلام: «أنْ ينغمسَ في العدوِّ حاسرًا» [صحَّحُه ابن حزمٍ]، فيأتي الرَّابع، يا رسول الله ما أفضل الأعمال إلى الله؟.. هذه الهمَّة التي عِند الصَّحابة في طلب الأمور العالية، هي التي جعلتهم مُؤثِّرين.. ومِن أعظم هؤلاء عبد الله بن عمر «رضي الله تعالى عنه».. له قصَّةٌ لطيفةٌ مع صلاة الجنازة..

سمع عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أبا هريرةَ رضي الله عنه يُحدِّث عن رسول اللهِ (ﷺ) أنَّه قال: «مَن صلى على جنازة فله قِيراطٌ» [رواه البُخاريُّ]، والقِيراط مِثل جبل أُحُدٍ مِن الأجر، قال: «ومن تبعها حتى تدفن فلهُ قِيراطان»، والقِيراط مِثلُ جبل أُحدٍ مِن الأجر، فقال له عبد الله بن عمر، وهو أول مرة يسمع هذا الحديث، قال: يا أبا هريرة، ويحك ماذا تقول؟، قال: والله ما أحدِّثُكم إلا بما سمعتُه مِن رسول الله (ﷺ).. أي إذا قدُمَت الجنازة بين النَّاس، وأرادوا أنْ يصلوا عليها، فلك قيراطٌ، ومَن تَبِعَ الجنازة وحملها معهم، أو على الأقل تَبِعها معهم، تُحمل الجنازة على النَّعش، ولا شكَّ أنَّ في ذلك عِبرة وعِظة، ويحملها النَّاس حتى يذهبوا بها إلى المقبرة، ثم يدخلون المقبرة ومعهم هذه الجنازة، جنازةُ هذا المسلم الذي له حقٌّ على النَّاس أنْ يُكرِّموه حتى بعد موته، ثم يصلون بها إلى القبر.. تُنزل الجنازة وقد حفروا القبر ويبدؤون يدفنونها، وكلُّ مَن كان شاهدًا الآن

مِن الذين يدعون ويستغفرون ويُصبِّرون أهل الميت، كل هؤلاء مَن تبعها حتى تُدفن، فله قِيراطان، وانظر إلى رقَّة قلوبهم وإقبال نفوسهم وإلى ما يحصل عندهم مِن العِبرة والعِظة بمثل هذا، فله قِيراطان، عبد الله بن عمر لَمَّا كان أوَّل مرَّةٍ يسمع هذا الحديث، قال لبعض من عنده: اذهب واسأل أُمَّنَا عائشة «رضي الله تعالى عنها»، وعائشة كانت مِن عالمات الصَّحابة، وكانت تحفظ مِن الحديث وتعرِفُ مِن الفِقه، فقال له: اذهب إلى عائشة (رضي الله عنها) واسألها عن هذا الحديث..

يقول: فذهب الرَّجل مِن عند عبد الله بن عمر، وأخذ عبد الله بن عمر حصىً في يده وجعل يُقلِّبها منشغلاً، ينتظر متى سيأتي الرَّجل، هل هو حديثٌ ثابتٌ أم لا؟ فهو أوَّل مرَّةٍ يسمعه، هذا الفضل كيف فاتني طوال هذه السِّنين، ما كنت حريصًا غاية الحرص لأنِّي لم أكن أعرف هذا الحديث، يقول: وجعل عبد الله بن عمر يُقلِّب حصاه في يده.. قال: حتى جاء الرَّجل يقول: قالت عائشة نعم، سمعته من رسول الله (صلى الله عليه وسلم).. قال: فأخذ عبد الله بن عمر الحصاة وضرب بها على الأرض، وقال: سبحان الله كم فوَّتنا مِن قراريط!.

الإنسان إذا كان يتحسَّر على فوات العمل الصَّالح هو الإنسان النَّاجي، يقول سعيد بن عبد العزيز: كنت أحرص على صلاة الجماعة، قال: ففاتتني صلاة الجماعة، فلم يُعزِّني إلا ابن مروان، واحدٌ مِن أصحابه قال: أحسن الله عزاك أنْ فاتتك صلاة الجماعة، قال: ولو مات ولدي لعزَّاني المئات، فكانوا يرون أنَّ فوات صلاة الجماعة أعظم عندهم مِن أنْ يموت أولادهم، بل أيضًا بعض السَّلف لما فاتته صلاة العِشاء في

الجماعة، يقول: خرجت إلى مسجدي، فإذا الصَّلاة قد فاتتني، قال: فذهبت إلى مسجدٍ مجاورٍ، فإذا الصَّلاة قد فاتتني، فذهبت إلى مسجدٍ ثالثٍ، فإذا هم قد صلُّوا، قال: فرجعتُ إلى بيتي وأنا مُتحسِّرٌ كيف يفوتني سبعة وعشرون درجةً؟، قال: فقلت لأصلِّين سبعةً وعشرين مرَّةً.

لقد كان فوات الأجور عندهم ليس شيئًا عاديًّا، ما كان الواحد منهم يقول: شيء عادي! قد فاتتني صلاة الجماعة، فنحن صلَّينا أمس وقبل أمس، أو فاتني أنْ أتصدَّق على هذا المسكين.. الحمد لله قد تصدَّقتُ كثيرًا، لا.. كانوا إذا فاتهم ثواب؛ تحسَّروا عليه، بل أعظم ممَّا يتحسَّرون على فوات شيءٍ مِن الدنيا.

قال: فصلَّيتُها سبعةً وعشرين مرَّةً، حتى تَعِبْتُ ونِمْتُ، فلمَّا نِمتُ؛ رأيت كأنِّي على فَرَسٍ ورأيتُ أصحابي الذين يُصلُّون معي في المسجد دائمًا كأنَّهم على خيولٍ، قال: وإذا هم يضربون خيولهم فتجري، وأنا وراءهم أحاول أنْ ألحق بهم، يقول: ولا أستطيع، فالتفت إليه أحدهم وقال: لن تلحق بنا؛ فقد صلَّينا العِشاء في جماعةٍ.

قد تكون هذه الرُّؤية هي مِن حديث النَّفس؛ لأنَّه نام وهو يقول كيف تفوتني صلاة الجماعة، لكن مع ذلك هذا فيه نوعٌ مِن التَّحسُّر، كيف يفوتني هذا الثَّواب؟!، كلُّ هذا تحسُّرًا على أنْ يصيب الأجر العظيم، وهكذا كلُّ مَن كان له تأثيرٌ في الإسلام يحرص فعلاً أنْ يكون مُزاحِمًا لكلِّ النَّاس في جميع أبواب الخَير..

فحسبك خمسة يُبكى عليهم ... وباقي النَّاس تخفيفٌ ورحمة

إذا مـــــات ذو علمٍ وفضلٍ | فقد ثلـــمت مِن الإسلام ثلــمة
وموت الحـــاكم العدل المولى | بحكـــم الأرض منقصةٌ ونقمة
وموت الفـــارس الضّرغام هَدْمٌ | فكـــم شهدت له بالـنّصر عزمة
ومـــوت فتىً كثير الجـــود محل | فـــإنَّ بقــــاءه خصــبٌ ونعمة
ومـــوت العـــابد القوّام ليلاً | يُناجي ربَّه في كـــلِّ ظُلــمة
فحســـبك خمـــسة يُبكى عليهم | وباقي النّـــاس تخفيفٌ ورحمة
وباقـــي النـــاس هم همَلٌ رعاعٌ | وفي إيجـــادهم للهِ حكـــمة

لذلك حتى الصَّحابة كان النَّبيُّ (ﷺ) يوجههم دائمًا أنْ يكون الواحد منهم مُحتَسِبًا للأجر، حريصا عليه، وأنَّه إذا فاته بابٌ مِن أبواب الخير يتحسَّر عليه تحسُّرًا عظيمًا.. قال (عليه الصَّلاة والسَّلام) لعبد الله بن عمر، يا عبد الله بن عمر (وكان غلامًا لم يتجاوز خمس عشرةَ سنة) لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل فتَرَكَ قيامَ الليل [رواه البُخاريُّ].

وكان عبد الله بن عمرو بن العاص (رضي الله عنهما) يصوم الدَّهر، لا يُفطر فقط إلا في عيد الفطر وعيد الأضحى، يصوم الدَّهر ويُصلِّي الليل كُلَّه ويقرأ القرآن كلَّ ليلةٍ.. كلَّ يومٍ ختمةٌ، فما كان يتفرَّغ للنَّاس ولا حتى لأهله؛ فدعاه النَّبيُّ (عليه الصَّلاة والسَّلام)، فهل شجَّعه على هذا؟، أم أثنى عليه أنَّه يبحث عن الأجر؟، أم أنَّه (عليه الصَّلاة والسَّلام) ضَبَطَ هذا الحماس؟..

لقد قال له صلوات ربِّي وسلامه عليه: «يا عبد الله بن عمرو ألم أحدث أنَّك تُصلِّي الليل كله؟». قال: نعم يا رسول الله، فقال (ﷺ): «صلِّ

ثُلُثَه صلِّ نَصفَه» [رواه البُخاريُّ]. وكان النَّبيُّ (ﷺ) يُحاول أنْ يُقلِّلَ حتى لا يملَّ الرَّجلُ مِن كَثرة العبادة.. نعم صحيحٌ نبكي على فوات الأجور وهذا الذي ينبغي أن يكون، كما وقع مثلاً في مسألة برِّ الوالدَيْن للحسن البصريِّ.. الحسنُ البصريُّ لما ماتت أُمُّه؛ اشتدَّ بكاؤه، فقيل له: لماذا تبكي وأنت الشَّيْخ الذي تُعلِّمُنا الصَّبر؟، قال: أبكي والله لأنه كان لي بابان إلى الجنَّة، فأُغْلِقَ أحدهما، ولم يبقَ إلا باب واحد.

أرأيت التَّحسُّر على فوات الأجر؟!.. فعبد الله بن عمرو بن العاص قال له النَّبيُّ (ﷺ): حُدِّثت أنك تقرأ القرآن كل يوم؟. قال: نعم، فقال له (ﷺ): لا تفعل فاختم القرآن كلَّ شهرٍ، قال: أستطيع أكثر مِن ذلك، قال: اختم القرآن كلَّ جمعةٍ، قال: أستطيع أكثر من ذلك، فقال (ﷺ): فاختم القرآن في كلِّ ثلاثة أيام، قال: أستطيع أكثر من ذلك، فقال: لا أكثر مِن ذلك لا يفقه القرآن مَن قرأه في أقلِّ مِن ثلاثة، وفي الصِّيام قال له (ﷺ): صُم ثلاثةَ أيَّام كلَّ شهرٍ، قال: أستطيع أكثر مِن ذلك، قال: صُم الاثنَيْن والخميس، قال: أستطيع أكثر من ذلك، قال: صُم يومًا وأَفْطِر يومًا، قال: أستطيع أكثر من ذلك، فقال له (ﷺ): لا أفضل من ذلك، هذا صيام داود ﵇، كان يصوم يومًا ويُفْطِرُ يومًا [رواه البخاريُّ]..

فلبِثَ رضي اللهُ عنه على مثل هذا الحال في حرصِه على الخير، فقد كانوا يتحسَّرون على فوات الأجور كما فعل عبد الله بن عمر (﵄) لمَّا عَلِمَ مُتأخِّرًا.. حديث القِيراط، أنَّه له قِيراطٌ إذا صلَّى على الجنازة وقِيراطٌ آخر إذا تَبِعَ الجنازة حتى تُدْفَنْ، وجعل يعبث بالحصاة مُنشغلاً، وكذلك

هؤلاء، إذا فاتهم شيءٌ مِن الأجر مُتعلِّقٌ بالحَجِّ أو بالعمرة أو بغير ذلك؛ بكى بكاءً.. لماذا يفوتني ذلك الأجر؟!..

دخلَ النَّبيُّ (ﷺ) على عائشة أُمِّ المؤمنين «رضي الله تعالى عنها»، وذلك في حِجَّتِه التي حجَّ فيها (ﷺ)، وإذا هي تبكي، فقال لها (ﷺ): ما بالك؟، فبكَتْ، فقال: أَنَفَسْتِ فمنعك الحيض مِن إتمام العمرة؟، قالت: نعم، كيف ترجِع صُويحباتي بعمرةٍ وحَجٍّ وأرجع بحَجٍّ فقط.. أترون التَّحسُّر على فوات الأجر إلى درجة البكاء؟! فكيف ترجع أُمُّ سَلَمَة وقد اعتمرَتْ وحجَّتْ، وكيف ترجع حفصة وقد حجَّتْ واعتمرَتْ، وكيف ترجع زَيْنَبْ وقد حجَّت واعتمرَتْ، وهي ترجع بحِجَّةٍ فقط، فالنَّبيُّ (ﷺ) لمَّا رأى بكاءَها، وكان عليه الصَّلاة والسَّلام يفرح بمِن يبحث عن الأجر، فأمر النَّبيُّ (ﷺ) أخاها عبد الرَّحمن فأخذها وخرج بها إلى التَّنعيم، إلى أدنى الحلِّ الذي يُسمَّى اليوم بمسجد عائشة، وهو ميقات أهل مَكَّة، وميقات مَن أراد أنْ يعتمرَ عُمرَةً أخرى، فمَن يأتي مِن مكانٍ بعيدٍ ويعتمر عن نفسه ثُمَّ يتحلَّل ويُريد أنْ يعتمر عمرةً أخرى مثلاً عن أبيه المتوفَّى أو أُمِّه المُتوفَّاة؛ فإنَّه في هذه الحالة يخرج إلى التَّنعيم، ثُمَّ يُحْرِمُ منه، ثُمَّ يعود بعد ذلك ويعتمر عمَّن أراد، فالتَّنعيم اليوم موجودٌ، ويُسمى بمسجد عائشة؛ لأنَّها خَرَجَتْ وأَحْرَمَتْ منه، فخرجت (رضي الله عنها) مع أخيها وأَحْرَمَتْ ودَخَلَتْ واعتمرَتْ وجعلتْ تطوف حول الكعبة وتُلبِّي مع هؤلاء المعتمرين، ومَن كان لا يزال يُتمُّ حجَّه مِن إفاضةٍ أو وداعٍ وما شابه ذلك... فكانوا يتحسَّرون على فوات الأجر..

كلُّ إنسانٍ يا إخواني يكون عند هِمَّةٍ عاليةٍ في الطَّاعة ويتحسَّر على فوات

الأجر اعلم أنَّه مُوفَّقٌ على الخير، الإنسان الذي يتحسَّر إذا فاتته السُّنَّة فيقضيها بعد الصَّلاة، فاعلم أنَّه سيكون حريصًا على صلاة الجماعة..

تقول أُمُّ سَلَمَة رضي الله عنها: رأيت النَّبيَّ (ﷺ) يُصلِّي بعد صلاة العصر في بيتي، قالت: فعجِبْتُ، أليس بوقتِ نهيٍ؟، والنَّبيُّ (ﷺ) نهى أنْ يُصلَّى في هذا الوقت، تقول: فقُلْتُ لجاريةٍ عِندي اذهبي وقِفي بجانبه وقولي له يا رسول الله، تقول لك أُمُّ سَلَمَة إني سمعتك تنهى عن الصَّلاة في هذا الوقت فكيف تُصلِّي.. تقول: فإنْ أشار لكِ فاذهبي، فقامت الجارية بجوار النَّبيِّ (ﷺ) وهو يُصلِّي، وقالت: يا رسول الله تقول لك أُمُّ سَلَمَة قد سمعتك وأنت تنهى عن الصَّلاة في هذا الوقت، فأشار لها النَّبيُّ (ﷺ) وهو يُصلِّي، فذَهَبَتْ، فلمَّا انتهى النَّبيُّ (ﷺ) مِن صلاته قال لها: «يا أُمَّ سَلَمَة إنَّ وفدَ عبد قيس جاءني فأشغلني عن صلاة الرَّكعتين التي بعد صلاة الظُّهر فأنا أُصلِّيها الآن» [رواه البخاريُّ]..

وكان النَّبيُّ (ﷺ) يدرِّبُ أصحابه على ذلك، فقد رأى النَّبيُّ (ﷺ) أحد أصحابه يُصلِّي بعد الفجر، وهو وقت نهيٍ، فلما رآه يُصلِّي، قال له (ﷺ): ما تفعل؟. قال: يا رسول الله أصلي نافلة الفجر، فقد فاتتني أنْ أُصلِّيها قبل الفجر، فأُصلِّيها الآن، وأقرَّه النَّبيُّ (ﷺ) على هذا..

وكان النَّبيُّ (ﷺ) يقول: مَن نام عن صلاةٍ أو نسيها فليصلِّها وقت يتذكَّرها [رواه البُخاريُّ].

وكان (ﷺ) إذا نام عن وِردِه مِن الليل أو مَرَض، صلاه في الضُّحى حتى لا يفوته الأجر..

فينبغي أنْ نكون مثل هؤلاء، نتحسَّر على فوات الأجر.. فاتني وقتٌ فاضلٌ للصَّلاة، فاتني وقتٌ فاضلٌ يُستحبُّ فيه العُمرة، فاتني وقتٌ فاضلٌ يُستحبُّ فيه الدُّعاء، فاتني وقتُ فاضلُ للتَّبرُّع في بناء مسجدٍ.. ينبغي أنْ نتحسَّر على فوات الأجر أعظم ممَّا نتحسَّر على فوات الأيَّام..

أسألُ اللهَ تعالى أنْ يزيدني وإيَّاكم إيمانًا وهُدىً وتوفيقًا، وأنْ يجعلني وإيَّاكم مُباركين أينما كُنَّا.

قَدْر العُلماء

رفعَ اللهُ قَدْرَ العُلماء، فقال الله جلَّ في عُلاه: ﴿شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [سورة آل عمران- الآية ١٨]، فجعل شهادةَ أولي العلم مقرونةً بشهادة الملائكة، وقال الله جل في علاه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء﴾ [سورة فاطر- من الآية ٢٨].. فالعُلماء هم الذين اختارهم اللهُ تعالى وقَذَفَ في قلوبهم الخشية، وبيَّن أنَّ لهم مِن الأثر ومِن الفائدة في الحياة ما ليس لغيرهم، بل إنَّ ابن القيم (رحمه الله) ذَكر في «مفتاح دار السَّعادة» أن الناس قد يستغنون عن المهندس، وذلك أنَّهم قد عرِفوا من كَثرة التَّجرُبة كيف يبنون بيوتهم، صحيحٌ أنَّ المهندسين مُهمُّون في عصرنا اليوم، لكن لو غاب المهندس؛

لاستطاع النَّاس أنْ يُدبِّروا أنفسَهُم، وكم مِن إنسان بنى بيتَهُ وعشَّتَه وكوخَه مِن غير مُهندسٍ.. والنَّاس يستطيعون أنْ يستغنوا عن الأطباء، فلو اضطر أنْ يستغني لاستغنى، وذلك لأنَّه جَرَتْ طبيعة الإنسان أنَّه يعرف ما يضرُّه وما ينفعه بالتَّجربة، يعرف أنَّ هذا أكله ضارٌّ وهذا نافعٌ، قال إلا العالِم الشَّرعيِّ؛ فلا يمكن أنْ يستغنيَ عنه النَّاس؛ لأنَّ العِلم ومعرفة الأحكام الشَّرعيَّة لا يُمكن أنْ تُعْرَفَ عبر التَّجارب، ولا يُمكن أنْ تُعرَفَ عبر كَثرة المُمارسة، لا تُعرَفُ إلا بالوحي.. إلا أنْ يرسلَ اللهُ تعالى مِن عندِه أنبياءَ لأجل أنْ يبينوا للنَّاس ويهدوهم؛ ولذلك جعل اللهُ للعالِم حظًّا مِن التَّوقير والإجلال والإكرام.

حتى في يوم القيامة العالِم له إجلالٌ وإكرامٌ، يقول النَّبيُّ (ﷺ): «فضل العالِم على العابدِ كفضل القمر على سائر الكواكب» [رواه البُخاريُّ]، ويقول (ﷺ): «فضل العالِم على العابد كفضلي على أدناكم» [رواه البُخاريُّ]، يعني كفضل النَّبيِّ (ﷺ) على أدنى النَّاس.. انظر كيف مكانة العالِم وأثره وقيمته، بل إنَّه عليه «الصَّلاة والسَّلام» لما بَعَثَ بعضَ الصَّحابة في بعض الغزوات، فلمَّا قفلُوا راجعين مِن تلك الغزوة، كان في رأس أحدهم جرح، فنام فأصابته جنابةٌ، فلمَّا استيقظ قال: يا قوم أصابتني جنابةٌ ولا ماء، هل تجدون لي رخصة ألا أغتسل؟، فقالوا له: لا نجد لك رخصةً، قال: ولكن فيَّ شَجَّةٌ في رأسي، لو أصابني الماء يضرُّني، قالوا: لا نجد لك رخصةً، لا تُصلِّ حتى تغتسل، فاغتسل، فمات.. فلمَّا رَجعُوا إلى النَّبيِّ (ﷺ) بعد تلك الغزوة التي أصابهم فيها مِن

التَّعَب، ورجعوا يمشون خلال هذه الصَّحراء بعدما مات صاحبهم، رجعوا يمشون إلى النَّبيِّ (ﷺ) يقطعون الفيافي وهم على دوابِّهم شوقًا للمدينة، فلمَّا وصلوا إلى المدينة؛ دخلوا على النَّبيِّ (ﷺ)، وحدَّثوه بخبرِ ذلك الرَّجل، فقال النَّبيُّ (ﷺ): أغتسل فمات؟. قالوا: نعم، قال: قتلوه قتلهم الله، قتلوه قتلهم الله، قتلوه قتلهم الله، ألا سألوا إذ جهِلوا؟ ألا سألوا إذ لم يعلموا؟ فإنَّما شِفاء العيي السُّؤال.. ثُمَّ قال (عليه الصَّلاة والسَّلام): إنَّما كان يكفيه أنْ يضرب بيدَيْه على الصَّعيد الطَّيِّب فيمسح وجهَهُ وكفَّيْه ويعصب على رأسِه عصابةً يمسح عليها.

[رواه البُخاريُّ].

الوزير ابن هُبيرة (رحمه الله تعالى) كان وزيرًا مُعظَّمًا، وكان ذا مالٍ وجاهٍ، وكان يجمع العلماء عنده يتناقش معهم، في يومٍ مِن الأيَّام جمع العلماء عنده بعد العصر، فدخل الفقيه المالكيُّ وجلس معه، فجعلوا يتناقشون في مسألةٍ، فخالفهم الفقيه المالكيُّ، فناظروه وقالوا بلى المسألة كذا والرَّاجِح فيها كذا، قال لا الرَّاجِح فيها كذا، فتعجَّب ابن هُبيرة، كل العلماء على قولٍ وأنت على قولٍ، فناقشه وهو مُصرٌّ على رأيه، ويقول الرَّأي الصَّحيح هو كذا، فقال ابن هُبيرة: أَحمارٌ أنتَ؟.. فسكت الشَّيْخ، فلما تفرقوا ندم ابن هُبيرة على كلمته، كيف أقول له أحمارٌ أنت وهو عالمٌ؟، يقولون فلم يَبِت الليل مِن شدَّة الهمِّ والغمِّ..

انظر لهؤلاء الذين يُقدِّرون العلماء، يُقدِّرُ الرجل الذي ثنى ركبته في طلب العلم وأمضى وقتَه في حفظ القرآن، وصرف حياتَه في حفظ السُّنَّة وكتابتها والتَّأليف، فهذا الرَّجل المُبارك الذي يحفظ الله تعالى به الدِّين،

فهذا يُكرَّم، لا يُكتب عنه في الصحف باستهزاءٍ أو يُستهزأ بهم مِن خلال البرامج أو الفضائيَّات، لابدَّ لهم من توقيرٍ.. يا جماعة، الأُمَّة إذا ضيَّعت عُلماء الدِّين؛ فقد ضيَّعت مجدَها وضيَّعت دينَها وضيعت عزَّتَها.

ظل ابن هُبيرة طوال الليل مُكتئِبًا حزينًا مهمومًا، فلمَّا أصبح مِن غدٍ؛ اجتمع عنده العلماء فقام ووقَّر هذا العالِم وقبَّل رأسَهُ، وقال: أيُّها النَّاس، إنَّه بدَرَتْ مِنِّي كلمةً البارحة، واللهِ ما نمتُ مِن شدَّة همِّها وغمِّها، فسامحني، فقال: قد عفوت عنك، قال: لا، سامحني، قال: سامحتك، فقام، وقال: اطلب حاجتك، قال: لا حاجةَ لي، قال: أسألك بالله العظيم هل عليك دَيْنٌ؟، قال: ما دُمت سألتني بالله العظيم فنَعَمْ، قال: كم؟، قال: أعفني، قال: سألتك بالله العظيم أنْ تخبرني، قال: عليَّ مائة دينارٍ، قال هذه مائةُ دينارٍ لقضائها مِن ماليَ الخاصِّ، ثُمَّ قال: وهذه مائةٌ أخرى لكلمتي التي كانت البارحة..

فهذا وزير يأمر وينهى، ولو شاء ربما أمر بقتلِ هذا الفقيه، ومع ذلك كان عنده توقيرٌ واحترامٌ لهؤلاء العلماء..

ومِن أكثر العلماء إجلالاً، الشَّيْخ سعيد الحلبيُّ، الذي مدَّ رجلَيْه عندما لم يمدَّ يدَيْه.. الشَّيْخ سعيد الحلبيُّ (رحمه الله تعالى) كان عالمًا كبيرًا مِن العلماء، وكان له جلالة قدرٍ عند النَّاس، وكان مستغنيًا عن الحاكم؛ لأنَّ العالِم إذا احتاج إلى الحاكم وصار يأخذ الأعطيات ويأخذ الهدايا ويُكثِر الجَلوس مع السَّلاطين؛ ربما بعد ذلك صار عنده نوعٌ مِن المُحاباة والمُجاملة في فتواه، ولكن العالِم إذا استغنى عن الحاكم؛ أصبَحَتْ فتواه

لله تعالى، لا مجاملةً لفلانٍ ولا فلان، فسعيد الحلبيُّ كان مستغنيًا؛ لذلك لما عيَّن أحد الخلفاء قاضيًا؛ عيَّنه، ثُمَّ أرسل إليه بمالٍ، فأبى أنْ يأخذه، وقال: لا آخذ إلا راتبي من بيت مال المسلمين، قال: خذها هديةً، قال: لا، إذا أردت أنْ تعطيني هدايا فاعزلني مِن القضاء، فقال: بل ابقَ قاضيًا، وقال الخليفة: والله لا يحابيني في قضيَّةٍ، لن يُجاملني في قضيَّةٍ ما دام لم يقبل هداياي..

سعيد الحلبيُّ (رحمه الله) كان مُعتزًّا بنفسه وعنده رزقه ولا يحتاج للحاكم، فكان مرَّةً جالسًا في المسجد يُدرِّس الطلاب وعنده ألم في رجليه مع كِبَرِ سنِّه، فمدهما وجلس يُدرِّسُ الطُّلاب ويفتيهم، فدخل إبراهيم باشا ابن محمد علي، وكان له جبروته وسلطانه وعزَّتُه، فقام الذين في المسجد يبجِّلونه ويحترمونه ومَن يقبل عليه ويأتيه وهكذا، فمرَّ بسعيدٍ الحلبيّ وهو يُحدِّثُ النَّاس، فقام بعض الطُّلاب وسعيدٌ الحلبيُّ مادًّا رجلَيْه يُحدِّثُ عن الرَّسول، قال ﷺ ، وقال تعالى، ولم يقُم فهو في المسجد، والرَّجل لم يأتِ ليُسلِّم عليه، فلو جاء يصافحه لقام يُسلِّمُ عليه، ولكنَّه كان في زيارةٍ للمسجد، فظل مادًّا لرجلَيْه ولم يقُم، فخرج إبراهيم باشا بعد أنْ انتهى، ثُمَّ التفت إلى مَن معه، وقال: مَن الشيخ الذي كان جالسًا مادًّا رجلَيْه؟. قالوا: هذا الشَّيْخ سعيدٌ الحلبيُّ مِن كبار العلماء، قال: ولماذا الجميع وقفوا وقطعوا أحاديثهم وتوقَّفوا عن القراءة تبجيلاً لي وتعظيمًا إلا هو فاستمر في الحديث والقرآن؟، فقالوا: لا ندري، فأخذ ألف دينار وأعطاها مِن عنده لواحدٍ وقال: اذهب وأعطها الشَّيْخ، فمضى إلى المسجد، والشَّيْخ جالسٌ مِن بعيدٍ، والمسجد فيه حلقاتٌ

للقرآن وحلقاتٌ للتَّفسير والحديث، فيها عُلماء أجلاء هذا يطلب قرآنًا وهذا يحدِّث، وكل واحدٍ على حالٍ في مسجدٍ مُباركٍ، فأقبل الرَّجل على الشَّيْخ سعيدِ الحلبيِّ، وقال: السَّلام عليكم يا شَيْخ، تفضَّل هذه الألف دينار، وهو مبلغٌ ضخمٌ يجعله يعيش عشر سنين في عزٍّ، فقال له: مِن أين هذا؟، قال: هذه مِن إبراهيم باشا، فقال: أرسلها إبراهيم باشا إليَّ؟، قال: نعم، قال: فأرجعها إليه، وقل له يقول لك الشَّيْخ: إنَّ الذي يمدُّ رجلَيْه لا يمدُّ يدَيْه.. لأنَّه أصلاً لو مدَّ يدَيْه ما استطاع أنْ يمدَّ رجلَيْه.. فالعزُّ الذي عنده الآن والشَّرف لا يجعله يحتاج إليه، ولكن لَمَّا يأخذ المال، ويتكثَّر به ويتزيَّن به؛ يصبح الرَّجلُ له إحسانٌ وفضلٌ عليه.. أحسِن إلى النَّاسِ؛ تستعبد قلوبهم، ولطالما استعبدَ النَّاس إحسانٌ.. لذلك قال: أنا لا أريد شيئا منه، فأنا عالمٌ وعندي نفقتي، ولا أريد أنْ أُحابي في فتواي، وألتفت يمينًا أو يسارًا..

العِلم يبني بيتًا لا منار له، هارون الرشيد كانت له في الحَجِّ مسألةٌ عُرِضَتْ له، فسأل مَن عنده مِن العلماء، فقالوا والله ما ندري، هذه مسألةٌ جديدةٌ ولا ندري ما حُكْمُها، فقال: نريد أنْ نعرف حُكم المسألة في الحج، فقالوا: لا يفتيك إلا عطاء بن أبي رباح، وعطاء كان أسودَ أفطس الأنف، وكان شديد العَرَج، وعبدٌ حبشيٌّ، فقال: ادعوا لي عطاء بن أبي رباح، وكان عطاء إمام زمانه في الحَجِّ وأحكامه، فمضوا إلى عطاء، وقالوا له: يُريدك الخليفة، وعطاء عنده النَّاس وعنده زحامٌ يسألونه، هذا جاء من كازاخستان، وهذا مِن أفريقيا، وهذا مِن اليمن، وهذا مِن العراق، وهذا مِن الشام، وجمعٌ كثيرٌ،

فقال: أتركهم وأذهب للخليفة، وأترك هؤلاء المساكين لا يجدون مَن يُفتيهم؟، فقال: اذهبوا للخليفة، وقولوا له إني مشغولٌ، قال: وقولوا له العِلم يؤتى إليه ولا يأتي.. العِلم هو الذي يأتي إليه الطَّالب وليس العِلم الذي يذهب إلى النَّاس..

فلما أبلغوا هارون الرَّشيد بذلك؛ قام وأخذ معه ابنَيْه الأمين والمأمون، ومضى، فلمَّا وصل إلى عطاء ورأى الناس الخليفة تفرَّقوا، وهم مساكين، بعضهم واقفٌ وقتا طويلا في الصَّفِّ، ولكنَّه خاف مِن الخليفة، فغضب عطاء، فنحن سواسية، وكلنُّا بحاجةِ لأحكام الحَجِّ، وكُلُّنا سواسيةٌ بين يدَي اللهِ، وهؤلاء مساكين عندهم مسائل، وأهلهم ينتظرون حلَّ المسائل، ويأتي الخليفة يطردهم، فجاء الخليفة وقف وقال: السَّلام عليك يا شَيْخ، عندي مسألةٌ، فقال له: قِف في الصَّفِّ، نحن سواسية بين يدَي الله، فرجع الخليفة ووقف في الصَّفِّ ومعه ابناه الأمين والمأمون، ثم جعل يمسك الصَّفَّ حتى وصل الخليفة، فلمَّا وصل الخليفة إليه؛ سأله عن مسألته، فأجابه ودعا له وتلَّطف معه عطاء، ثُمَّ شكره الخليفة ومضى، ثُمَّ التفت إلى ولدَيْه الأمين والمأمون، وقال: يا بنيَّ.. اطلبا العِلم، فوالله ما رأيت نفسي في موطنٍ أنا أزلُّ وأحقر منه مِن أنْ كُنت بين يدَيْ هذا العبد، فهو عنده شيءٌ أنا أحتاجه ما أجده عند غيره، بينما أنا ما عندي إلا المال والمنصب، وهو يجد المال عند أيِّ أحد غيري، فأيُّ أحدٍ مِن التُّجَّار يُمكن أنْ يعطِيَهُ ليسدَّ دَيْنَه، ليشتري بيتًا ليشتري دابَّةً، أما أنا فلا أجد غيره..

لذلك كانوا يعرفون للعُلماء قدرَهُم؛ واليوم مع الأسف يقع أنواع من

السُّخرية أحيانًا بالعلماء، نقرأ أحيانًا في بعض الصُّحف تجرُّأً على بعض العلماء، وتجرُّأً على بعض مَن يُمثِّلون الدِّين، واستهزاء بهم، نوعا مِن السُّخرية بهم، أحيانًا السُّخرية مِن بعض الفتاوى، السُّخرية مِن بعض الأحكام الشَّرعيَّة، أحيانًا يكون هناك بعض مواقع الإنترنت فيها شيءٌ مِن هذا، أحيانًا يكون أيضًا مِثل ذلك في بعض القنوات الفضائيَّة مِن خلال ما يُنشَر مِن برامج ومسلسلات.. كل هذا لا يجوز، وهو مِن أعظم المُحرَّمات، والعلماء هم ورثة الأنبياء لا يجوز الاستهزاء بأيٍّ كان، خاصَّةً إذا كان مُسلمًا، وخاصَّة إذا كان يُمثِّلُ الدِّين وكان عالمًا، ولكن لو عندك ملاحظةٌ عليه؛ فأرسِلها إليه، وتكلَّم معه بأدب وتلطَّف معه... إنْ أردت أنْ تكتُبَ عنه؛ فاكتب بغاية الأدب واللطف والاحترام، أمَّا اتِّهام النِّيَّات والكلام في المقاصد والكلام عن مظهره وشكله؛ كل هذا ينبغي أنْ يُضرب به عرض الحائط، ولا يحرِّك ولا يُلتفت إليه، بل يُبجَّل العالِمُ ويُعرف له قدرُه.

أسألُ اللهَ تعالى أنْ يُعينَنَا على توقير علمائِنا، وأنْ يجعلنا أيضًا مِن العلماء العاملين..

أبو حنيفة يصنع خليفته

أحيانًا يبحث الإنسان عن خليفةٍ له، يُحسنُ الظَّنَّ بذكائه.. بقدراته.. بخُلُقِه.. بدينه.. بأدبه، فيريده أنْ يكون خليفةً له في مكانه، سواءٌ مكانه العلمي، كأنْ يكون مثلاً عالِمًا مِن علماء المسلمين، أو ربما يكون أحيانًا عالِمًا مِن عُلماء الفيزياء أو الكيمياء.. الأحياء.. الطِّب، إلى آخره، أو مكانه أحيانًا في تجارتِه أو نحو ذلك.

تعالوا نقف مع قصَّةٍ عجيبةٍ بين الإمام أبي حنيفة النُّعمان بن ثابت (رحمه الله تعالى) وأحد طلابه. أبو حنيفة مِن كِبار الفُقهاء.. يقول الشَّافعيُّ: النَّاس عيالٌ في الفِقه على أبي حنيفة، فهو فعلاً رأسٌ مِن رؤوس الفُقهاء، وُلد في السَّنة الثمانين مِن الهجرة وتوفِّيَ ١٥٠ هجريًّا (رحمه الله).. هذه القصَّة

تدخَّل فيها أبو هذا الطَّالب، وتحولت في النهاية قِصَّةً عند الخليفة.

كان أبو حنيفة (رحمه الله تعالى) في درسِه في مسجدٍ يجتمع عنده مئاتُ الطُّلاب، ويأتي إليه الطُّلاب مِن كلِّ مكانٍ، يسيرون في هذه الطُّرقات معهم كتبهم مِن أجل أنْ يحضروا درسَ أبي حنيفة، فإذا دَخَلْتَ إلى المسجد؛ رأيت الشيخ ومجلسه العامر على كُرسيه بين طُلابه أو رُبَّما على الأرض يُدرِّسَهم، وهذا يسأل وهذا يُناقش وهذا يستفتي في مجلسٍ مَهيبٍ.. كان مِن ضِمن هؤلاء الطُّلاب غلامٌ صغيرٌ عمره لم يتجاوز اثنتَي عشرةَ سنةً، كان يأتي ويجلس وكان ربما يسأل أحيانًا أسئلةً تدل على ذكائِه، وأحيانًا الأسئلة تدلُّ على الذَّكاء وهناك أسئلةٌ تدلُّ على الغباء، ذكروا أنَّ أبا حنيفة يومًا كان جالسا في درسِه قالوا فأقبل رجلٌ له هَيبةٌ عليه رداءٌ جيِّدٌ وعليه عمامةٌ جيِّدةٌ وله هيبةٌ، جاء وكان أبو حنيفة رِجله تؤلِمُه، فمدَّ رجلَه عند طلابه وهو يحدث، فلما أقبل هذا الرَّجل؛ لوى أبو حنيفة رجله قليلاً احترامًا لهذا الرَّجل، جاء الرَّجل وجلس وأبو حنيفة ما يدري مَن هذا، ربما يكون عالما مِن علماء البلد الفلانيِّ جاء إليه، فلمَّا أكمل أبو حنيفة الدَّرس؛ قال لهم: مَن عنده سؤال؟ فقال هذا الرجل: أنا عندي سؤالٌ يا شَيْخ، قال: ما هو سؤالك؟، قال: يا شَيْخ إذا جاء رمضان، ماذا نفعل؟، قال: تصوم، قال: وإذا جاء الحجُّ، فماذا نفعل؟، قال تحجُّ، قال: فإذا اجتمع رمضان والحَجُّ معًا؛ نصومُ أم نحج؟، فأبو حنيفة لمَّا سَمِعَ هذا السُّؤال؛ قال: آن لأبي حنيفة أنْ يمدَّ رِجلَه.. فكيف يجتمع رمضان والحجُّ معًا؟!.. هذا شهرٌ وهذا شهرٌ، فأدرك أبو حنيفة أنَّه أعطى الرَّجل أكثر مِن حجمه اغترارًا بظاهره...

هذا الغلام كان اسمه أبو يُوسُف، غلامٌ صغيرٌ وأصبح بعد ذلك مِن كبار رجال المذهب الحنفيِّ، أُعْجب أبو حنيفة به، ولكنَّه لاحظ أنَّ هذا الغُلام يغيب كثيرًا عن الدَّرسِ، أمسكه يومًا، وقال: يا بُنيَّ أنت لماذا تغيب عن الدَّرس؟، قال: نحن قومٌ فقراء وأبي يُلزِمُني أنْ أذهب إلى السُّوق وأشتغل حمَّالاً مِن أجل أنْ أُعْطِيَ أبي وأُمِّي، فقال أبو حنيفة: يا بُنيَّ اطلب العِلم، فطَلَبُ العِلم فضيلةٌ وفريضةٌ، وسيرفَعك اللهُ بهذا العِلم، فقال: نعم، فجلس، فإذا بأبيه يأتي ويضرِبُه ويُخرِجُه مِن المسجد، فذهب أبو حنيفة إلى والد أبي يُوسُف، وقال: لماذا لا تجعل ابنك يطلب العِلمَ؟، قال: يا أبا حنيفة أنت رجلٌ خُبزُك مشويٌّ، ونحن قومٌ فقراء، ولابدَّ أنْ يشتغل ويُنفِقُ عليَّ ويُساعدُني ويُنفِقُ على إخوته الصِّغار، فقال له أبو حنيفة: كم يكسب ولدك كلَّ يوم؟، قال: يكسب درهمَيْن، قال: دعه عندي يطلب العِلم وأنا أعطيه في كلِّ يومٍ درهمَيْن، أنت تريد أنْ يشتغل حمَّالاً ليكسب درهمَيْن، اجعله عندي يدرِس وأنا أُعطيه كلَّ يومٍ درهمَيْن، فوافق الأب، وقال أبو حنيفة: اسمع، والله إني لأعلِّم ولدَكَ عِلمًا إنْ أتقنه؛ جلس على الطَّنافس في صدور المجالس عند الخُلفاء وأكل اللوز بالفالوذج.. واللوز بالفالوذج هو نوعٌ مِن الحلوى لا يأكله عادةً إلا التُّجَّار الكِبار والخُلفاء؛ لأنَّه غالي الثَّمَن، فقال: هذا يأكل اللوز بالفالوذج؟!، أهذا يجلس عِند الخُلفاء؟!

فصار أبو حنيفة يُعطي الغُلام كلَّ يومٍ درهمَيْن، ويُعطيها هذا لأبيه.. كَبُرَ أبو يُوسُف حتى كَبُرَ وفَطِنَ وفَهِمَ وصار عنده معلوماتٌ، وأصبح يُناقش أبا حنيفة، وصار عنده معلوماتٌ، فجأة مرض أبو يُوسُف

واشتدَّ مرضه، فتفقَّده أبو حنيفة وسأل عنه، فقالوا هو مريضٌ، فمضى إليه حتى دخل عليه في بيتِه، فإذا هو قد اشتدَّ به المَرَض حتى أشرف على الهلاك، فأبو حنيفة وضع يده على رأسِه وجلس حزينًا عنده، والرَّجل مريضٌ.. يُفكر أبو حنيفة لو مات ذلك الرَّجل الذي صار لي سنواتٌ الآن أبنيه وأُنفق الأموال مِن أجل تعليمه والحِفاظ عليه، فماذا لو مات، وخرج أبو حنيفة مِن عند أبي يُوسُف، وأبو يُوسُف مريضٌ، وقال أبو حنيفة: أه يا أبا يُوسُف، لقد كنت أرجوك للنَّاس مِن بعدي، أنا كُنتُ أُخطِّطُ أنْ تُصْبِحَ أنت العالِم مِن بعدي، ولكن ها هو الموت يهجم عليك..

مضى أبو حنيفة إلى درسِه وهو يدعو لأبي يُوسُف، ومرَّ يومٌ ويومَان وشفِيَ أبو يُوسُف، وقام واغتسل ولَبِسَ أحسن ثيابِه، وأراد أنْ يخرج إلى المسجد، فقال له بعضُ أهلِه: إلى أين؟، قال: إلى الدَّرس، قالوا له: أنت ما تحتاج أبا حنيفة، فأنت شَيْخٌ مثله، قال: كيف أنا شَيْخٌ؟، قالوا: إنَّ أبا حنيفة لما جاء زائرًا لك ورآك مريضًا، خرج وهو يقول: أه يا أبا يُوسُف لقد كنت أرجوك للنَّاس مِن بعدي، بمعنى لو أنّ أبا حنيفة مات؛ أنت تجلس مكانه وتشرح الكُتُبَ نفسَها التي يشرحها أبو حنيفة.. فأبو حنيفة شَيْخٌ وأنت شَيْخٌ.. قال أبو يُوسُف: أه.. أنا شَيْخ؟!!، ودخل المسجد بدلا مِن أنْ يذهب للحلقة التي فيها أبو حنيفة، ذهب لمكانٍ آخرَ في المسجد في حلقةٍ وبدأ يُحدِّثُ، واجتمع النَّاس عنده، وأبو حنيفة جالسٌ، فالتفت أبو حنيفة فإذا هناك حلقةٌ وهناك شَيْخٌ جديدٌ، فقال أبو حنيفة: أنزل بالبلد شَيْخٌ؟ قالوا: لا، قال: عَجَبًا، ومَن هذا؟، قالوا:

هذا أبو يُوسُف، قال: أبو يُوسُف، أشُفِيَ؟!، قالوا: نعم، قال: عجبًا فلماذا لم يأتِ ويحضر معنا الدَّرْس؟، قالوا: قد حُدِّث بما قُلت، فقال أبو حنيفة: يأبى أبو يُوسُف إلا أن نقشِّرَ له العصا حتى يتأدَّب..

فنادى واحدًا مِن الطُّلاب عنده، قال: نعم يا شَيْخ، قال: اذهب إلى الشَّيْخ الذي جالسٌ، وقُل له يا شَيْخ أنا عندي مسألةٌ، فسيفرح، ويقول: ما مسألتُكَ؟، فقُل له: رجلٌ دفع ثوبًا له إلى خيَّاطٍ ليقصِّره، ثُمَّ جاء بعد أيَّام يُريد ثوبَه، فجحده الخيَّاط، وقال ما لك ثوبٌ، فذهب إلى الشُّرطة، وجاءت الشُّرطة وفتَّشَت الخيَّاط، حتى وَجَدَت الثَّوب وأعطته الرَّجُل، السُّؤال هل يستحق الخيَّاط أُجرةً على تقصيره الثَّوب أم لا يستحق، فاسأل الشَّيْخ الذي جالسٌ هناك، فإنْ قال لك يستحقُّ؛ فقُل له أخطأت، وإنْ قال لك لا يستحقُّ؛ فقُل له أخطأت..

مضى الغُلام حتى وقف بين يدَيْ أبي يُوسُف.. قال: يا شَيْخ أنا عندي مسألةٌ، فَرِحَ أبو يُوسُف، وقال: ما مسألَتُك؟، قال: يا شيخَ هذا رجلٌ معه ثوبٌ طويلٌ، فذَهَبَ إلى خيَّاطٍ ليُقصِّرَه، دفعه إلى الخيَّاط، ثُمَّ جاء بعد أيَّام ليأخذ ثوبَه، فجحده الخيَّاط، وقال ما أعطيتني ثوبًا، فذهب إلى الشُّرطة فجاءوا وفتَّشوا المحل وأخرجوا الثَّوب ودفعوه لصاحبه، والسُّؤال: هل يستحقُّ الخيَّاط أجرةً على تقصير الثَّوب أم لا يستحقُّ؟.. فقال أبو يُوسُف: نعم ما دام قد قصَّر الثَّوب فهو يستحقُّ، قال: أخطأت.. قال: أَعِد المسألة، وقال له: أيستحق؟، قال: جَحَدَ الثَّوب، قال: نعم، قال: ما يستحقُّ الأُجرة، قال: أخطأت، فقال أبو يُوسُف: مَن أرسلك؟، قال: أرسلني الشَّيْخ أبو حنيفة..

قام أبو يُوسُف إلى أبي حنيفة، فأقبل حتى وقف بين يدَيْ أبي حنيفة، وقال: يا شَيْخ ما المسألة؟، فلم يلتفت إليه أبو حنيفة واستمرَّ في درسِه، فقال: يا شَيْخ، مسألة، فما ردَّ عليه وأكمل الدَّرس، فجاء أبو يُوسُف وجلس بين يدي أبي حنيفة، قال: يا شَيْخ، مسألةٌ، قال: أَجِبُ فأنت شَيْخٌ، قال: لا والله بل أنت الشَّيْخ ولست أنا، قال أبو حنيفة: فما مسألتُك؟، قال: تعرفها، فقال: مسألة الخَيَّاط والرَّجُل؟، فقال أبو حنيفة: نحن الآن نُريد أنْ نحدِّدَ هل يستحق الخَيَّاط أُجرةً على تقصير الثَّوب أم لا؟ قال أبو حنيفة: ننظر في مقدار تقصيره للثَّوب، فإنْ كان قد قصَّر الثَّوب على مقاسِ نفسِه؛ فلا يستحق الأُجرة؛ لأنَّه نوى سَرِقَة الثَّوب، ثُمَّ قام بالعمل بالخياطة والتَّقصير، فهو قام بالعمل مِن أجل نفسه، لا مِن أجل الرَّجل فما يستحق أُجرةً، وإنْ كان قصَّر الثَّوب على مقاس الرَّجل؛ فيستحقُّ الأجرة، لأنَّه عَمِلَ العمل مِن أجل الرَّجل، ثُمَّ بدا له أنْ يسرقَ الثَّوب.. فهمت يا أبا يُوسُف؟، فقال أبو يُوسُف: نعم، وجلس أبو يُوسُف عند أبي حنيفة حتى مات أبو حنيفة (رحمه الله) عام ١٥٠ للهجرة، وكان أبو يُوسُف هو القاضي مِن بعده..

يومٌ مِن الأيَّام، أبو يُوسُف في مجلس الخليفة، مجلسٌ عظيمٌ فيه الخَدَم والحَشَم، والخليفة على كُرسيِّه والنَّاس مِن حولِه، فيهم القُضاة والعُلماء، والكل يرجو نوال مالٍ مِن الخليفة، والكلُّ يُرجو تقرُّبًا إليه، وأبو يُوسُف جالسٌ، وكان قاضي القضاة في ذلك الحين، وجيء إلى النَّاس بالطَّعام وجيء إلى الخليفة بحلوى خاصَّة، لوز بالفالوذج، فلما وُضِعَ بين يدَيْه؛ قال الخليفة: ابدؤوا بالشَّيْخ، وأشار إلى أبي يُوسُف

القاضي، فجاءوا ووضعوه بين يدَيْ أبي يُوسُف، فلمَّا نظر أبو يُوسُف إلى اللوز بالفالوذج؛ ضحك وضحك حتى استلقى على قفاه مِن شدَّة الضَّحك.. تعجب الخليفة الآن نُعطيك حُلوى ونكرِّمُك به وتضحك ضحكًا شديدًا؟!، فقال: ما الخبر يا شَيْخ؟، قال: والله أيُّها الخليفة لم أقصد شيئًا سوى أنِّي ذكرت أبي لمَّا قال له أبو حنيفة (رحمه الله) إنِّي أُعلِّمُ وَلَدَكَ علمًا إنْ أتقنه؛ جَلَسَ في صدور المجالس عند الخلفاء وأكل اللوز بالفالوذج، وأبي يقول: أهذا يأكل اللوز بالفالوذج؟!، أهذا يدخل عند الخلفاء؟!، فانظر الآن كيف رفعني العِلم حتى أجلس على الطَّنافِس في صدور المجالس عند الخلفاء، وأكلتُ اللوز بالفالوذج..

فعلاً يرفع اللهُ الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات..

وختاما، أقفُ وقفاتٍ يسيرةٍ مع قصَّة أبي يُوسُف مع أبي حنيفة: أولاً أبو حنيفة كان عِنده اهتمامٌ بالموهوبين، نحن اليوم ربما نمدح الغرب في كثيرٍ من الأحيان على أنَّهم يهتمُّون بالموهوبين، ويعتنون أكثر بالأذكياء، ويفتحون لهم المجال للنَّجاح، ويعينونهم لو يريدون أنْ يخترعوا أو يفعلوا شيئًا، كان السَّلف (رحمهم الله تعالى) يتعمَّدون أنْ يعتنوا بهؤلاء الموهوبين، وبأنْ يصنعوهم كما كان النَّبيُّ (ﷺ) يعتني بالموهوبين..

أبو حنيفة لم يُرِد أنْ يكون أبو يُوسُف كما قال الأوَّل: أضاعوني وأيَّ فتىً أضاعوا.. لا يريد أبو حنيفة أنْ يُضيع أبو يُوسُف وهو بهذا الذَّكاء والفطنة والنَّباهة والحِكمة عمره ويشتغل حمَّالاً، لا.. صحيح مهنة الحمَّال مهنةٌ شريفةٌ، فهو يكتسب بالحلال؛ ولكن مع ذلك مهنة

العِلم والاشتغال به وطلب العِلم ونَفْعُ الأُمَّة بلا شك أعلى وأرفع.. النَّبيُّ (ﷺ) يقول: «فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب» [رواه البخاريُّ]..

أبو حنيفة لما رأى أبو يُوسُف متميزًا دعَّمه حتى يتميَّز أكثر، وينبغي نحن أنْ نفعل ذلك مع زملائِنا.. مَن عنده زميلٌ مُتفوِّقٌ وجيِّدٌ، أو واحدةٌ عندها زميلتها أو دكتورة في الجامعة أو مُدرِّسٌ أو مُدرِّسةٌ عندهم أحدٌ مُتميِّزٌ؛ ادعموهم وشجِّعوهم واشتروا لهم كتبا.. إذا ترك أحدهم الدِّراسة قولوا له ليش يا ولدي تترك الدِّراسة.. أنت مُتفوِّقٌ وذكيٌّ، وإذا قال والله مِن أجل أنْ أعمل، فنحن ننفق عليك وعلى أهلك، ونعطيك راتبًا مِن أجل أنْ تواصل.. فلابدَّ أن نقف مع هؤلاء الموهوبين.

الأمر الثَّاني ألا يغترَّ أيُّ إنسانٍ بما وصل إليه.. وفوق كلِّ ذي علم عليمٌ.. أسألُ اللهَ سبحانه وتعالى أنْ ينفعنا وإيَّاكم بما سمعنا، وأنْ يزيدنا اللهُ وإيَّاكم فقهًا وعِلمًا ومعرفةً.

طالب من الأندلس

نحن اليوم في رحلةٍ إلى الأندلس، نقطع المسافة مِن الأندلس إلى مكَّة وإلى بغداد، نُطوِّف في الأندلس قديمًا، فنرى بيوتًا للعِلم، ونرى المساجد فيها الحلقات، ونرى العُلماء يُعلِّمون النَّاس، نرى الطُّلاب بكتبهم، ونرى حلقات التَّعليم في المساجد، ثم ننتقل إلى مكَّة فنرى الحُجاج يأتون إليها مِن كلِّ مكانٍ وهم يُلبُّون مُكبِّرين مُعظِّمين..

هذا الكلام كُلُّه قبل ألف سنةٍ أو يزيد، كان العلماء يجتمعون فيها على الخَير والهُدى والصَّلاة، يُعلِّم بعضهم بعضًا، ويُحدِّثُ بعضهم بعضًا.. تعالوا اليوم نقف مع رجلٍ مِن العلماء، نذكر قصَّتَه: كيف طلب العِلم؟ وكيف نشره وكيف كان إذا أراد أنْ يطلبَ العِلم.. يلبس لباس

الشَّحَّاذين حتى يطلب العِلم، لماذا؟.. لماذا لم يلبس لباس العلماء؟.. لماذا كان يأتي ويصيح عند الباب، ويقول الأجر مِن الله، الثواب، كسرة خبزٍ، وهو عالمٌ، وكان يفعل هذا ليطلب العِلم، عجيبٌ.. هل كان فقيرًا؟.. لا لم يكَن فقيرًا، لكن كان الرَّجل الذي يطلب منه العلم يشترط عليه.. لا تأتني تطلب العِلم إلا وأنت تلبس لباس الشَّحَّاذين، عجيبٌ!.. لماذا؟!.. سأذكر لكم ذلك بالتَّفصيل.

هذا نقيّ بن مَخْلَدٍ (رحمه الله تعالى)، خرج مِن ديار الأندلس ورَكِبَ البحر حتى وصل إلى المغرب، ثُم تجاوز إفريقيا حتى وصل إلى مكَّة، ثُمَّ تعداها حتى وصل إلى بغداد، وكان يتقطع قلبه شوقًا للقاء الإمام المُبجَّل أحمد بن حنبل، أقبل فلمَّا دخل بغداد؛ فوجئ أنَّ الإمام أحمد (رحمه الله) كان قد ابتُلِيَ بالفتنة، فتنة خَلْق القرآن، القول بأنَّ القرآنَ مخلوقٌ.. لا يجوز، فالقرآن كلامُ اللهِ تعالى، وكلامُ اللهِ تعالى هو صفةٌ مِن صفاته، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة التَّوبة- الآية ٦]، وقال تعالى مُبيِّنًا ذلك: ﴿وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً﴾ [سورة النِّساء- من الآية ١٦٤].. والله جلَّ وعلا يتكلَّم بما يليق بجلاله وعظمته، والقرآن هو كلام الله الذي أنزله إلينا، هناك أناسٌ أنكروا ذلك، وقالوا إنَّ القرآن هو مخلوقٌ مِن المخلوقات، والإمام أحمد في عصره قال إنَّ القرآن هو كلام اللهِ وليس مخلوقًا عاديًّا، القرآن له عظمته، وهم يقولون: هو مخلوقٌ مِثل كل المخلوقات، قال: لا، القرآن يختلف، القرآن كلام اللهِ، فأقبل إليه الخليفة المُعتَصِم، وكان الخليفة المُعتَصِم عنده وزير اسمه أحمد بن أبي

دوؤاد، وأقنعه بالفكرة، بهذا الضَّلال، وأخذ يضرب الإمام أحمد، ثُمَّ سجنَه سنتَيْن وأربعة أشهر، وكان يُضرب كلَّ يوم، حتى كان المُعْتَصِم والعياذُ بالله، يأتي بالجلاد ويقول أرني السَّوط، ثُمَّ ينظر هل قويٌّ أم لا، ثُمَّ يقول: اجلد، والجلاد يجلد، وهو يقول: اجلد، قَطَعَ اللهُ يدك، اجلد، والإمام أحمد بين يدَيْه، والمُعْتَصِم في داره وسلطانه وحوله الوزراء وأحمد بن حنبل (رحمه الله تعالى) يجلده الجلاد بين يدَي المُعْتَصِم..

أُخرِجَ بعد ذلك الإمام أحمد، بعدما لبث في السِّجن، وكانت سجونًا ضيِّقةً وقديمةً، يُربط فيها الإنسان، وليس فيها خدمات ولا دورات مياهٍ، حتى ما كان عندهم بالطَّبيعي نوافذَ كبيرةً ولا مُكيِّفاتٍ، وإنْ كانتْ ما تزال بعض السُّجون إلى اليوم سيِّئة، ولكن أنا أقصد أنَّهم سجنوا الإمام أحمد في أسوأ السُّجون حتى يُلزموه أنْ يستجيب لرأيهم، ومع ذلك ثبُتَ الرَّجلُ كالجبل على رأيه، ثُمَّ بعد ذلك لما تولَّى الوَاثِق كان أقلَّ حَنَقًا على الإمام أحمد، فأخرجه مِن السِّجن، لكنَّه منعهُ مِن التَّدريس ومن الصَّلاة في المسجد، ومنعه أيضًا مِن إلقاء الدُّروس والمحاضرات ومُقابلة النَّاس، أيُّ واحدٍ يُقابله يسجِنُه مباشرةً.

أحمد بن حنبل في بيته، دخل نقيُّ بن مَخْلَدٍ مِن الأندلس حتى وصل مكَّة، ومِن مكَّة إلى بغداد، مشوارٌ طويلٌ على قدمَيْه لأنَّه فقيرٌ ليس له دابَّةٌ، فلمَّا دخل إلى بغداد، وسأل عن الإمام أحمد؛ قالوا: ماذا تريد منه؟، قال: أنا أُريد أنْ أتعلَّم العِلم، فقالوا له: لا فالإمام أحمد الآن لا تستطيع أنْ تتعلَّم منه العلم، فالإمام أحمد محبوسٌ في بيته ممنوعٌ مِن الخروج، فأخذ يدور، فذهب إلى المسجد، فلما ذهب إلى المسجد؛ فإذا حلقة فيها

يحيى بن مَعين، وهو عالمٌ مِن العلماء، فدخل، وقال: السَّلام عليكم، ثُمَّ قال: لقد جئتُ مِن الأندلس، ولي حقٌّ عليك أنْ أطرح عليك عددًا مِن المسائل، فقال: تفضل، وكان عنده طُلابه، فقال: ما تقول في الرَّاوي فلان؟، قال: هذا رجلٌ صَدوقٌ ولكنه ينسى كثيرًا، فلا تعتمد على حديثه، قال: وفلانٌ؟، قال: فلانٌ كذا، قال: وهشام بن عمَّار؟، قال: ثِقةٌ، صَدوقٌ، ثِقةٌ فوق الثِّقة، فقال الطُّلاب الذين عنده: بسرعة، غيرك له مسائل، عجِّل، قال: فقمت، ثُمَّ قُلت: بَقِيَ رجلٌ أسألك عنه..

طبعًا نقيّ بن مَخْلَدِ الآن، واقفٌ على هذه الحلقة ليحيى بن مَعينٍ، ويحيى بن مَعينٍ عند طُلابه يُحدِّثهم في المجلس، ولكم أنْ تتخيَّلوا معي هذا المجلس وهذا الحال الذي هُم فيه، ونقيّ بن مَخْلَدِ واضحٌ عليه أنَّه قد أتى مِن خارج البلد الذي هم فيه، فقال: لمَّا قُمت؛ قلت: بقي رجلٌ واحدٌ أسألك عنه، قال: مَن؟، قال: أحمد بن حنبل، يقول فقال لي: أنا أُسأل عن أحمد بن حنبل؟ ذاك الجبل، أحمد بن حنبل هو الذي يَسأل عني، ليس أنا مَن تقول له ما رأيك في أحمد بن حنبل، هل صدوقٌ أم غير صدوقٍ، يضبُط الحديث أم لا يضبط الحديث، لا.. أحمد بن حنبل هو الذي يُسأل عنِّي، أنا الضَّعيفُ المسكين الذي أفرح عندما يقول أحمد بن حنبل إنِّي أحفظ أو شيءٌ مِن ذلك..

قال نقيٌّ فقُمتُ ثُمَّ مضيت حتى طَرقْتُ باب الإمام أحمد، ففتح لي الباب، قلت: أنا رجلٌ جئتُ أطلب العِلم، قال له: نعم، ولكن لعلَّه قد بلغَكَ خبري، قلت: نعم قد بلغني، ولكنِّي جئتُ واللهِ مِن مكانٍ بعيدٍ، قال: مِن أين جئت؟، قُلتُ: جئت مِن بلاد المغرب، قال: مِن

إفريقيَّة؟، قلت: لا، أنا أجوز البحر حتى أصل إلى المغرب، أنا مِن الأندلس، أركب البحر حتى أصل المغرب، فجئتُ مِن هُناك إلى مكَّة إليك لأطلب العِلم، فقال أحمد بن حنبل: واللهِ إنَّ لك حقًّا، لكن أنت رأيت ما الذي بلغ بنا، فما أستطيع أنْ أُعلِّمك أو أحدِّثكَ بشيءٍ، فقلت: لابدَّ مِن ذلك، فقال: لي حسنًا، تعال كلَّ يومٍ في زيِّ السُّؤال (أي الشَّحَّاذين الذين يطلبون مِن النَّاس صدقة)، ثُمَّ صِح في الباب: الأجر.. الأجر، فسأفتح لك الباب، وسأصنع كأنِّي أضعُ لكَ طعامًا، وأنا أضعُ لك الطَّعام أُحدِّثُك بالأحاديث..

فطبعا أحمد بن حنبل يدري أنَّ الخليفة لَمَّا منعُه مِن التَّحديث؛ جَعَل عنده مباحث حوله يرون هل يُحدِّثُ أحدًا أم لا يُحدِّثُ أحدًا، هل خرج من بيته أم لم يخرُج، فهو يدري أنَّ هناك مُراقبين، فأحمد بن حنبل قال له: تعال في لبس الشَّحَّاذين ومعك كيسٌ كأنَّك تسأل النَّاس، وأنا كلَّ يومٍ أضع لك الطَّعام أُحدِّثُك بالأحاديث، عشرة أحاديث، خمسة أحاديث، ما تيسَّر، ثُمَّ قال أحمد: ولكن احذر لا أريدك أنْ تُرى في مجالس العِلم حتى لا يقول المباحث هذا يطلب العِلم عند يحيى بن مَعين، وبعد المغرب يشتغل شحَّاذًا، فهذا أمرٌ غريبٌ، فقال: لا أريد أن يراك أحد في مجالس العِلم، ولا يظهر عليك مظهر طالب العِلم أبدًا، فأعطاه هذه الخُطَّة، فكيف طُبِّقت هذه الخُطَّة؟، وهل استطاع نقيّ بن مَخْلَدٍ عالم الأندلس، أنْ ينضبطَ في هذه الخُطَّة التي أعطاها له أحمد بن حنبل؟، أم افتضح الأمر وتورَّطا؟..

نقيّ بن مَخْلَدٍ رأى أنَّه ليس هناك طريقةٌ ليأخذ العِلم مِن أحمد بن حنبل

إلا هذه الطَّريقة، فأصبح كلَّ يوم يأتي وعليه ثيابٌ ومعه عصا ومعه كيسٌ مِن ذلك الذي يحمله الشَّحَّاذون، ويأتي ويبدأ يصيح: الأجر رحمكم اللهُ، الأجر رحمكم اللهُ، فيخرُج الإمام أحمد إليه، ويُدْخِله ثُمَّ يبدأ يُحدِّثُه بأحاديث وكأنَّه يُعطيه كسرةً مِن خُبْزٍ، فيُعطيه أربعةَ أحاديثَ أو خمسةَ أحاديثَ، والرَّجل يحفظ مباشرةً ما يحتاج أن يكتُب، ثُمَّ يخرُج، ومَضَتْ أيَّامٌ على هذا الحال، حتى فرج الخليفة الواثق عن الإمام أحمد، وأهدى إليه شيئًا مِن الهدايا، ولكن لم يقبلها أحمد بن حنبل وأخذها بعض أولاده، وأصبح الإمام أحمد له درسه في المسجد يدرِّسُ الطُّلاب ويعلِّمهُم، فكان نقيّ بن مَخْلَدٍ يحضر معه كبقيَّة الطُّلاب، فكان الإمام أحمد يُدنيه ويعْرِفُ له قدرَه، ويعرف أنَّ هذا حريصٌ على طلب العلم ومُجْتَهِدٌ.

افتقده الإمام أحمد مرَّة، فسأل عنه فقيل هو مريضٌ، وكان نقيّ بن مَخْلَدٍ فعلاً، قد مرض واستأجر غرفةً في فندقٍ وجلس فيها، وكان مرضُه شديدًا، يقول نقيّ بن مَخْلَدٍ: فبينما أنا على هذا الحال في مرضي؛ إذ سمعت جلبةً في النُّزُل (الفندق) وصُراخًا، ومَن يقول: نعم، هذا هو لقد جاء، لقد وصل، لقد صَعَدَ، أحضروا، افعلوا، وأنا لا أدري عمَّن يتحدثون أو مَن هذا الذي جاء، يقول: فإذا هو أحمد بن حنبل جاء إليَّ يزورني..

قال: جاء إليَّ وإذا حوله طُلابه جاءُوا معه، فأقبل حتى دخل عليَّ، قال: فوضع يده على رأسي والطُّلاب ينظرون إليَّ يتعلمون السُّنَّة والأدب، ترى الإمام أحمد بن حنبل، يقول ابن الجوزيِّ: كان يحضر مجلس الإمام

أحمد خمسة عشر ألفًا، مِنهم خمسة آلاف يكتبون الحديث، وعشرة آلاف يتعلَّمون السَّمْتَ، أي الأسلوب والطَّريقة وطريقة إجابته على الأسئلة وحركاته وأخلاقَه، يتعلَّمون منه طريقتَه فقط وهم يحفظون أحاديثه، يقول نقيّ بن مَخْلَدٍ: فقال لي: اصبر واحتسب، وأيَّام السَّقم لا صِحَّةَ فيها، وعسى الله أَنْ يُعَظِّم لك الثَّواب، قال: ثُمَّ خرج عنِّي والطُّلاب يكتبون ما قال، يقول فلمَّا خَرَجَ؛ أقبل إليَّ صاحب النُّزُل (مدير الفندق) قال لي: ما علاقتك بالإمام أحمد بن حنبل؟، قلت: والله ما في علاقة، لكن أنا مِن طُلابه، وهو يحبُّني، قال: إذن والله تسكُن مجانًا، قال: فصار هذا يأتي إليَّ بفراشٍ، وهذا يأتي إليَّ بطعام، وهذا بشرابٍ، يقول: فوالله حتى أصبحوا أكثرَ عنايةٍ بي مِن أهلي لو أني بين أظهرهم.. فهذا شرف الإمام أحمد، وهذا شرف نقيّ بن مَخْلَدٍ لمَّا تعلَّم مِنه هذا العِلم..

هؤلاء السَّابقون لمَّا بذلوا في سبيل طَلَبِ العِلم أموالَهم وجهودَهم وتعَبُوا ونصَبُوا في سبيل طلب العِلم، استطاعوا فعلاً أنْ يُعزُّوا الأُمَّة بطلب العِلم، نحن اليوم المشكلة عندنا أنَّ كثيرًا مِن النَّاس أَعْرَضَ عن تعلُّم العِلم الشَّرعيِّ، وأصبحت كما قال النَّبيُّ (عليه الصَّلاة والسَّلام): «إنَّ بين يدَي السَّاعة لأيامًا يُرفع فيها العِلم ويُنْزَل فيها الجهل»، وفي روايةٍ قال «صلواتُ ربِّي وسلامه عليه»، والحديث في البُخاريِّ، قال: «إنَّ بين يدَي الساعة لأيَّامًا يُرفُع فيها العلم ويفشوا فيها الجهل»، أي ينتشر فيها الجهل بين النَّاس، حتى أصبح النَّاس يسألون أحيانًا عن أمور تعجب أنَّهم يجهلونها، يسألونك عن أمورٍ في الطَّهارة، وكان يجب أنْ يعرفوها مِن زمان.. يسألك عن أمرٍ يتعلَّق بالصَّلاة، تقول: عجيبٌ

إلى الآن وعمرك أربعون سنةً لَمْ تعرف أنَّ هذا خطأ في الصَّلاة، وأنَّ هذا سُنَّة وأنَّ هذا صوابٌ؟!..

حتى بدأ النَّاس لليوم، مع الأسف، يُعْرِضون عن ذلك إعراضًا شديدًا، وأصبح الواحد مِنهم بَصيرًا بكلِّ مصيبةٍ في مآله، وإذا أُصيب في دينه؛ لم يُبصر، وأصبحوا فعلاً الواحد يُتقن علم الكمبيوتر، وعلم السَّيَّارة، ولو تقول كيف أعمل بالجوَّال؛ يجيبك بمهارةٍ، ولو تسألُه وتقول له: ما شاء الله عندك معلوماتٌ دقيقةٌ يقول لك: عندي كمبيوتر وعندي معلوماتٌ، تسأله: ما معنى اللهُ الصَّمدُ؟، ما معنى غاسقٌ إذا وَقَب؟، لو قام الإمام لركعةٍ خامسةٍ؛ متى تسجد للسَّهو قبل السَّلام، ومتى تسجد للسَّهوِ بعد السَّلام؟؛ لوجدت أنَّه يقول لك لا أدري!!، الأوَّلون، مع شدَّة العلم عندهم وعدم سهولة طلبه؛ إلا أنَّهم كانوا يطلبونه حتى بلغوا الدُّنيا، فصاروا منارًا للبلاد وسُرُجًا للعباد.. الإنسان يتعب ويقطع الفيافي والقِفار، وربما ضلَّ في الصَّحراء، وربما مشى في البرِّ وحدَه والرِّيحُ تعبث بثيابه وتعبث به يمينًا ويسارًا، وربما سَقَطَ على الأرض، وربما تُوفِّيَ بعضهم في سبيل أنْ يرحل في طلب العِلم، حتى ألَّفوا كُتُبًا اسمها الرِّحلة في طلب الحديث وفي طلب العلم، ولكنَّ القضيَّة ليست هنا، القضيَّة أنَّ أُولئك بذلوا في سبيل طلب العلم.....

نحن اليوم طلب العلم سهلٌ، طلب العِلم الشَّرعيِّ سهلٌ، يتعلَّم الإنسان القراءة مِن الكُتُب، تُباع بأرخص الأَثمان، ويُمكن أنْ يحصُلَ عليها بالمجَّان، يطلبه الإنسان عبر السِّيديهات والمكتبات وعبر الإنترنت، يطلبه عبر الفضائيَّات أيضًا، حَرِصَ الإنسان على أنْ يتعلَّم

أيضًا مِن خلال مجالِسِه التي يجلس فيها، فالمعنى أنَّه لا أحد معذورٌ اليوم في تحصيل العِلم الشَّرعيِّ، لا يُعذَر أحدٌ اليوم، ربَّما كان في السَّابق يُعذَر؛ لأنَّه ما يعرف يقرأ ولا فيه كتبٌ يتعلَّم، لكنَّ النَّاس اليوم الأمر عندهم في غاية السهولة، ومع ذلك تجد الكثيرين يُعرِضون عن هذا، لا الأبُ يُعلِّم أولاده ولا الأُمُّ تحرِص على ذلك..

أختم بحادثةٍ طريفةٍ وَقَعَتْ بين الأعمش وأحد الطُّلاب، وفيها نوعٌ مِن الاحتيال لطلب العلم، أقبل أحد طُلاب الأعمش، جاء من مكانٍ بعيدٍ طلبًا للعِلم، وصلَّى مع الأعمش صلاةَ المغرب، ثُمَّ أراد أنْ يقومَ ويحضر الدَّرس، فقال الطُّلاب الذين معه: اليوم ما فيه حديثٌ، ما فيه درسٌ، فقال: لماذا، فقد جئتُ مِن مكانٍ بعيدٍ، جئتُ مِن بلدٍ آخرَ، وتركتُ بلدي وأهلي، قالوا: لا.. اليوم الشَّيْخ غضبان، سألناه اليوم أسئلةً غير مناسبةٍ، فغضب وأقسم ألا يُدرِّسنا شهرًا، قال: شهرٌ كاملٌ بدون حديثٍ ولا شيءٍ، قالوا: نعم، ونحن نريد أنْ نكتبَ الحديث ونذهب لأهلنا، لكن هو لأجل أنْ يؤدِّبَنا؛ منعنا شهرًا..

فقام الطَّالب إلى الأعمش، وكان الأعمش كفيفًا لا يُبصر جيِّدًا خاصَّةً في الليل، فقال له: يا شيخ أنا جئت من مكانٍ بعيدٍ فأرجو أنْ تُراعي وضعي، فقال: لا.. شهرًا كاملاً ولا حديث، وقد أقسمتُ، ثُمَّ قام الأعمش ومعه عصاه، فقال: إذن يا شَيْخ أنا سأوصِّلُك لبيتك، قال له: جزاك اللهُ خيرًا، فأمسكه بيده وخرج به مِن المسجد، وبدلاً مِن أنْ يذهب به يسارًا إلى بيته، ذهب به يمينًا إلى الصَّحراء، فمشى به ومشى، والأعمش ما يدري، حتى إذا مشى مسافةً سأل الأعمش:

أين وصلنا؟، فقال له: يا شَيْخ نحن الآن في الصَّحراء، في البَرِّ، إما أن تحدِّثَني مائة حديثٍ، وإلا تركتُك في هذه الصَّحراء، ونحن في الليل الآن وحدنا في هذه الصَّحراء وتموت، وغدا نخرجك من بطن ذئبٍ أو أفعى، فحدّثني مائة حديثٍ أو أتركك، فقال الأعمش: حرامٌ عليك، فقال له أنت حرامٌ عليك، أنا جئتك مِن مكانٍ بعيدٍ، وما فعلت معك مشكلةً وتحرمني مِن الأحاديث، فلما رأى الأعمش أنَّه لابدَّ، قال له اكتب، حدَّثنا فلانٌ.. وظلَّ يكتُب ويكتُب حتى كَتَبَ مائة حديثٍ، ثُمَّ أَخَذَ الصُّحُفَ معه ومضى به إلى بيته..

فعندما دخلوا إلى البلد أعطى الطَّالب الصُّحُفَ لأحد زملائه، وقال: أمسك بها، ثُمَّ أوصله إلى بيته، فلمَّا وصل إلى البيت تعلَّق به الأعمش، وقال: أيُّها النَّاس!!.. هذا لصٌّ خُذوا الصُّحُفَ التي معه، فقال: يا شَيْخ ما معي صحفٌ، الصُّحف أعطيتها أحدَ زملائي، فقال الأعمش: طيِّب كلُّ الأحاديث التي حدَّثْتُك ضعيفةٌ، ما حصلت، فقال: والله أنت أتقى من أنْ تكذِبَ على رسول اللهِ (ﷺ).. قال الأعمش: صَدَقْت، ولكنِّي أردتُّك أنْ تمحوها ثُمَّ يُصيب قلبك مِن الحُرقة مثلما أصاب قلبي.. فكانوا في طلبهم للعِلم يحتالون أحيانًا مِن أجل طلب العِلم والاستفادة منه..

أسألُ اللهَ تعالى لي ولكم التَّوفيق والسَّداد، وأنْ يرزقنا وإيّاكم العِلمَ النَّافعَ والعملَ الصَّالحَ.



نحن والبيئة.. مَن يغير مَن؟

يتأثَّر الإنسان عادةً بالطَّبيعة مِن حوله، فمن أراد أنْ يُغيِّرَ مِن حياته، أوْ يُغيِّرَ مِن طريقته أو حتى مِن لُغتهِ؛ فعليه أنْ يُغيِّر البيئة التي يحتكُّ فيها.. إذا لاحظتُ على ولدي عددًا مِن الأخلاقيَّات السَّيِّئة مثلاً، أو ربما أيضًا لاحظتُ عليه عبارات لم أتعوَّد عليها أو لهجةً جديدةً أنا لم آلفها منه؛ فأوَّل شيءٍ أسأله وأقول له: يا ولدي، هل تعرَّفتُ على أحدٍ جديدٍ؟.. لو سمعت منه لهجةً غريبةً، لقلتُ: أنت تعرَّفت على طالبٍ أو زميلٍ ينتسبُ للبلد الفلانيِّ.. مِن الطَّبيعي أنْ يتأثَّر الإنسان بمَن حولِه..

تعالوا ننظر في قصَّةٍ عجيبةٍ لشاعرٍ أَقْبَلَ مِن الصَّحراء ودخل إلى المدينة،

وهو كان في الصَّحراء يعيش في خَيْمةٍ قديمةٍ، يلتفت يمينًا ويسارًا، فلا يرى إلا الإبل والغنم والبئر.. ثقافته تتعلَّق بهذه البئر وبالغنم التي يرعاها في كلِّ يوم.. لا يستطيع أنْ يتجاوز بثقافتِه المحيط الذي حوله في هذه الصَّحراء، رُبَّما يعرف الكلام عن الرِّياح والكلام عن الحرِّ والبرد، ولكن إذا أردته في غير ذلك؛ ربما لا تجده عندك.. هذا الشَّاعر أقبل إلى المدينة، ودخل على الخليفة المتوكِّل، فوقع له مع المتوكل قصَّةٌ عجبٌ..

دخل هذا الشَّاعر، عليّ بن الجهم، على الخليفة المُتوكِّل، وقد سَمِعَ أنَّه يُجيز الشُّعراء ببعض الأموال والهدايا، فدخل فإذا هذا الشَّاعر يقول للخليفة: يا أمير المؤمنين أنت كالشَّمس في سطوعِك فأعطاه هديَّةً، وجاءه الثَّاني قال: يا أمير المؤمنين فضلِك كالنُّجوم السَّاريات، فأعطاه هديَّةً، حتى جاء الدَّور على عليّ بن الجهم ليلقيَ قصيدةً بين يدَي الخليفة، الرَّجُل أصلاً الطَّبيعة والبيئة التي عاشها تسوقه إلى أسلوبٍ مُعيَّنٍ ربما لا يستطيع أنْ يُغيِّرَه، فماذا قال؟، قال: يا أيُّها الخليفة:

أنت كـــالكلبِ في حفاظك للودّ وكـــالتَّيْس في قِراع الخطوب

أنت كـــالدَّلو لا عدمتك دلوًا مِن كـــبيرِ الدِّلا كثير الذَّنوب

فشبَّهه بالكلب ثُمَّ بالتَّيْس، ثُمَّ شبَّهه بالدلو، وليس أيُّ دلوٍ؛ بل دلوٌ كبيرٌ كثيرُ الذَّنوب، والذَّنوب هو الماء الذي يستخرجه أو دُفعات الماء التي تُستخرج مِن البئر، والمُتوكِّل كان معروفًا بشدَّة الغضب والغَيْظ، فلما سمعه؛ اغتاظ وغضب.. الوزراء الذين حول المتوكل لَمَّا رأوه غَضب؛ علموا أنَّه سيأمر به، ويقطع رأسه ما في كلام، فابتعدوا قليلاً وجمعوا ثيابهم حتى لا يصيبهم الدَّم، ولكن المُتوكِّل ذلك اليوم يبدو أنَّ

الله تعالى رزقه رِفقًا ولِينا، فأدرك أنَّ الرَّجل المسكين قَصْدُه أنْ يمدح، فالكلب عنده يُعتَبر مثالا للوفاء والحفاظ على الود، والتَّيْس يعتبر في القِراع لا يُشقُّ له غبارٌ.. الدَّلو والماء بالنِّسبة إليه هي سرُّ الحياة.. وهو يحيا به والمِسكين يتكلَّم مِن واقعه، فأمر به فأُسْكِن في القصر الفلانيِّ، وأمرَ أنْ يجلس مع الشُّعراء الفلانيِّين، فلان وفلان مِن الشُّعراء الذين عندهم نوعٌ مِن الغزل والرُّومانسيَّة، وأمر أنَّ الذي يُحضَر إليه الطَّعام أجمل الجواري، ثُمَّ بعدما مضى عليه قُرابة أسبوعَيْن أو ثلاثة، قال: عليَّ بعلي بن الجهم، فجاءوا بعليّ بن الجهم وأوقفوه بين يدَيْه، فلمَّا وَقَفَ بين يدَيْه؛ قال الخليفة: ها يا علي، أنشدني مِن أشعارك، فقال:يا أيُّها الخليفة،

عيون المها بين الرَّصافة والجِسر جلبنَ الهوى مِن حيث أدري ولا أدري

وجعل يسيل شِعره شاعريَّةً ونعومةً وغزلاً، فأدرك فعلاً الذين حول الخليفة سرَّ الخليفة أنَّه لم يُعاقبه في المرَّة الأولى؛ لأنَّه عَلِمَ أنَّ الرَّجل لم يتعمَّد ذلك، وإنَّما هو أمرٌ تعوَّد عليه ويظنُّه ثوابًا.

تعالوا نُنزِلُ ذلك على واقِعنا.. كم مِن شابٍّ وقع في أنواعِ مِن المُنكرات أو أنواعِ مِن الخيرات، ثُمَّ إذا تأمَّلت وجدت أنَّ أصحابه والذين حوله هم الذين دعوه إلى هذا الشَّرِّ أو إلى هذا الخَيْر!، كَم مِن فتاةٍ كانت ملتزمةً بحجابها، حافظةً للسانها، عفيفةً عن إقامة علاقات مُحرَّمةٍ، وعلاقتها بأمِّها وأبيها مِن أروع العلاقات، ومع ذلك بعدما تتخرَّج مِن المُتوسِّطة الإعداديَّة إلى الثَّانويَّة أو رُبَّما مِن الثانويَّة إلى الجامعيَّة؛ تجد أنَّها تبدأ تتغيَّر أخلاقُها وطبيعتُها وطريقتُها وأسلوبُها.. ما السَّبب؟!..

السَّبب البيئة التي انتقلت هذه الفتاة إليها؛ لذلك ذكر اللهُ جلَّ وعلا ما يتعلَّق بالصُّحبة التي تكون بين النَّاس، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً﴾ [سورة الفرقان- الآية ٢٧].. فما الذي منعك أنْ تتَّخذَ مع الرَّسول سبيلاً، وما الذي أحال بينك وبين ذلك؟.. ﴿يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً﴾ [سورة الفرقان- الآية ٢٨].. طيِّب لمَّا اتَّخذته خليلاً، ماذا حدث؟.. ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولاً﴾ [سورة الفرقان- الآية ٢٩]..

السَّبيل الذي تنكَّبته وذهبت عنه، سبب تنكُّبي عنه وبُعدي، ذلك الخليل الذي أضَّلني عن الذِّكر إذ جاءني.. في حلقات قرآن؛ قال لي لا تُشارك.. في قنواتٍ فضائيَّةٍ مُحافظةٍ؛ قال لا تنظر إليها... قرآنٌ؛ قال قرأت الجمعة الماضية.. صَوم الاثنين؛ قال قد صُمنا رمضان وكفى.. أردت أحضر محاضرةً؛ قال يكفي.. أردت أن أقطع علاقتي بتلك الفتاة؛ لأنَّها محرَّمةٌ؛ قال يا أخي عِش شبابك.. هذا الذي جاءك الذِّكر فصدَّك عنه..

وكما قال تعالى في آيةٍ أخرى، لَّما ذَكَرَ الله تعالى أهل الجنَّة وما هم فيه مِن النَّعيم والأُنس والسُّرور؛ ذَكَرَ الله عز وجل حالة صديقٍ كان صديقُه يجرُّه إلى الفساد، فأحيانًا ربما بعض النَّاس يكون قصدُه خيرًا وصلاحًا، ولكن له أصحابٌ يجرُّونه للفساد.. قال تعالى عن أهل الجنة: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١)﴾.. كان لي صاحبٌ في الدُّنيا، إذا كنت في المدرسة نتحدَّث سويًّا، ونجلس سويًّا بالمدرسة أو بالحارة، وبيننا ودٌّ دائمٌ حتى أصبحنا قُرناء، ولكن هذا القرين ما

هو حاله فقد كان قرينًا فاسدًا.. ﴿يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنْ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣)﴾.. يقول أنت تصدِّق أنَّه هناك يوم قيامةٍ أو آخرةٍ؟!!.. ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ (٥٤)﴾.. في الجنة بحثوا عن صديقه هذا؛ فلم يجدوه في الجنَّة، وما دام ليس في الجنَّة؛ فهذا يعني أنَّه في الدَّار الثَّانية، في النَّار، ليس بعد الموت من دارٍ إلا الجنَّة أو النَّار.. ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاء الْجَحِيمِ (٥٥)﴾.. لمَّا رآه على ذلك ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدتَّ لَتُرْدِينِ (٥٦)﴾.. والله كدتُ أنَّك تُفسدُني معك وتخرِّبني.. ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩)﴾.. قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ (٦١)﴾ [سورة الصَّافَّات]..

لذلك إذا أردت فعلاً أنْ تتغيَّر؛ غيِّر البيئة التي أنت فيها، المُتوكِّل غيَّر بيئة عليِّ بن الجهم، فنقله من مكانٍ إلى آخر، وأنت أيضًا تستطيع أنْ تُغيِّرَ نفسَك.

مِن أعجب ما وقفت عليه في ذلك، قصَّةً حدَّثني بها أحد الشَّباب مرَّة في أحد الأسواق بعدما ألقيت محاضرةً، فما هي هذه القِصَّة؟، وما هي عبرتها؟..

كنت مرَّةً في إحدى بلدان الخليج، وألقيت محاضرةً، وكانت تتكلَّم عن هذا الموضوع تقريبًا؛ فيما يتعلَّق بحُسن العلاقة بالله عزَّ وجلَّ والبُعد عن البيئة الفاسدة التي رُبَّما تجرَّني إلى الفساد، وأنَّني كلَّما أردت أنْ

أحسِّن مِن نفسي؛ ينبغي أنْ أُغيِّرَ بيئتي، من يُريد أنْ يتركَ المُخدِّرات؛ فلا يُجالس أصحاب المُخدِّرات، ولا يصاحِبُهم، وعليه أن يحذف جميع أسمائِهم من هاتفه.. إنسانٌ لا يريد أنْ يدخِّن؛ فلا تجالسهم ولا تسمح لهم أنْ يدخِّنوا أمامك.. إنسانٌ يريد أنْ يترك الفواحش؛ فابتعد عِن الاختلاط والعلاقات المُحرَّمة.. امسح جميع أرقام النِّساء الفاسدات في هاتِفك، فلابدَّ يا جماعة إذا أراد الإنسان أنْ يُغيِّر مِن حياته، أن يُغيِّر مِن طريقته؛ لابدَّ أنْ يتَّخِذَ قراراتٍ في حياته يُصلِحُ بها حالَه..

شابٌّ بعد المحاضرة التي تكلَّمتُ فيها عن هذه النقاط، قام وقال: يا شيخ أنا عندي مُداخلةٌ، قلتُ: تفضَّل، قال: يا شيخ أنا قبل فترةٍ معي مجموعةٌ مِن زملائي، وقالوا نُريد أنْ نسافِر لإحدى البلدان، وهذا البلد عربيٌّ مسلمٌ، ولكن ينتشر فيه أنواعٌ مِن المنكرات والفواحش وشُرْبُ المُسْكِرات، قلت: أنا سأذهب معكم، ولكن أشترط ألا ندخل أيَّ مكانٍ فيه نوعٌ مِن الفساد، قالوا: نوافق، ومضت ثلاثةُ أيَّام أو أربعةُ أيَّام، ونحن نذهب إلى المطاعم والأسواق وأحيانًا إلى مُدن الألعاب وكذا، وفي ليلةٍ مِن الليالي توجَّهوا لأحد الأماكن التي فيها نوعٌ مِن السُّكر والفاحشة، قلت: يا شباب لقد اتَّفقنا ألا نذهب لهذه الأماكن، فهذه كبائر ومنكرات، ولا يجوز واتقوا الله، فقالوا: يا شَيْخ عِش شبابَك وتعال، وحاولوا يا شَيْخ أنْ يجرُّوني، ولكنِّي ولله الحمد كان عندي مِن الإيمان واليقين ما يجعلني أستطيع أنْ أخالِفَهُم، وذهبتُ إلى الشَّقَّة.. جلسوا ربما ساعتَيْن أو ثلاثة، ثُمَّ سمعت باب الشقة يُفتح وأنا في غرفتي، وكنت قد أغلقت باب الغُرفة عليَّ، فسمعتهم ومعهم أصواتُ

نساءٍ، فعلمتُ أنَّهم أرادوا أنْ يكملوا سهرتهم المُنكَرة في الشَّقة..

يقول: فبعد عشر دقائق أتى أحدهم وطرق عليَّ الباب.. افتح يا فلان، فما فتحت، قال: افتح واخرج إلينا وانبسط وعِش حياتك، فقلت له: أنا أعيش حياتي، ألا أعيش حياتي إلا إذا وقعت في الفاحشة وشَرِبْتُ الخمر؟!.. الحمد لله أنا أعيش حياتي بدون هذه الأمور ومبسوطٌ ومِرتاحٌ وأضحك.. هل يجب أنْ أفعل الفاحشة وشُرب الخمر حتى أعيش حياتي؟!، لا والله لن أخرج إليكم.. يقول: فبعد عشر دقائق أخرى طرقوا الباب مرَّةً ثانيةً: افتح، فقلت: لن أفتح، فقالوا: افتح وأعطنا شاحن الجوَّال اللي عندك، يقول: فالتفتُّ، فإذا فعلاً هناك شاحن جوَّال، نزعته وفتحت الباب لأعطيهم إياه، فإذا بهم يدفعون الباب ويدفعون فتاةً إلى الدَّاخِل ويأخذون المفتاح مَباشرةً ويقفلون الباب مِن الخارج، بدأت أصرخ: افتح يا كذا.. افتح الباب، وهم يضحكون ولا يلتفتون إليَّ، ويبدو أنَّهم جعلوا لهذه الفتاة مالاً مِن أجل أنْ تمكِّنَني مِن نفسها، يقول: فأخذتُ أقول لها ابتعدي.. حرام.. اتَّقي الله.. ما يجوز، وهي تحاول أنْ تغويَني، فلمَّا لاحظتُ أنَّها لا ترعى ولا تندفع بالوعظ وأصحابي يضحكون بالخارج، يقول: فأردت أنْ أخوِّفها وأُبْعِدها عنِّي، قلت لها: ابتعدي فأنا مصابٌ بالإيدز، إذا اقتربتِ منِّي؛ تُصابين بالإيدز، فابتعدي، فإذا بها تقول لي: عادي، أنت مصاب بالإيدز منذ متى؟، قلت: أنا عندي الإيدز منذ سنةٍ كاملةٍ، فقالت له: عادي، وأنا عندي الإيدز منذ سنتَيْن، عادي..

يقول: والله يا شيخ لما قالت هذا الكلام، وتقول إنَّه عادي لأنَّ كلينا

مصابٌ بهذا المرض، قال: فلمَّا قالت ذلك، صرختُ وقلت: يا شباب إيدز مرض إيدز، يقول ففتحوا الباب، وأخرجوها مِن عندهم خوفًا مِن الإيدز، لا خوفًا مِن الله، يقول: فأيقنتُ يا شَيْخ فعلاً أنَّ الفاسدين لا يرضون منك أنْ تكون صالحًا، فلو قالوا مثلاً نحن سنقع في المُنكرات، لكن أنت ما شاء الله عليك، على تقى وصلاحٍ وكذا، نسألُ اللهَ أنْ يوفِّقنا ونكون مثلَك؛ لكان الأمر حَسَنًا.

القضيَّة يا جماعة كما قال الأوَّل، ودَّت الزَّانية لو أنَّ النِّساء كلهنَّ زنَيْنَ؛ لذلك أنا أقول لكثيرٍ مِن أبنائي وبناتي والأخوات، ربما أحيانًا يُرسل ويتَّصل، ويقول: يا شَيْخ ادع لي بالهِداية.. يا شَيْخ أنا أُريد أنْ أهتدي، يا جماعة ليس بأمانيِّك ولا أمانيِّ أهلِ الكِتاب.. مَن يعمل سُوءًا يجز به.. مَن يعمل سوءًا يُجز به، والقضيَّة ليست بالأماني، وما نيلُ المطالب بالتَّمنِّي ولكن تُؤخذ الدُّنيا غلابًا..

إذا أراد الإنسان فعلاً الهِداية؛ لابدَّ أنْ يبذل لها أسبابَها.. إنسانٌ يأتي ويبذر مثلاً برتقالا؛ فلا يُمكن أنْ تطرح له موزا أو عنبا، بل تُخْرِج برتقالا، كذلك الإنسان الذي يأتي ويُضيِّعُ الوقت في فسادٍ وتضييع، ثُمَّ يلتفت ويقول والله فلانٌ ما شاء اللهُ عليه؛ تخرَّج مِن كلية الطِّبِّ، وصاحبي هذا مِن كُلِّيَّة الشَّريعة، والثَّالث مُهندس، وأنا جالسٌ هكذا، نقول: نعم؛ لأنَّ هذا ضيَّع وقتَه مع فاسدين؛ لذلك كثيرٌ ممَّن وقع في المُخدِّرات، وأنا والله قد رأيتهم بعينيَّ، زُرْتُ عددًا مِن السُّجون، وأرى الذين وقعوا في المُخدِّرات وألقي عليهم محاضرات، بل أرى أيضًا الذين عليهم قضايا قتل، وقد حَكَمَ عليه القاضي أنْ يُقْتَلَ، ومع ذلك

إذا تحدَّثتُ معهم؛ وجدتُ أنَّ الذي جرَّه إلى هذا هو البيئة التي حوله.. القاتل لم تلده أمُّه في مستودع أسلحةٍ، أو أوَّل ما فتَّح على الدنيا، رأى بجواره أسلحةً وصار قاتلاً، أو متعاطي المُخدِّرات، ما ولدته أُمُّه ومعه حشيشٌ وهيروين وغيره، بل وُلد مثل بقيَّة النَّاس، لكنَّ القضيَّة أنَّ صحبته مِن حوله، هُم الذين صحِبُوه حتى أفسدوه، وهو لم يحرص على أنْ يُغيِّرَ البيئة التي حوله..

لَمَّا قرأ الحسن البصريُّ قول الهع جلَّ وعلا في وصف حال أهل دار البوار، النَّار، قال سبحانه وتعالى يقولون ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٠٤)﴾ [سورة الشُّعراء].. قال الحسن البصريُّ: استكثِروا مِن الأصحابَ الصَّالحين في الدُّنيا، حاول حتى ولو لم تُصاحِبهم، على الأقل تعرفُهم، يعني أنا قد لا أُصاحب إمام مسجدنا، قد لا أُصاحب حافظ للقرآن، قد لا أُصاحب أحيانًا ربما إنسانًا طالبَ عِلمٍ، ولكن على الأقل يكون بيني وبينه معرفةٌ، يعرف وجهي وأعرفه، يعرف اسمي.. ليس شرطا أنْ أراه يوميًّا، ولكن أراه حتى كلَّ أسبوعَيْن مرَّةً، وعلى الأقل يعرفني.. إذا جئت قال: مرحبًا يا فلان..

يقول الحسنُ البصريُّ: استكثروا مِن الأصحاب الصَّالحين في الدُّنيا، فإنَّهم ينفعون يوم القيامة، قالوا له: كيف؟، قال: إنَّ أهل النار بينما هم فيها وقد شَفَعَ الأنبياء، وشَفَعَ الشُّهداء، وشَفَعَت الملائكة، وإذا بأهل الجنَّة يتحدَّثون، فيقول قائلٌ مِن أهل الجنَّة: ما فعل صديقي

فلان؟، ما يجده معه في الجنَّة، صديقٌ كان معه في الدُّنيا وليس كافرًا مثلاً بالله العظيم، بل مؤمنٌ، ولكن عنده معصيةٌ، فيقول ماذا فعل صديقي فلانٌ؟.. فلا يجده في الجنَّة، فيسأل عنه، فيُقال هو في النَّار، فيقول المؤمنُ: يا ربِّ لا تكتمل لذَّتي في الجنَّة إلا بوجود صديقي فلانٍ، عندها يأمر الله تعالى فيُخرُجُ صديقه مِن النَّار إلى الجنَّة، فإذا أُخرج إلى الجنَّة؛ سأل أهل النَّار بعضهم بعضًا، من شَفَع له؟، أنبيٌّ مِن الأنبياء؟؛ يُقال: لا، شهيدٌ مِن الشُّهداء؟؛ يُقال: لا، له عملٌ صالحٌ؟؛ يُقال: لا، إذنْ مَن شَفَعَ له؟؛ فيُقال شَفَعَ له صديقه فلان، فعندها يقول أهل النار ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢)﴾ [سورة الشُّعراء].. ياَ ليتنا تعرَّفنا على المؤمنين والمُحسنين؛ حتى نكون فعلاً مِن الأخيار.

أسألُ اللهَ تعالى أنْ يجعلنا وإيَّاكم ممَّن يُصاحبون الأخيار، وأنْ ينفعنا وإيَّاكم بما قلنا..

سيّدة نساءِ أهلِ الجنّة

نحن في هذه السطور مع الأبوَّة، مع الحنان والعطف والرَّحمة، مع بِنت رسولِ اللهِ (ﷺ)، مع سيِّدة نساءِ أهلِ الجنَّة، مع الخيِّرَة ابنة الخيِّرَة، بل ابنة الخيِّرَيْن، ابنة رسول اللهِ (ﷺ) وابنة خديجة بنت خويلد، المرأة الصَّالحة وأوَّل مَن أسلم مِن الرِّجال والنِّساء، وصاحبة أوَّل مالٍ نفع اللهُ به الإسلام.. تعالوا نجلس بين يدَيْ فاطمة (رضي الله عنها)، ننظر ما هي الأحوال بين فاطمة وبين رسولِ اللهِ (ﷺ).. ما هي المواقف التي وَقَعَتْ بينهما؟.. نقفُ على بعض القَصَص بين فاطمة ورسول اللهِ (ﷺ).. هذه القَصص والأحداث يستطيع اليوم الآباء أنْ يقتدوا بها، والبنات أيضًا، أنْ يقتدين بها في التَّعامل مع آبائِهن..

فاطمة بُضعةٌ مِن رسول اللهِ (ﷺ)، وهي أُمُّ سيِّدَيْ شباب أهل الجنَّة؛ أمُّ الحَسَن والحُسَيْن، وهي زوجة البطل المُجاهد الصَّحابيِّ الجليل عليّ بن أبي طالب (رضي الله عنه)، فاطمة كانت أشبه النَّاس خُلُقًا وخَلْقًا برسولِ الله (ﷺ)..

أقبلت يومًا (رضي الله عنها) إلى رسول اللهِ (ﷺ)، وكان النَّبيُّ جالسًا بين نسائِه وذلك في أواخر حياتِه، فلمَّا جَلَسَتْ إليه، وكان (عليه الصَّلاة والسَّلام) إذا جاءت فاطمة؛ جاء إليها وقبَّلها وأجلسها في مكانه، وكان هو أيضًا إذا جاء إليها قامتْ إليه وقبَّلته وأجلسته في مكانها، لكنها جاءتْهُ اليوم في أواخر حياته (ﷺ)، وكان قد هدَّه المرض وهو على سريرِه، فلمَّا جاءتْ فاطمة، تقول عائشة (رضي الله عنها): دخلت علينا فاطمة بنت رسول الله (ﷺ) ما تخطئ مِشْيَتُها مِشْيَة رسول اللهِ، فأقبَلَتْ، ولكنَّ النَّبيَّ (ﷺ) هذه المرَّة لم يقُم لها لأنَّه كان مريضًا، فجاءت وجلسَتْ، فقال: «مرحبًا بابنيتي»، ثُمَّ أسر إليها النَّبيُّ (عليه الصَّلاة والسَّلام) في أذنها بكلام فبَكَتْ، فلمَّا بَكَتْ؛ أسرَّ إليها بكلامٍ آخرَ؛ فضحِكَتْ، قالت عائشة (رضي الله عنها): والله ما رأيت عجبًا كاليومَ قط، مِن بكاءٍ لضحكٍ، تقول: فسألتها يا فاطمة، ما قال لكِ النَّبيُّ «عليه الصّلاة والسَّلام»، فقالت: والله ما كُنت لأُفْشيَ سرَّ رسولِ اللهِ (ﷺ).. فلمَّا مرَّت الأيَّام، وتُوفِّيَ النَّبيُّ (عليه الصَّلاة والسَّلام)؛ سألت عائشة فاطمة: أخبريني ماذا قال لك؟، فقالت فاطمة: قد قال لي النَّبيُّ (عليه الصَّلاة والسَّلام) يا بنيتي إنَّ جبريل يُعارِضُني القرآن في كلِّ سنةٍ مرَّة، وهذه السَّنة عارَضَنِي جبريل القرآن مرَّتَيْن، وما أراه

إلا حضور أجلي.. تقول: فبكيتُ، ثُمَّ قال لي أما ترضين أنْ تكوني سيِّدة نساء أهلِ الجنَّة؟، قالت: فضحكتُ، فهذه بُشرى..

فاطمة كان النَّبيُّ (ﷺ) يعتني بها حتى بعد زواجها مِن عليٍّ (رضي الله عنه)، كان يعتني بها النَّبيُّ (ﷺ) غاية العناية، في يوم مِن الأيام جيء إلى النَّبيِّ (عليه الصَّلاة والسَّلام) بسبيٍ، فقال عليٌّ (رضي الله عنه) لفاطمة، وكان قد تزوَّجها منذ فترةٍ يسيرةٍ، وكانت فاطمة تتعب مِن الطَّحن في الرَّحى وتتعب مِن شُغل البَيْت وتتعب مِن جمع الطعام للفَرَس، ففي السَّابق المرأة لم تكن مثل نساء اليوم، فكانت المرأة في السَّابق إذا أرادت أنْ تستقي الماء؛ كانت تحمل القِربة وتذهب للبئر، ثُمَّ تعود تحمل الماء على ظهرها، وكانت تجمع النَّوى للفَرَس بيدها، وتجمع التَّمر، وكانت تطحن الدَّقيق، اليوم الطَّحين يأتي جاهزًا والملابس ما تحتاج المرأة تحملها للبئر وتغسِل، الملابس اليوم مِن خلال الغسَّالة الكهربائيَّة تُغسل، والطَّحن هي لا تطحن، والماء مِن خلال صنابير الماء، المرأة ليس في تعبها اليوم كتعبها في السَّابق..

فقال عليٌّ لفاطمة: يا فاطمة ألست تتعبين من شغل البيت، قالت: بلى، قال ألست تتعبين مِن الطَّحْنِ بالرَّحى والكنس وإحضار الماء، ألا تتعبين؟، قالت: بلى.. وكان الصَّحابة، قبل أنْ تكثُرَ الفتوحات، كانوا على حاجةٍ، وكانت أموالهم قليلة، وما جمعوا مِن أموالٍ ينفقونه في الجهاد وفي السَّفَر، حتى إنَّ عليًّا (رضي الله عنه) جاع يومًا هو وزوجه، فمضى (رضي الله عنه) إلى مزرعةٍ ليهوديٍّ وقال: أريد أنْ أشتَغِل، فقال: استخرج لي ماء مِن البئر، فجاء عليٌّ (رضي الله عنه) البئر، وبجانب البئر

حوض يُجمَعُ فيه الماء، فجعل يُلقي الدَّلو ثُمَّ يستخرج الماء ويضع الماء في هذا الحوض، وهكذا، وكان اتَّفق معه على كلِّ دلوٍ بتمرةٍ واحدةٍ، لاحظ الآن هذا الدَّلو وهذا التَّعب وهذا النَّصب واستخراج الماء مِن البئر وما فيه مِن تعبٍ خاصَّة مع رجلٍ جائعٍ ومنهكٍ، ومع ذلك يستخرج الماء ويصبُّه في الحوض، حتى أخذ إحدى عشرة تمرةً ورجع إلى البيت، وقال: هذا طعامكم..

فقال عليٌّ (رضي الله عنه) لفاطمة: ألا تريدين خادمًا؟، قالت: بلى، قال: إنَّ أباك قد جاءه اليوم سبيٌ فاذهبي فالتمسي منه خادمًا، مضت فاطمة إلى بَيْت رسولِ الله (صلى الله عليه وسلم).. طَرَقَتْ عليه الباب، فلم تجده، فدخلت على عائشة، وكان قلبها وقلب عائشة مُتصافيًا، لطيف المعشر ما بينهما، ما كان بينهما مشاكل، وكانت تحبُّ عائشة وعائشة تحبُّها، وبينهم مِن الجلسة والأنس، وأحيانًا تزور فاطمة النَّبيُّ (صلى الله عليه وسلم) وهو مع عائشة، فتُلاطِف عائشة وعائشة تلاطفها، فقالت لها عائشة أثناء الحديث: ماذا تُريدين مِن النَّبيِّ (صلى الله عليه وسلم)، فأخبرتها فاطمة، فقالت: أنا أتعب مِن عمل البيت، فأريد خادمًا، فقالت عائشة: إذا عاد النَّبيُّ «عليه الصَّلاة والسَّلام أنا أخبرُه، فرجع النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى بيته آخر الليل كالًّا مُتعبًا، فقالت عائشةُ: يا رسول الله قد كانت ها هنا فاطمة، قال: «وماذا تريد؟»، قالت: ذَكَرَتْ يا رسول الله أنَّها تتعب مِن عمل البَيْت وتُريد خادمًا.. انظر أيضًا إلى صفاء نفسِ عائشة (رضي الله عنها) على فاطمة، لم تُسرَّ إلى النَّبيِّ (عليه الصَّلاة والسَّلام) بشيءٍ مِن الحقد والضَّغينة، كلا؛ بل تُشجِّعُ، يا رسول الله مِن حق ابنتك أنْ تعطيها خادمةً، ولم تقل أنا أيضًا

أعطيني خادمًا؛ بل قالت يا رسول الله هذه فاطمة وتستحقّ..

مضى النَّبيُّ (عليه الصَّلاة والسَّلام)، وطَرَقَ الباب على بيت عليٍّ وفاطمة، فكيف فُتِحَ له الباب؟، أم أنَّه فتح لنفسه ودخل؟، وهل أعطاهما خادمًا أم لا؟..

طرق النَّبيُّ (عليه الصَّلاة والسَّلام) الباب عليهما، وكانا حديثي عهدٍ بعرسٍ، فقالا: يا رسولَ اللهِ على رِسْلِكَ انتظر، فقال: «بل أنتما على حالكما»، ودخل (عليه الصَّلاة والسَّلام) وجلس بينهما، وكانا على فراشهما، هذه ابنتُه وهذا صِهْره وابن عمِّه وكأنَّه ابنه، يعني عليٌّ (رضي الله عنه) لَمَّا تزوَّج فاطمةَ كان عُمره ٢٦ سنةً، والنَّبيُّ (عليه الصَّلاة والسَّلام) قريبا مِن السِّتِّين، فهو (عليه الصَّلاة والسَّلام) أصلاً أكبر سنًّا مِن عليٍّ بسنين، ليست المسألة بينهما سنتَيْن أو ثلاثةً في العُمر، فعليٌّ (رضي الله عنه) كأنَّه واحدٌ مِن أبناء النَّبيِّ (صلى الله عليه وسلم).. ورباه في بيته غُلامًا، وربَّته أيضًا خديجة (رضي الله عنها)..

قال (عليه الصَّلاة والسَّلام) لفاطمة: «أجئتني اليوم؟»، قالت: نعم، قال: «ما تريدين؟»، قالت: أنا أُريد خادمًا، فقال النَّبيُّ (عليه الصَّلاة والسَّلام): «أفلا أدلُّكما على ما هو خيرٌ لكِ مِن خادم؟»، قالت: بلى، قال: «إذا أخذتما مضاعجكُما فسبِّحا اللهَ ثلاثًا وثلاثين، واحمدا الله ثلاثا وثلاثين، وكبِّرا الله أربعًا وثلاثين»، قال: «فإنَّ ذلك خير لكما من خادمٍ».. نَظَرَ عليٌّ إلى فاطمة، ونظرت إليه، ثمَّ قالت فاطمة: يا رسول الله والخادم؟، فقال (عليه الصَّلاة والسَّلام): «أمَّا الخادم فلا أعطيك والله خادمًا وأَدَعُ أصحاب الصُّفة تُطوى بطونهم مِن الجوع..

فأصحاب الصُّفَّة قومٌ فقراء يأتون إلى المدينة ويدخلون الإسلام، فإذا دخلوا الإسلام؛ لا يستطيعون الرُّجوع إلى أهلهم لأنَّهم مُسلمون وأهلهم كفَّارٌ، ومن ثم يُؤذُونَهُم، ولم يكن في المدينة أماكن ليسكنوا فيها، فالمسلمون في فقرٍ، فكانوا يجلسون في المسجد، وكانوا يشتغلون بالاحتطاب وبيعه وأشياء بسيطةٍ لا تكاد أنْ تسدَّ رَمَقَهُم، فكثُرَ عددهم، فجَعَلَ لهم النَّبيُّ (ﷺ) صُفَّةً أو مِظلَّةً أو عريشا يجلسون فيها في المجلس، فيقول النَّبيُّ (عليه الصَّلاة والسَّلام): «أبيع هؤلاء الخَدَم وأجعل المال لأصحاب الصُّفَّة»، يقول عليٌّ (رضي الله عنه): فلَزِمْتُ هذا الذِّكر فلم أتركه أبدًا، فطوال حياته وفاطمة يقولان هذا الذِّكْرَ..

فاطمة (رضي الله عنها) كانت حبيبةَ رسولِ الله (ﷺ)، حتى بعد وفاة النَّبيِّ (ﷺ)، كان مَن بعده، وهو أبو بكر (رضي الله عنه) يعرف لفاطمة قدرَها، بل كان أبو بكر يُحبُّها أكثر ممَّا يحبُّ أولادَه وبناته..

ولَمَّا قال النَّبيُّ (عليه الصَّلاة والسَّلام): «إنَّا معاشِرُ الأنبياء ما نُورَّث ما تركناه صدقة» [رواه البُخاريُّ]، فاللهُ سبحانه وتعالى مِن أجل ألا يفتح الباب على النَّبيِّ فهو بشرٌ، أنْ يجمع مِن الدُّنيا؛ جَعَلَ الله تعالى الحكمَ الشَّرعيَّ المُتعلِّق بالنَّبيِّ أنَّك إذا متّ جميع أموالك تنتقل إلى بيت مال المسلمين، لا النَّبيّ مُحَمَّد (ﷺ) ولا مَن قبله مِن الأنبياء، حتى داود كان نبيًّا مَلِكًا لم يرث سُليمان مِن بعده أموالَه، وإنَّما وَرِثَ النُّبوَّة، وكذلك زكريا عندما قال الله عزَّ وجلَّ على لسانه: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً (٦)﴾ [سورة مريم].. زكريَّا (عليه السلام) ما كان غنيًّا وما كان عنده أموالٌ،

ومع ذلك يقول يا ربّ أُريد ولدًا يرثُني، يَرِثُ ماذا؟، يَرِثُ النُّبوَّة؛ لأنَّ ما تركه الأنبياء صدقة، وإنَّما مَن بعدهم يَرِثُ العِلم أو يَرِثُ النُّبوَّة، كما أنَّ النَّبيَّ (عليه الصَّلاة والسَّلام) قد مات ودرعُه مرهونةً عند يهوديٍّ في صاع مِن شَعير، والدِّرع هو لباسٌ مِن حديدٍ يلبسه المُقاتِل، مضى النَّبيُّ (ﷺ) إلى اليهوديِّ، وقال له: «أعطني شعيرًا لأهلي وأسدِّدُك بعد حينٍ»، فقال: لا، أعطني قيمتَه أو أعطني رهنًا أو شيئًا أبيعه إذا لم تسددني، فأعطاه النَّبيُّ (عليه الصَّلاة والسَّلام) درعَه، حتى إذا ما سدَّد المال يبيع الدِّرع ويستوفي مالَه منه، فمات ودرعُه مرهونًا عند اليهوديِّ، فما كان عنده أموالٌ أو ثرواتٌ (ﷺ)، إلا أرضًا في فِدْك كان (عليه الصَّلاة والسَّلام) إذا غلَّت هذه الأرض؛ يُطْعِمُ بها نفسَه وأولادَه وزوجاته..

مات النَّبيُّ (ﷺ)، وجاء أبو بكر الصِّديق (رضي الله عنه) إلى فاطمة، فأخبرها، وقال لها: يا ابنة رسول الله، واللهِ لَصِلَتِي إليكِ أحبُّ مِن صلتي إلى أولادي، وأنت واللهِ أحبُّ لديَّ مِن أولادي، خُذي مِن مالي ما شِئتِ، تُريدين أنْ تأخذي بيتي، تأخذين إنْ كان عندي مِن إبلٍ أو غنم أو متاع، خُذي مِن أموالي ما شئتِ، والله إنَّ صِلَتَكِ ودفع الأموال إليكِ أحبُّ مِن دفعها إلى أولادي، لكنَّ النبيَّ (ﷺ) تَرَكَ تلك الأرض صدقةً، أنا الخليفة والمسئول، أنا لن آخذها لنفسي طَمَعًا فيها، هذه ستكون صدقةً لبيت مال المسلمين..

فرَضِيَتْ فاطمة (رضي الله عنها) بذلك، بل إنَّها (رضي الله عنها)، وهي سيِّدة نساء أهل الجنَّة، لَمَّا كانت في مرض موتِها، وهي تُوفِّيَتْ بعد النَّبيِّ (ﷺ) بستَّة

أشهرٍ، لمَّا كانت في مرض موتِها؛ استأذن عليها أبو بكر وعمر (﵄) ليودِّعاها، فقال لها عليٌّ: هذان أبو بكرٍ وعمرَ، فدخلا وكانت في حجابِها التَّامِّ، وجلسا عند رأسها ودعيا لها، ودَعَتْ لهما، ثُمَّ خرجا بعد ذلك، فهي (﵂) بتربية رسولِ اللهِ (ﷺ) لها، وحِرصه عليها وعنايته بها، كانت صافية النَّفس وسليمة الفؤاد، مُحبَّة للخير لجميع المسلمين، ولم تكن (﵂) في نفسها شيءٌ مِن الحِقد أو الضَّغينة على أحدٍ مِن الصَّحابة الكرام أبدًا..

بل حتى بعد وفاة رسولِ اللهِ (ﷺ)، كانت علاقة فاطمة بعائشة (﵂) الله عنها» وعن فاطمة، وعلاقتها بسَوْدة وحَفْصَة، كانت علاقتها بجميع زوجات النَّبيِّ (ﷺ) أحسن العلاقة، وهي ابنة خديجة أُمِّ المؤمنين (﵂). فاطمة (﵂) ربَّاها النَّبيُّ (ﷺ)، ثُمَّ بعد ذلك تربَّت مع عليٍّ (﵁)، تزوَّجها وعمرها ١٨ سنةً، وهي أُمُّ الحَسَن والحُسَيْن، وقد ربَّتهما على كلِّ خير، حتى إنَّها كان أكثر وقتها مع رسولِ اللهِ هي وأولادها، وطالما حَكَتْ فاطمة وذَكَرَتْ كيف كان النَّبيُّ (عليه الصَّلاة والسَّلام) يُلاعب أولادها أمامها، وهي تضحك له (عليه الصَّلاة والسَّلام)، وإذا دَخَلَتْ عليه أجلسها عن يمينه أو عن يساره أو قام عنها وأجلسها تقديرًا لها وتبجيلاً، حتى إنَّها (﵂) تروي كثيرًا مِن المواقف التي تقع مِن رسول الله (ﷺ) مع أولادها، وهي تقول ذلك استبشارًا بحبِّه (عليه الصَّلاة والسَّلام) لها ولأولادها..

أسألُ اللهَ سبحانه وتعالى أنْ يرضى عن فاطمة، سيِّدة نساء أهل الجنَّة،

وأنْ يجمعنا بها وبزوجات رسول اللهِ (ﷺ) في الجنَّة، وأنْ يجمعنا بجميع صحابة رسول اللهِ عليه الصَّلاة والسَّلام في الجنَّة.





قصَّة جاسوس

الجاسوسيَّة والمباحث والبحث عن أخبار الآخرين وتتبُّعها لها تاريخٌ قديمٌ، سواءٌ عِند حُكَّام المسلمين والعرب أو أيضًا عند غيرهم، وكانوا يبحثون عن طرقٍ عجيبةٍ مِن أجل أنْ يتجسَّسوا على الآخرين ويعرفوا أخبارهم، وأحيانًا يبحثون عن أخبارهم خوفًا مِن أنْ يضرُّوهم في مُلْكِهم أو أحيانًا مِن باب التَّطفُّل عليهم ومعرفة ماذا يفعلون، والنَّوع الثَّاني كثيرٌ أيضًا، واليوم لنا قصَّةٌ عجيبةٌ، مع قصَّة جاسوسٍ كان تابعًا للخليفة المُعْتَضِد، وله في ذلك خبرٌ عَجَبٌ، ولكن الذي أعنيه بهذا أنَّهم كانوا يفعلون مثل هذه الأمور أحيانًا مِن باب التَّطفُّل؛ لذلك النَّبيُّ (عليه الصَّلاة والسَّلام) حذَّر مِن مثل هذا؛ أنَّه لا يجوز أنْ يتجسَّس أحدٌ

على أحدٍ بنصِّ القرآن، وبيَّن النَّبيُّ (ﷺ) ذلك، فقال: «لا تجسَّسوا ولا تحسَّسوا» [رواه البُخاريُّ].. فما هو الفرق بين «تجسَّسوا» و«تحسَّسوا»؟..

الاطِّلاع على أخبار النَّاس بغير إذنهم هذا أمرٌ محرَّمٌ، والنَّبيُّ (ﷺ) قال في الحديث الصَّحيح: مَن نظر في كتاب أخيه بغير إذنه فعليه كذا وكذا، أو كما قال (عليه الصَّلاة والسَّلام)، وقال: «لا يحلُّ لأحدكم أنْ ينظر في كتاب أخيه بغير إذنِه» [رواه البُخاريُّ]، وقال: «ولا تجسَّسوا ولا تحسَّسوا» [رواه البخاريُّ]، وتجسَّسوا أي لا تذهب أنت بنفسك وتبدأ تلتفتْ يمينًا ويسارًا، وربما نظرتَ مِن خلال فتحات الباب أو ركَّبت كاميراتٍ، وأيضًا لا تحسَّسوا، أي لا تبدأ تتحسُّس الأخبار، لا تقول ما أخبار فلان؟، سمعتُ أنَّه فعل كذا، وأنت لا تستفيدِ مِن هذا، بئس مطيَّة الرَّجُل زَعَمَ..

تعالوا ندخل في قصَّة جاسوس المُعْتَضِد، وكيف كانت جاسوسيَّتُه، المُعْتَضِد كان عنده وزيرٌ اسمه القاسم بن عبيد الله، هذا الوزير كان مقرَّبًا للمُعْتَضِد، وكان الوزير أيضًا عنده أسرارٌ في بيته مع جواريه ومع أصحابه، ولا يريد المُعْتَضِدَ أنْ يعرفها، أي أنت أحيانًا تريد أنْ تتحفظ عن مُديرك أو المسئول عليك؛ فتكون في رزانةٍ وكذا، وفي بيتك يكون لك أحوالٌ أخرى ولا تريد أنْ يراك هو على مثل هذا الحال حتى لا تسقط مِن عينه، هذا الوزير كان عن المُعْتَضِد متحفِّظًا رزينًا يتكلَّم معه بكلِّ أدبٍ عالٍ، ولكنَّه إذا ذهب إلى قصره؛ صار مع الجواري يلعب ويضحك ويركُض، فيومٌ مِن الأيَّام دخل على المُعْتَضِد، فقال له المُعْتَضِدُ: يا قاسم، قال: نعم، قال: لماذا لم تدعُني أمس لألعب

معكم في المكان الفلاني ومع الجارية الفلانيَّة ومع فلانٍ وفلانٍ، فتغيَّر وجهُه، كيف عرف المُعْتَضِدُ سرِّي مع أهلي، فتبسَّم وسَكَتَ، ثُمَّ عاد إلى بيته مهمومًا، فنادى أحد وزرائه الخاصِّين، قال له: يا فلان إنَّ الخليفة المُعْتَضِد قال لي كذا وكذا، فباللهِ عليك كيف عرف هذا الخبر؟، قال: والله لا أعلم، قال: أرجوك أنا يكاد رأسي ينفجر، كيف عرف أخباري الخاصَّة مع الجواري؟، مَن أخبره بمثل هذا؟، فقال: أنا أنظر لك..

فلمَّا كان مِن الغد أقبل هذا الوزير مبكِّرًا إلى قصر القاسم، وقبل أنْ يخرج القاسم أيضًا مِن بيته، وأخذ ينظر عند الحُرَّاس، فيقول: فبينما أنا كذلك إذ أقبل رجل زمنٌ، رجل مشلولٌ يزحف على رجلَيْه، فلمَّا جاء؛ فإذا الحُرَّاس يعرفونه، فجعلُوا يُمازِحُونه ويُضاحِكونه وكيف حالكم، وما أخبار القاسم، قالوا: بخير، متى رجع البارحة؟، يتحدَّث معهم سواليف ويعرف منهم الأخبار، قالوا: رَجِعَ السَّاعة الفلانيَّة واللهِ تأخَّر، آه كان مع فلانٍ، ثُمَّ دخل وهم يتركونه هكذا يزحف؛ لأنَّه يسأل النَّاس ويفعل كفعل الشَّحَّاذين معهم كي يتصدَّقوا عليه، فجعل يزحف حتى دخل في الدِّهليز، ثم وصل إلى قريبٍ مِن القصر نفسه، فجعل يسأل الحُرَّاس هناك، والقاسم يمشي وراءه مُتخفِّيًا، فجعل يقول: ما الأخبار؟، مَن كان معه بالأمس؟، قالوا: والله أمس بات مع زوجته فلانةٍ، يقول: فهل دخل عليها مُبكِّرًا أم مُتأخِّرًا؟، ويضحك، ويقول إذن هي أجمل مِن غيرها، فيمتاز بأسلوبٍ يستخرج به المعلومات، أخذ منهم معلوماتٍ مُعيَّنة وتصدَّقوا عليه، ثُمَّ قال: فقط أدخل يتصدَّق عليَّ الحُرَّاس بالدَّاخِل، فدخل أكثر حتى وصل

للجواري، وكُلَّما مرَّ بأحدٍ يسأل عن كلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ، حتى وصل إلى المطبخ، وهو لأنَّه زمنٌ (مشلولٌ) وفقيرٌ؛ يرحمونه ويجعلونه يدخل مِن باب أنْ يأخذَ الصَّدقات، وهو يجمع في الكيس الذي معه شيئًا مِن الطَّعام، حتى سأل الطَّبَّاخ ماذا طبختَ البارحة، وما المقدار الذي أكله القاسم، وهذه المعلومات يعرفها أثناء الحوار، ثم أخذ كلَّ صغيرةٍ وكبيرةٍ وخرج يزحف حتى جاء للحارة التي وراءنا..

والوزير يتبعه، فدخل بيتا ثم خرج مِن البيت، وإذ هو يمشي وقد غيَّر ثيابه وصار في صورةٍ حسنةٍ، يقول: فعجِبْت منه، قال: ومعه الكيس فأفرغه لبعض الشَّحَّاذين، قال: خذوا هذه صدقةٌ عليكم، ثُمَّ مضى إلى بيتٍ آخر ودخل فيه، قال: فلما جاء الليل أقبلتُ وجعلتُ أَحْرِص، قال: فإذا بحارسٍ مِن عند الخليفة أعرفه، أَقْبَلَ وطرق عليه الباب، قال: فأخرج له من تحت الباب صحيفةً ما يدري ما المكتوب بها، يقول الوزير: فذهبتُ وأتيت بحرسٍ وأقبلنا ودخلنا عليه بالقوَّة وربطناه وجئنا به لقصر القاسم، فقال له القاسم: أخبرني بحقيقتك، ماذا تفعل؟، قال: لا أفعل شيئًا أنا إنسانٌ مسكينٌ، قال: فضربته، فقال: نعم أنا يُعطيني الخليفة المُعْتَضِد في كلِّ شهرٍ ألف درهم على أنْ آتيه بأخبارك، فأنا أتزامن وأعمل نفسي مُقعدًا وقد استأجرتُ بيتًا قريبًا منك لكي أدخل إليه وأخرج ولا يلاحظ أحدٌ مِن الحي أنَّني أُغيِّرَ هيئتي، أذهب وألبس لبس الشَّحَّاذين وأخرج زحفًا كأنِّي فقيرٌ ومسكينٌ، وأُركِّبُ لِحيةً فوق لِحيَتي، فآتي وأسأل عن الصَّغيرة والكبيرة، وهؤلاء يرحمونني ويتحدَّثون معي ويخبروني، يقول: ثُمَّ آتي وأكتب كلَّ

ما حَصَلَ، ثُمَّ يأتي رسولٌ مِن عند الخليفة في الليل ويأخذ مِن عندي صحيفةً يُعطيها للمُعْتَضِد، وفي الصَّباح يكون المُعْتَضِد عارفًا بأخبار كلِّ مَن كان يعملون عندك..

لَمَّا رأى القاسم ذلك؛ حَبَسَهُ عنده، فلَمَّا كان مِن الليلة التي بعدها، أقبل الحاجب مِن عند المُعْتَضِد، فطرق الباب، فَفتحت زوجتُه، وقالت: واللهِ زوجي ما حَضَرَ مِن البارحة، أقبل أقوامٌ وأخذوه، لا أدري ما الذي حدث له، فلما كانت الليلة التي بعدها خَرَجَتْ زوجتُه، وقالت: زوجي لا أدري إنْ حيًّا أم ميِّتًا، غاب عنَّا.. فذهب القاسم إلى دوامه العاديِّ، وجلس عند المُعْتَضِد، فقال له المُعْتَضِد: ما أخبار الرَّجل الزَّمن؟، فقال: لا أعرفه يا أمير المؤمنين، فقال: بل تعرفه، واللهِ إنْ قتلته أو فعلت به شيئًا لأفعلنَّ بك كذا وكذا، لكنَّ لك عليَّ عهدُ اللهِ وميثاقه ألا أتتبَّع أخبارَك، ولكن أخرِج الرَّجل، فأين أخفيتَه، قال: فقلت: نعم، وأحسنتُ إليه بمالٍ وأخرجته مِن عندي..

الحقيقة لَمَّا قرأتَ هذه في كتابِ «المُنتظَم في أخبار الملوك والأُمَم» لابن الجوزيِّ؛ تعجَّبتُ، سبحان الله، مِن تتبُّع أخبار الآخرين وتَحَسُّسها، والحِرص على معرفتها.. إنَّه أمرٌ موجودٌ في جميع النَّاس، حتى في جميع الأُمَم، ليست فقط مسألة مملكةٍ دون مملكةٍ، أو وَزارة دون وَزارةٍ، بل تجد أنَّهم يحرصون أنْ يتتبَّعوا ذلك، وربما أنك أحيانًا وثقتَ في شخص مُعيَّن؛ فتفاجأ بأنَّه ينقل خبرَك إلى غيرك؛ لذلك يجب على الإنسان أوَّلًا ألا يُخبر بأسراره أحدًا، إذا ضاق صدرُ المرءِ عن سرِّ نفس؛ فصدرُ الذي استُودع السِّرَّ أضيَق..

الأمرُ الثَّاني أنَّه لا يجوز للإنسان أنْ يتجسَّس على أخبار الآخرين إلا إذا كان لمصلحةٍ، فمثلاً إنسان شُكَّ فيه أنَّه يُروِّج مُخدِّرات، فجئنا وتجسَّسنا عليه؛ لأنَّنا نعلم عن خبره، ثم يُقبَضُ عليه، إنسانٌ شُكَّ فيه أنَّه يجمع الرِّجال مع النِّساء على معصيةٍ؛ فجئنا وتجسَّسْنا لأجلِ أنْ نعرفَ خبرَه ونحن مسئولون عن القضيَّة أيضًا، كأنْ نكون اشتغلنا في الشُّرطة أو في جهةٍ أمنيَّةٍ مُعيَّنةٍ أو في هيئة الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر أو ما شابه ذلك، أمَّا أنْ ينطلقَ الإنسان مُتجسِّسًا مُتحسِّسًا على أخبار النَّاس؛ فهذا لا يجوز، وقد نهى النَّبيُّ (ﷺ) عن ذلك، بل أباح أنْ تُفقأَ عَين مَن تجسَّس وذلك في حديثٍ آخر.

النَّبيُّ (ﷺ) أَذِنَ لمن أقبل ينظر إلى آخر مِن خلال خُللِ الباب، أَمَرَ أنْ تُفقأَ عينَه، وقال: «وهي هدرٌ» [رواه البُخاريُّ]، أي ليس فيها دِيةٌ، معروفٌ أنَّ الذي يفقأَ عَينَ إنسانٍ مُتعمِّدًا؛ فإنَّه كما قال الله عز وجل: ﴿الْعَيْنَ بِالْعَيْنِ﴾ [سورة المائدة- مِن الآية ٤٥]، فإذا فقأ إنسانٌ عَينَ آخرَ؛ فإنَّ عينه تُفقأَ كما فعل بذلك الرَّجل، فإنْ فقأها خطأً بدون تعمُّدٍ لَزِمَه نصفُ الدِّيَة، وذلك أنَّ كلَّ شيءٍ في الإنسان منه اثنان، إذا أتلف إنسانٌ آخرَ، أحدهما جاء وقطع يده خطأً، أو قطع رجله خطأً، أو قطع أذنَه، أو فقأ عينَه مثلاً؛ فإنَّه يعطيه نصف الدِّية، فكان النَّبيُّ (ﷺ) مرَّة يفرك رأسه بقرن غزالٍ، فأقبل رجلٌ ينظرُ مِن خُلَلِ الباب، أُناسٌ مُتطفِّلون، فلمَّا رأى النَّبيُّ (ﷺ) ذلك؛ كاد (ﷺ) أنْ يفقأ عينَه، غير أنَّ الرجل ذَهَبَ، وقال (عليه الصَّلاة والسَّلام): «هي هدرٌ»، مُحذِّرًا مِن أنْ يتتبَّعَ الإنسان أخبار الآخرين، والإنسان إذا بدأ يتتبَّع أخبارَ الآخرين؛ فَسَدَ

وأفسدهم؛ لذلك قال (عليه الصَّلاة والسَّلام): «كفى بالمرءِ إثمًا أنْ يحدِّثَ بكلِّ ما سَمِعَ» [رواه البُخاريُّ]، وقال (ﷺ): «مِن حُسنِ إسلام المرء تركُه ما لا يَعْنِيه»...

ما يعنيك يا أخي أنَّ فلانًا بينه وبينه زوجتِه مشكلةٌ أو ليس بينهما مشكلةٌ؟!.. ما يعنيك كم يستلم فلان مِن راتبٍ، ألف ولا عشرة آلاف، ما دخلك أنت بالموضوع؟!!.. صُراخ فلانة في بيتها البارحة؛ ما دخلك يا أخي؟!.. هي بينها وبين زوجها مشكلةٌ أو بينها وبين ولدها مشكلةٌ، فما دخلك أنْ تسأل عمَّا لا يعنيك؟..

مِن حُسْنِ إسلام المرءِ تركُه ما لا يعنيه، الخليفة المُعْتَضِد لمَّا كان يتتبع أخبارا خاصَّة بهذا الوزير، هذا خطأٌ، هذا الرَّجل مع زوجته أو مع بناته أو مع أولاده، ما دخلُك أنْ تعرف أخباره الخاصَّة، كما أنَّ مِن حُسْنِ إسلام المرء قراءَتُه للقرآن، ومِن حُسْنِ إسلامه صلاته للضُّحى، ومِن حُسْنِ إسلامه كَثْرَة ذِكرهِ لله؛ كذلك مِن حُسْنِ إسلام المرء تَرْكُه ما لا يعنيه..

ولقد كان النَّبيُّ (ﷺ) يترك ما لا يعنيه، ولم يكن صلوات ربِّي وسلامه عليه يلتفت لكلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ، ولا يزال إلى اليوم أحداث الصَّحابة الكِرام «رَضيَ الله عنهم» في أنَّهم لا يتدخَّلون فيما لا يعنيهم، ولا تزال أمورهم حتى اليوم ظاهرة مِن خلال التَّاريخ الذي نقرأه، وكذلك مِن خلال سيرة نبيِّنا وسيِّدنا رسولِ الله (ﷺ).. لم يُذكَرْ أنَّ النَّبيَّ (ﷺ) كان يتتبَّع ما عند الصَّحابة؛ إلا إذا كان ينوي أنْ يُحْسِنَ إليه،

كما وقع أنَّه (ﷺ) رَجِع يومًا مِن غزوةٍ مِن الغزوات، وكان معهم جابر بن عبد الله (رضي الله عنه)، قافلةٌ فيها إبلٌ متتابعةٌ يتبع بعضها بعضًا في هذه الصَّحراء الواسعة، فوقهم الشَّمس تحرقهم، ولكنهم مع ذلك ثابتون ومُحْتَسبون للأجر.. فيهم الصَّحابة الكرام ومعهم متاعهم ومعهم حاجاتهم، ولم يبق لهم أنْ يصلوا إلى المدينة إلا قليلاً، وهذه الإبل تطوي الأرض طيًّا، فالنَّبيُّ (ﷺ) لاحظ أنَّ جابر بن عبد الله يتأخَّر عنهم، فجاء وقال: «يا جابر امش»، قال: يا رسول الله هذا جملي ما يمشي، مريضٌ، فقال: «أنِخ جملَك»، فأناخه، فقال: «أعطني عصا»، فأعطاه عصا، فضرب النَّبيُّ (ﷺ) الجمل ضربةً ودعا الله له، فقام الجمل وانطلق بإذن الله..

فركب جابر على الجمل، وركب النَّبيُ (ﷺ) على جمله وجعل يُساير جابرًا، جابر في ذلك الحين كان عمره ٢١ سنةً، فقال (ﷺ) لجابر: «يا جابر هل تزوَّجت؟»، ليس ليتدخَّل فيما لا يعنيه كما يفعل بعض النَّاس الآن، يقولك كيف الحال، لعلَّك طيِّب، سمعت أنَّه هناك مشاكل بينك وبين زوجتك، إيه الأسباب؟ وهكذا... فما دخلك يا أخي؟!.. لماذا تتدخل فيما لا يعنيك؟!.. هل أنت أبوها أم أخوها؟!، أم أنت أبي؟!، أم أنت باحثٌ اجتماعيٌّ ستحلُّ مُشكلتي؟!.. دع عنك التَّطفُّل، أو يأتيك يقول سمعتُ أنكم خطبتم مِن آل فلان لابنكم، فهل هذا صحيحٌ؟!.. أيضًا يا أخي ما دخلك في هذا؟!.. مِن حُسْنِ إسلام المرء تركُه ما لا يَعْنِيه، كما أنَّ مِن حسن إسلامك صلاتك وصومك؛ مِن حُسْنِ إسلامِك أنْ تترك ما لا يعنيك، لكنَّ النَّبيَّ (ﷺ) سأل جابر

لقصد أنْ يُحْسِنَ إليه، كما تقول لإنسانٍ فقيرٍ: كيف حالك؟، ساكن فين؟، تقول له مثلاً إيجار بيتك كثيرٌ أم قليل؟، وأنت قصدك إنْ كان كثيرًا، أنْ تُحْسِنَ إليه وتُساعده، وهو في غالب الأحيان يفهم ذلك من خلال حديثك وأسلوبِك..

قال النَّبيُّ (عليه الصَّلاة والسَّلام) لجابر: يا جابر تزوَّجْت؟، قال: نعم يا رسول الله، تزوَّجتُ، ففرح رسولُ اللهِ (ﷺ)، ثُمَّ قال له: «بِكرًا أم ثَيِّبًا؟»، قال: بل ثَيِّب يا رسول الله، فقال (عليه الصَّلاة والسَّلام): هلا بِكرًا تُلاعِبُها وتُلاعِبُك؟»، قال: يا رسول الله إنَّ أبي استُشْهِدَ وترك لي تسع أخواتٍ شابَّاتٍ، فلم أشأ أنْ أُدْخِلَ عليهنَّ فتاةً مثلِهُنَّ وتكثر بينهُنَّ المشاكل، فأردت أنْ أتزوَّج امرأةً أكبر لتكون مثل أُمِّهم..

أرأيتم تضحيته بمتعته الشَّخصيَّة لأجل أخواته، فالنَّبيُّ (ﷺ) أُعجِبَ به، ثُمَّ أراد «صلوات ربِّي وسلامه عليه» أنْ يُحْسِنَ إليه بمالٍ، قال: «يا جابر أتبيعني جملَك؟»، ينظر النَّبيُّ (ﷺ) للجمل الذي يجري ويركض بجابر وأصبح حَسَنًا بعدما كان مريضًا وقاعسًا، أصبح الآن جملاً نشيطًا، قال: «أتبيعني جملَك؟»، فتفاجأ جابر، وقال: الجمل تحسَّن الآن وَضعه أفأبيعه يا رسول الله؟، فقال (عليه الصَّلاة والسَّلام): «بعني إيَّاه»، قال: فخذه، قال: «لا، بل بعني إيَّاه»، فقال: بكم يا رسول الله؟، قال: «أشتريه بدرهم»، قال: تغبنُني يا رسول الله، جملٌ بدرهم؟!، تغبنني يا رسول الله، قالَ: «بدرهمَيْن»، قال: تغبُنُني يا رسول اللهِ، قال: «بثلاثة دراهم»، بأربعة دراهم، خمسة، ولم يزل يَزيده (ﷺ) حتى وصل إلى ٤٠ درهم، أوقيَّةٌ مِن الذَّهب ونشا، أي وزيادة، قال: نعم، لكن أشترط

عليك يا رسول اللهِ أنْ أبقى عليه حتى أصل المدينة.

وصلوا إلى المدينة.. مضى جابر وأنزل متاعه عند أهلِه، ثُمَّ بعد ذلك عاد إلى النَّبيِّ (ﷺ)، ودفع إليه الجمل، فقال (عليه الصَّلاة والسَّلام): يا بلال، خُذ الجمل واربطه وأعط جابرًا ٤٠ درهمًا ونشا، أي وزِده، فأعطاه بلال هذا المال، ثُمَّ أخذ جابر المال وأخذ يتأمَّل فيه، ماذا أفعل بالمال؟!.. هل أشتري به جملاً آخرَ؟.. هل أزوِّج به أخواتي؟.. هل أشتري به طعامًا للبَيْت؟.. يعني هذا الجمل الذي كنتُ أسافر عليه وأحتطب به لأهلي وكنت أستقي عليه، فماذا أفعل بالمال؟.. فقال النَّبيُّ (ﷺ) لَّمَا رأى جابرًا مُولِّيًا، قال: «يا بلال»، قال: لبَّيْك يا رسول اللهِ، قال: «أعطِ جابر الجمل وقُل الجمل والمال لك»، فمضى بلال، وقال: خُذ يا جابرَ جملَك، قال: لماذا؟، أما يُريده النَّبيُّ ﷺ ؟، قال: بل يقول لك المال والجمل لك، ففرح جابر بهذا المال والجمل.

فالنَّبيُّ (ﷺ) إنَّما سأل عن أحوال جابر الخاصَّة لأجْلِ أنْ يُحْسِنَ إليه، ولم يكن النَّبيُّ (ﷺ) يقول لنا: لا تجسَّسوا ولا تحسَّسوا، ثُمَّ هو بعد ذلك يُخالف هذا..

أسأل اللهَ تعالى أنْ يحفظَ علينا أسرارنا، وأنْ يعيذنا مِن الفضيحة في الدُّنيا والآخرة، وأنْ يجعلنا وإيَّاكم مباركين أينما كُنَّا.



إياكم والظلم!

أسرار التَّاريخ كثيرةٌ، وأحداثٌ وَقَعَتْ في التَّاريخ اتَّخذ قرارها حُكَّام أو قادة، أو علماء، أو ممَّن لهم قدرة على تحريك النَّاس، إلى اليوم ما ندري ما هو سرُّ هذه القرارات ولماذا ظَهَرَتْ، ومِن أعظم ذلك ما يُسمَّى في التَّاريخ بـ«نكبة البرامكة».. لن أتكلم عن نكبة البرامكة، فالكلام عنها طويلٌ، حتى إنَّه سُئل هارون الرَّشيد- واتِّصاله بالبرامكة قويٌّ جدًّا إلى درجة أنَّ يحيى البرمكيَّ، الشَّيخ الكبير أبو الفضل يحيى البرمكيُّ، وأبو خالد بن يحيى البرمكيُّ، هو أبو هارون الرَّشيد مِن الرَّضاعة، له مقامٌ عند هارون الرَّشيد، شيخٌ كبيرٌ، ومع ذلك سجنه هارون الرَّشيد حتى مات، نكبة البرامكة سرٌّ- لماذا فعلت بالبرامكة ما فعلت؟ فجأة

في صباح واحد أمرت بقتل هؤلاء وبسجن هؤلاء، وأخذتَ أموالَهم فجأة، فقَال: والله لو أعلم أنَّ يدي هذه تعرف السَّبب لقطعتُها..

كان يحيى البرمكيُّ كما ذكرت هو أبا هارون الرَّشيد مِن الرَّضاعة، ومع ذلك فَعَلَ به ما فَعَلَ، دَخَلَ يحيى البرمكيُّ أو أُدخِل إلى السِّجن، قَتَلَ هارون الرَّشيد مَن قَتَلَ مِن أولاده وسجنه، وكان شيخًا كبيرًا قد جاوز الثَّمانين، سجنَهُ وسَجَنَ معه ابنه خالدًا، وكان لهم في السَّجن أعاجيب، مِن ذلك أنَّ خالدًا كان شديد البِرِّ بأبيه، يقولون فالسَّجَّان لأجل أنْ يَعْظُمَ التَّعب عليهما؛ منع منهما الحطب ليتدفآ، فكان يحيى البرمكيُّ الشَّيْخ الكبير، إذا أراد أنْ يتوضَّأ في الصَّباح؛ أصابه بردٌ شديدٌ مِن برودة الماء، فلا يوجد حطبٌ يُدفِّئ عليه الماء، وكانت السُّجون قديمًا ليس فيها خدماتٌ، وربما ليس فيها دوراتُ مياهٍ مُناسبةٍ، فسجنٌ قديم، ولو نظرت في هذا السَّجن لوجدت أنَّ بعضهم ربما يُربط مع بعض أو مُثقَلاً في رجله، فواضحٌ على تلك السُّجون القِدَمُ، وعلى أبوابها وجدرانها وطبيعتها، فكانت سجونًا لها هيئةٌ وطريقةٌ مُعيَّنةٌ..

فيحيى البرمكي كان يتعب مِن الماء البارد، فصار ابنه- والسَّجَّان يمنعهم مِن الحطب تعذيبًا لهما- إذا أظلم عليهم الليل ونام أبوه؛ يضع في الإناء ماء، ثُمَّ يرفع الماء إلى السِّراج المُعلَّق في السَّقف، ويُقرِّبُ الإناء مِن هذا السِّراج، حتى يتدفَّأ الماء الذي في الإناء بفعل الحرارة المُنبعثة مِن السِّراج، يفعل ذلك وقتًا طويلاً، فإذا أذَّن الفجر دفع الماء إلى والده ليتوضَّأ به وقد أصبح دافئًا، انتبه السَّجان لهذا، فهذا السَّراج المُشعَل المنير الذي فيه فتيلةٌ تشتعل وينبعثُ منه حرارة، فالسَّجَّان لا يريدهم

حتى أنْ يستفيدوا مِن هذه الفتيلة، فصار السَّجَّان يُخْرِجُ السِّراج كلَّما أظلمَ الليل، فصار خالد إذا نام أبوه، يعبئ الإناء ماء، ثُمَّ يكشف عن بطنِه ويلصق الإناء ببطنه وفخذَيْه ويتَّكئ على الجدار، ويظلُّ على مثل هذا الحال حتى يُؤذِّن عليه الفجر، ثُمَّ يدفع الإناء إلى أبيه ليتوضَّأ به برًّا به وإحسانًا إليه.

وتَعِبَ يحيى وتعب خالدٌ فما تعوَّدا على هذا، فقد كان عندهما مِن الأموال الشَّيءُ الكثير، فذكروا أنَّ يحيى جاء إليه مُرَّة بن المُصلِّي، رجلٌ كان على بعض الأعمال للخليفة، فجاء إليه، وقال: إنَّ الخليفة قال لي إنْ لَّم تدفع عشرة آلاف ألف درهم؛ قتلتُك، اتَّهمه بسَرِقَة في عشرة ملايين، فجاء إلى يحيى يبكي، فقال يحيى: حسنًا.. يا غلام انظر كم عِندَك في الخزنة؟، فقال: عندنا خمسة آلاف ألفِ، خمسة مليون درهم، قال: ادفعها إليه، ثُمَّ بعثَ إلى ابنه خالدٍ: كم عندك، أنا سمعتُ أنَّك ستشتري ضيعةً، بستانا، فكَمْ عندك؟، قال: مليونان، قال: ادفعهما إليه، ثُمَّ أرسل إلى ابنه الفضل، قال: أحتاج إلى ألف ألفٍ، وأرسل إلى ابنته، قال: أعطني العقد الجوهر الذي عندك، حتى جَمَعَ العشرة ملايين، وأعطاها الرَّجل..

يقولون فلما أخذه ابن المصلِّي هذا خَرَجَ والتفت إلى الذي معه، وقال: والله ما فعلوه إحسانًا إليَّ، إنَّما فعلوه خوفًا مِن بطشي.. ما شاء الله!.. أيُّ بطشٍ عِندِك؟!. إنَّك لو استطعت أنْ تبطِشَ؛ لدفعت عن نفسِك ظُلْمَ الخَليفة، وما ذهبت تُذِلُّ نفسك وتُرْهِقُ نفسك، بين قدمَي يحيى البرمكيِّ لتأخذ المال مِن عنده، طبعًا بصرف النَّظر هل كان يحيى البرمكيُّ صالحًا أم غير صالحٍ، وما قصَّة البرامكة، هل كانوا سلالة

مِمَّن كان أجدادهم يُعظِّمون النَّار أم لا، فهذه قصَّةٌ أخرى، ولكن أنا أقفُ على شيءٍ يسيرٍ، نوعٌ فيه عبرةٌ بصرف النَّظر عن مدحهم أو ذمِّهم، أخذ الرجل الملايين ودفعها إلى الخليفة وأنجى نفسه مِن القتل، فأقبل الرَّجلُ صاحبه إلى يحيى، وقال: يا يحيى أنت لا تدري ماذا قال فيك، قال: وماذا قال؟، قال: إنَّه يقول إنَّهم يخافون مِن بطشي، يعني هذا شكر النَّعمة؟!، فقال له يحيى: لعل الرَّجل قالها مِن غير شعورٍ، فإنَّه كان مضطربًا.. يبحث له عن عذرٍ.

يحيى البرمكي كان صاحب أموالٍ وعزٍّ وأصابه ما أصابه في السَّجن مِن هذا الطَّريق، فقال له ابنه خالدٌ يومًا وهما في السَّجْن في شدَّة حرٍّ أو شِدَّة بردٍ أو حشراتٍ، وذهب الخدم والحشم، وذهب كل هذا في لمحة عَيْنٍ، فجلس مع أبيه: يا أبتِ.. ما الذي صيَّر حالنا إلى هذا الحال؟.. ما الذي نقلنا إلى هذا الحال؟، فقال: يا بني دعوة مظلومٍ سَرَتْ في ظُلمة الليل غَفِلْنَا عنها، ولم يغفل اللهُ عنها.. ثُمَّ جعل يقول:

رُبَّ قــــومٍ قد غدوا في نعمةٍ	زمــنًا والـــدَّهر ريَّان غَدِقْ
سَكَــتَ الـــدَّهرُ زمانًا عنهم	ثُمَّ أبكاهم دمـــًا حين نَطَقْ

يقولون: فلمَّا نَزَلَ بيحيى الموت وهو في السَّجْن؛ دعا بصحيفةٍ، وكتب فيها كلامًا وأدخلها في كُمِّه، قال: إذا مِتُّ فادفعها إلى الخليفة، فلمَّا مات؛ أقبلوا لينزعوا عنه ثيابه، فأخذوها وسلَّموها إلى الخليفة، فلمَّا فتحها فإذا فيها: فأمَّا الخَصْمُ فتقدَّم إلى المحكمة، وأمَّا خَصْمُه فآتٍ في التَّبع، ويجتمعان في محكمةٍ قاضيها اللهُ وشهودها الملائكة.. يقول أنت ظلمتني يا هارون الرَّشيد، وسجنتني، وفعلت بي الأفاعيل، أنا

وأولادي، ولكن سأجتمع أنا وإيَّاك بين يدَي اللهِ..

إنَّ الظلم مرتعه وخيمٌ، النَّبيُّ (ﷺ) لَمَّا أرسلَ مُعاذًا إلى اليمن، يقول معاذٌ: كنت راكبًا على جملي والنَّبيُّ (ﷺ) يمشي على قدمَيْه، ثُمَّ قال: «يا معاذ إنَّك لعلَّك لا تلقاني بعد لقائِي هذا»، ثُمَّ أعطاه وصيَّةً.. فما هي هذه الوصيَّة؟..

معاذٌ (رضي الله عنه) هو مِن خيارِ الصَّحابة، وهو أعلم الأُمَّة بالحلال والحرام، جبلٌ في الحِفظ والعِلم، والنَّبيُّ (ﷺ) أرسله إلى اليمن مُعلِّمًا لأهلها، يقول: يا معاذ، هذه آخر خطواتِ أمشيها في المدينة، وفعلاً النَّبيُّ (ﷺ) لم يرَ معاذًا بعد ذلك، وتُوفِّيَ قبل أنْ يراه ثانيةً، قال له: «لعلَّك لا تلقاني بعد لقائي هذا، ولعلَّك أنْ تمرَّ بمسجدي أو بقبري»، ثُمَّ أوصاه وصايا، ومِن ضِمنها قال: «يا معاذ.. واتَّقِ دعوةَ المظلوم فإنَّه ليس بينها وبين الله حجاب»[رواه البُخاريُّ]، وكان الحكماء يقولون: اتَّق دعوة مَن تنام وهو قائمٌ يدعو عليك:

نامت جفـــونك والمظلوم منتبهٌ   يدعـــو عليك وعينُ الله لـــم تَنَمِ

كَمْ مِن إنسانٍ ظَلَم أحدًا، فقام هذا الشَّخص مِن ظُلمة الليل يدعو عليه، ثُمَّ ابتُلِيَ ذلك الإنسان في حياتِه قبل موتِه.. النَّبيُّ (ﷺ) يقول في الحديث الصَّحيح: «بابان تُعجَّل فيهما العقوبة في الدُّنيا البغيُ والعقوق» [رواه البُخاريُّ]، البغيُ يعني الظُّلم، تُعجَّل عقوبتُه في الدُّنيا.. ما يحصل مِن ضيقِ الصَّدر، وما يحصل أحيانًا مِن خسران التِّجارة، وما يحصلُ مِن الخُسارة في الأسهم وغيره، وما يحصل أحيانًا مِن تعطُّل

أعمالِك، وما يحصل لك مِن مشاكل مع أولادك، ابتلاؤك في سيَّارتك، مشاكلُك مع زوجتِك، مشاكِلُك الجسديَّة، يومٌ يكون عندك مشكلةٌ في الكلسترول، يومٌ في الضَّغط، يومٌ في الكُلى، يومٌ في الكَبِد، يومٌ صداعٌ شديدٌ ما تدري سببَه، فرُبَّما دعوةُ مظلومٍ سَرَت في ظلمة الليل، غَفَلْتَ عنها، ولم يغفلُ اللهُ عنها..

في حديث أبي ذرٍّ، يقول النَّبيُّ (ﷺ): «يقول الله تعالى: يا عبادي إنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْم على نفسي وجعلته بينكم مُحرَّمًا فلا تظالموا».. أي لا يظلم ربُّ العمل الموظَّفين الذين تحته.. لا يظلمُ الزَّوج زوجتَه.. لا يظلم الأخ أختَه.. لا تظالموا.. لا يضرب المدرِّسُ أولادَه.. لا تظالموا.. لا يظلم الإمام مسجده والمأمومين.. لا تظالموا.. لا يظلم الحاكمُ المحكومين، ولا الرئيس المرؤوسين، ولا الحاكم ولا الملك يظلم الشَّعب، لا تظالموا.. إنِّي حرَّمْتُ الظُّلم على نفسي، وجعلتَه بينكم مُحرَّمًا؛ فلا تظالموا، لا تظلمه بلسانِك بغيبته، ولا تظلِمه في مالِه بأنْ تأخذَ مالَه، ولا تظْلِمه أنْ تُضيِّقَ عليه في وظيفته، أو تحول بينه وبين حقِّه، أو تفسد سمعتَه عند النَّاس.

يأتي مُوظَّفٌ ينتقل لشركةٍ أخرى؛ فيقول المدير: لا، اجلس عندنا، فيقول: لا، هناك مُميِّزاتٌ أحسن، ثُمَّ مِن حقِّي أنْ تُعطوني شهادةَ خبرةٍ قبل أنْ أخرُجَ، فيقول: ما نعطيك شهادة خبرةٍ، اذهب ما فيه شهادة خبرة.. يا أخي، ولكن هذا مِن حقِّي، صحيحٌ انتهى عقدي معكم وأنا غير ملزمٍ بأنْ أجدِّد العقد، أنا جاءني عقدٌ آخر، وأنا ما ظلمتكم، ومِن

حقِّي أنْ تُعطِيَني أوراقي كاملةً، فيقول له: لا، اذهب.. فهذا ظلمٌ..

الإنسان الذي يشتغل في وظيفةٍ، في مستشفى أو دائرةٍ حكوميَّةٍ أو غيرها، ويأتيه المُراجِع بأوراقه فيقول له: انتظر، لماذا ينتظر؟!، هي كلُّها ختمٌ وفي أمان اللهِ، أو توقيعٌ وفي أمان اللهِ، لماذا ينتظر نصفَ ساعةٍ وساعة، وربما أنَّ سيارته أجرة تعدُّ عليه المال، وربما سيَّارته في الشَّمس تزداد حرارةً كُلَّما انتظر، فلماذا تُعذِّبُه يا أخي؟، فلا تظالموا.. النَّبيُّ (ﷺ) حذَّر مِن مثلِ ذلك، وقال: «مَن كان عنده مظلمةٌ لأخيه فليتحلَّله منها اليوم قبل أنْ يكون لا دينارَ ولا درهمَ» [رواه البُخاريُّ]..

النَّبيُّ (ﷺ) في الحديث الصَّحيح، لمَّا كان في أيَّام مرضِه (ﷺ)، وذلك قبل أنْ ينزلَ عليه مَلَكُ المَوت ليقبض روحه، قيل: لَبِثَ (ﷺ) خمسةَ عشرَ يومًا في أيَّام المرض، في أحد هذه الأيَّام تحامل على نفسه وخرج إلى المسجد، ثُمَّ وقف (ﷺ) على المنبر، وقال: «أيُّها النَّاس إنَّه قد دنا منِّي خَلوفٌ مِن بين أظهُرِكُم»، والمسجد مليءٌ بالمُصلِّين الأنقياء الأتقياء، الذين ينظرون إليه وكأنَّهم ينظرون إلى أرواحهم، كأنَّما ينظرون إلى أفئدتِهم، أحبُّ إليهم مِن أبصارهم ومِن أولادهم.. مسجدٌ مباركٌ و(عليه الصَّلاة والسَّلام) على منبره يقول: «أيُّها النَّاس إنَّه قد دنا منِّي خلوفٌ مِن بين أظهرِكُم ألا فمَنْ كُنْتُ جَلَدْتُ له ظهرَه فهذا ظهري فليقتصَّ مِنه».. نعم.. لا تظالموا، «ومَن كُنْتُ أخذتُ منه مالاً فهذا مالي فليأخذ منه ما يشاء، ومَن كنتُ شتمت له عِرْضًا فهذا عرضي فليستقدِ منه»، ثُمَّ قال: «ولا يخشى الشَّحناء فإنَّها ليست مِن شأني»، ثُمَّ لما رأى الدُّموع تسيل مِن عيونهم، وعَلِمَ أنَّ الأفئدة تضطرب في صدورها ولم

يقم أحدٌ، قال (عليه الصَّلاة والسَّلام): «أو قد حلَّلني (أي سامحني) وعفا عنِّي أو حللني فلقيت ربِّي وأنا طيِّبُ النفس.. أو قال: وأنا ليس لأحدٍ عليَّ حقٌّ» [رواه البخاريُّ]، أو كما قال صلوات ربِّي وسلامه عليه..

أين رُؤساء الشَّركات اليوم؟!.. أين مَن عندهم، مُوظَّفون ما سلَّموهم راتبَهُم؟.. أين النِّساء؟ التي عندها خادمةٌ في البَيت تظلمها بأنواع الظُّلم؟!، وتُكلِّفها ما لا تَطيق، وتُعاتِبُها كلَّ يوم على أعمالٍ هي أكثر مِن قدرتها؟!.. أين الذين لم يصرفوا رواتبَ لَلسَّائقين وللخدم عندهم؟!.. أين الآباء الظَّلَمَة لبناتهم أو لأولادهم؟!.. الوَلَدُ يحتاج إلى زواجٍ ويحتاج إلى سيَّارةٍ ويحتاج إلى إكمال دراسةٍ، والأب قادرٌ، ومع ذلك يظلِمُ ولدَه في ذلك؟!.. أين الذين يظلمون زوجاتهم ولا يعدلون بين زوجاتِهم؟!.. أين الزَّوجة التي تكيدُ لضُرَّتها ليُطلِّقها الزَّوج وتتكلَّم عليها؟!.. فلا تظالموا «إنِّي حرَّمتُ الظُّلمَ على نفسي وجعلته بينكم مُحرَّمًا فلا تظالموا» [حديثٌ قدسيٌّ- رواه البخاريُّ].. إذا خَلُصَ الإنسان مِن هذا الظُّلم، ولَقِيَ اللهُ تعالى سليمًا، ليس مُفلِسًا، ليس عنده مظلمةٌ لأحدٍ مِن عِرْضٍ ولا مِن مالٍ ولا مِن جاهٍ ولا مِن منصبٍ، ولَقِيَ الله تعالى سليمًا؛ عندها ينجو.

يقول شيخُ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله): إنَّ اللهَ لينصرَ الدَّولة العادلة وإنْ كانت كافرةً، ويقصِم الدَّولة الظَّالمة وإنْ كانت مسلمةً.. انظر كَيف الظُّلم، فالظُّلم مرتعه وخيمٌ، لا ينبغي لنا فقط أنْ نتجنَّبه؛ كلا، بل ينبغي علينا أنْ نُناصِحَ الظَّالمين بأسلوبٍ حَسَنٍ، إذا واحدٌ ظَلَمَ موظَّفيه، أو زوجةٌ تظلم أبناءَها، أو امرأةٌ تظلم أبناءَ زوجِها لأنَّ أُمَّهُم مُطلَّقةٌ

أو ميِّتة، فهم أيتامٌ بين أيديها، أخٌ يظلم أخواته، أو بنتٌ تظلِمُ أُمَّها في تعامُلها معها، أو جارٌ يظلم جارَه بكثرة أذاه، فينبغي أنْ نُنَاصِحَ، وأنْ نُذكِّرَ بقدر المستطاع.

أسأل اللهَ تعالى أنْ ينفعني وإيَّاكم بما سمعنا، وأنْ يجعلَني وإيَّاكم مُباركين أينما كُنَّا.



لا تكن مفتاحًا للشر

كان الأعشى بن قيس رجلاً مِن كبار السِّنِّ مِن سُكَّان نجد اليمامة، وكانت نجد في ذلك الحين تُصدِّرُ الحِنطة والشَّعير وما شابه ذلك إلى المدينة، فكان أهلها فيهم تجارةٌ، ويحتاجهم النَّاس ويُصدِّرونها أيضًا إلى مكَّة، وكانت مكَّة تُعتبر مصدرا مِن مصادر تبادُل البضائع عند العرب في الحَجِّ والعمرة حتى قبل الإسلام، وكان الأعشى بن قيس سيِّدًا مِن سادات قومه، وكان رئيسا عليمًا، وكان شاعرًا نِحريرًا مُتمكِّنًا ينتشر شعره في كلِّ مكانٍ..

لَمَّا كبُرَ سِنُّه حتى جاوز التِّسعين سنةً سَمِعَ عن النَّبيِّ (ﷺ)، وأنَّه بُعِثَ مِن عند اللهِ تعالى نورا، نزل إليهم معه قرآنٌ يُتلى، وهم كانوا يعبدون

الأصنام ويتقرَّبون إلى هذه الأوثان؛ جعل ينظر إلى قومه، فإذا هم يأتون إلى هذه الأوثان يطوفون حولها ويتمسَّحون بها، ورُبَّما سجدوا لها ونحروا النَّحائر بين يديها، يتقرَّبون إلى حجارةٍ لا تضرُّ ولا تنفع، حدَّثته نفسه بالإسلام، فركب على ناقته وعُمره تسعون سنةً، وجعل ينشد الأشعار في النَّبيِّ (ﷺ) حتى مضى إلى المدينة، فماذا حدث له أثناء الطَّريق؟..

جعل الأعشى بن قيس، هذا الشَّاعر النِّحرير الشَّيْخ الكبير يمضي إلى المدينة وهو ينشد الأشعار قائلاً:

ألـــم تغتمض عيناك ليلة أرمد	وبتُّ كــما بات السَّليم مُسهَّدا
ألا أيُّها السَّــائل أين يمَّمْت	فــإنَّ لها في أرض يثرب موعدا
نبيًّا يـــرى ما لا ترون وذكره	أغار لـــعمري في البلاد وأنجدا
أجدك لـــم تسمــع وصاة مُحَمَّدٍ	نبيُّ الإله حيث أوصـــى وأرشدا
إذا أنت لـــم ترحل بزادٍ مِن التُّقى	وأبصرت يوم الحشـــر مَن قد تزوَّدا
ندمــــت على أنْ لا تكون كمثله	فترصد لـــلأمر الـذي كان أرصدا

وجعل ينشد الأشعار في رسول اللهِ (ﷺ).. قبل أنْ يصل إلى المدينة؛ فإذا بقومٍ مِن كُفَّار قريشٍ، قالوا له: مَن أنت؟، قال: أنا الأعشى بن قيس، قالَوا: عجبًا، الأعَشى بن قيس سيِّد أهل اليمامة، وكان العرب لهم أسواقٌ كبارٌ في الجاهلية، مثل عكاظ وذي المجاز ونحوهما، وكانوا يجتمعون في هذه الأسواق، ورُبَّما كان أحدهم بصحيفته يقف ويقرأ على النَّاس القصائدِ، وأيضًا كانوا في هذه الأسواق يتناقلون الأشعار، مَن ينشد شعرَ حسَّان، ومَن ينشد شعر الأعشى بن قيس وما شابه ذلك..

قالوا: أأنت الأعشى بن قيس؟، قال: نعم، فقالوا له يا أعشى، ماذا تريد؟، إلى أين أنت ذاهبٌ؟، قال: أنا ذاهبٌ إلى المدينة لمقابلة هذا النَّبيّ لأدخل في الإسلام، فنظروا إليه؛ قالوا: يا أعشى دينك ودين آبائك، فالآن هم على الإبل في الصَّحراء وهو على بعيرِه يتناظر ويتحاور معهم ومعه بعض قومه مِن أولاده وأهله، وهو يتحاور معهم وهم لا يريدونه يُواصل الطَّريق إلى المدينة حتى لا يدخل في الإسلام، وهو يريد أنْ يواصلَ، وقريشٌ بالمناسبة كانت تخشى أنْ يدخل الأعشى في الإسلام؛ فيُصبح عند النَّبيِّ (ﷺ) لسانٌ آخر قويٌّ بالشِّعر يتكلَّم به مع النَّاس مع حسان بن ثابت (رضي الله عنه)، والشِّعر كان في السَّابق له قُوَّتُه؛ لذلك لَمَّا أقبل الزَّبرقان بن بدر، وكان مِن الأمراء، يشتكي جرير إلى عمرَ، قال: يا عمر، جريرٌ، هذا الشَّاعر ينشد الأشعار في ذمِّي ويتكلَّم عليَّ، فقال له عمرُ: وماذا قال فيك؟، قال:

دَع المكارم لا ترحل لبُغيتِها ... واقعد فإنَّك أنت الطَّاعم الكاسي

يعني لا تتعب نفسك، فهناك مَن يشتغل ويؤكِّلُك ويُشرِّبُك، فقال عمرُ: ما أراه إلا مَدَحَكَ، يقول لك اجلس ونحن نخدمك، فقال له: سَل حسَّان الذي يعلم بالشعر، فقال عمرُ: ما تقول يا حسَّان؟، هل هجاه وذمَّه؟، فقال حسَّان: ما هجاه، ولكن سلح عليه، أي تغوَّط عليه، فأقبل عمرُ إلى جريرٍ وأدَّبه، وقيل إنَّه أعطاه مالاً وقال له: دَع عنك أعراض المسلمين، أنا أشتري منك أعراض المسلمين، وذكروا كذلك أنَّ أحدَ الشُّعراء أنشد قصيدةً في ذمِّ أحد الأمراء، أمير البلد؛ فغَضبَ بذلك الأمير، وأمرَ بهذا الشَّاعر، وأُخذ الغائط ولُطِّخ به، لُطِّخَتْ

ملابسه وشعره بالغائط، وطِيف به في المدينة، فلما طافوا به وانتهوا؛ مضى هذا الشاعر إلى بيته واغتسل ونظَّف نفسَه وشعرَه وملابسه، ثُمَّ قال قصيدةً يقول فيها:

يغســـــل الماء ما صَنَعْتَ وشِعري ثابتٌ مِنك في العظام الخـــــوالي

يقول أنت الآن طُفتَ بي بالمدينة، وجعلتَ النَّاس والأطفال يجرون ورائي ويضحكون مِن شكلي، وأشعر بنوعٍ مِن الإهانة بينهم، والنَّاس ينظرون إليَّ في كلِّ موطنٍ، صحيحٌ أنت أهنتي، ولكن هذه الإهانة تنتهي في ساعاتٍ، يغسل الماء ما صنعتَ، أمَّا شِعري فثابت مِنك في العظام الخوالي، شِعري يبقى يُنشَد فيك حتى وأنت في قبرك، فربما مرَّ بعض النَّاس بقبرِك، وقالوا هذا قبرُ فلانٍ الذي قال فيه الشَّاعر فلانٌ كذا وكذا.. فكانت القصائد لها أثرها إلى اليوم، كَم مِن قصيدةٍ قتلتْ صاحبها، وكَم مِن قصيدةٍ أَغْنَتْ صاحبَها، وكَم مِن قصيدةٍ فصلت صاحبها مِن عمله، وكَم مِن قصيدةٍ سالت مِن أجلها دماءٌ وسُحِقَتْ مِن أجلها جماجم وطُلِّقت لأجلها نساءٌ.. إلى الآن الشِّعر عند العرب هو ديوانهم ورأسٌ مِن رؤوس المتحدِّث.

فقريشٌ لَمَّا رأت الأعشى بن قيس، قالوا: الأعشى هذا إنْ وصل إلى مُحَمَّدٍ ودخل الإسلام؛ فسيصبح عند محمد شاعرَان من أقوى الشُّعراء.. حيلوا بينه وبين ذلك، فأقبلوا إليه وقالوا: يا أعشى إنَّ مُحَمَّدًا يُحرِّمُ الزِّنا، إذا أسلمت ما فيه زنا، أنت الآن تفعل ما تشاء واللات والعُزى ما تمنعك، ولكن إذا أسلمت ما زَنَيْتَ، فقال: أنا شيخ كبير وليس لي في الزِّنا حاجةٌ.. اذهبوا عني، وأراد أنْ يمشي، فتعلقوا به، وقالوا: تعال،

قالوا: إنَّ مُحَمَّدًا يُحرِّم الخمر، تَرى إذا دخلتَ في الإسلام؛ ما يصلُح أنْ تشرب الخمر، ويقام عليك حدّ الخمر؛ الجلد، فقال: أنا شيخٌ كبيرٌ، والخمر مُذهِبةٌ للعقل، مُذِلَّةٌ للرَّجُل، ولا حاجة لي فيها، فكان هناك بعضُ النَّاس حتى في الجاهلية ما كانوا يشربون الخمر، سُئل بعضهم في الجاهليَّة، في قريشٍ، يعبُد الأصنام ويئدُ البنات، قيل له: لماذا لا تشرب الخمر؟، قال إني رأيت الرجل إذا شربها اتَّهم أُمَّه وواقع أُختَه، يقول: كيف يسعى في جنونٍ مِن عقلٍ؟، يعني أنا الآن أوتيت عقلاً، وأُذْهِبَ عقلي بهذا الخمر..

لذلك النَّبيُّ (عليه الصَّلاة والسَّلام) حذَّر منها، يقول: «مَن شَرِبَ الخمرَ في الدُّنيا لم يشربها في الآخرة» [رواه البخاريُّ]، ويقول (ﷺ): «مَن مات مدمنا خمرًا لَقِيَ الله كعابد وثنٍ» [رواه البُخاريُّ]، لذلك النَّبيُّ (عليه الصَّلاة والسَّلام) سمَّاها «أُمَّ الكبائر»، ونص أهل العلم على أنَّها «أُمَّ الخبائِث»، والنَّبيُّ (ﷺ) لَمَّا ذَكَرَ الكبائر قال: «ألا أنبِّئكُم بأكبر الكبائر ألا أنبِّئكم بأكبر الكبائر الا أُنبِّئكُم بأكبر الكبائر؟». قالوا: بلى يا رسول الله، فذكر رسول الله (ﷺ) السِّحر والشِّرْك، وذكر (عليه الصَّلاة والسَّلام) شُرْبَ الخمر [رواه البُخاريُّ]، وذلك لأنَّ الخمرَ تُفسد على الإنسان عقلَه وتفسد عليه دينِه وربما جرَّته إلى أنواعِ مِن الضَّلال والفساد، وربما عبث النَّاس به وبدينه، وربما جرَّته إلى أنواعِ مِن الضَّلال والفساد، وربما بال على نفسه وضَحِكَ مِنه النَّاس، كل هذا لذهاب عقله..

فإذا كانوا بعضهم في الجاهليَّة على شِرْكِه وكُفْرِه يتنزَّهون مِن شرب

الخمر، فكيف يشربها وهو مسلمٌ؟!.. لذلك اللهُ سُبحانه وتعالى لمَّا ذَكَرَ الخمر في كتابه قال: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [سورة المائدة- الآية ٩٠]، والأنصاب هي الأوثان، وقد قَرَنَ الخمرَ مع الأوثان، والذي يشرب الخمر لا يُفْلِح..

فقالوا له: يا أعشى تَرى لو أسلمت يحرُم عليك الخمر، قال: والله لا حاجة لي في الخمر فهذه مُذْهِبَةٌ للعقل ومُذِلَّةٌ للرجل، وأنا لا أشرب الخمر، اتركوني، وأراد أنْ يذهب، فتعلقوا به، قالوا: يا أعشى، قال: نعم، فأعطوه العرض الأخير الذي لم يستطع الأعشى أنْ يتخلَّص منه، العرض الأخير الذي قال فيه النَّبيُّ (ﷺ): يكبُر ابن آدم وقلبُه شابَ على حُبِّ اثنتَيْن، ما هما؟..

هاتان الاثنتان اللتان قال فيهما النَّبيُّ (عليه الصَّلاة والسَّلام) «يكبُر ابن آدم وقلبُه شابَ على حُبِّ اثنتَيْن، قال: «حُبُّ الدُّنيا وطول الأمل»، أو قال: «حُبُّ المال وطول الأمل» [رواه البُخاريُّ]، طول الأمل هو طول العمر، وهذا لا يملك الناس أنْ يُقدِّمُوه لك، أمَّا المال فيملك الناس أنْ يُقدِّموه لك، قالوا للأعشى يا أعشى عُد إلى قومِكَ وابق على كُفْرِكَ وضلالك وعبادتك للأصنام ونُعطيك مائةً مِن الإبل، فجعل الأعشى يتخيَّل في عقله، مائة مِن الإبل تسير بين يدَيْه وتذهب وترجِع، وكانت الإبل عندهم في السَّابق لها قدْرُها، غير إبل اليوم، فالنَّاس لا يستعملونها في السَّفر ولا في المهر ولا في استخراج الماء مِن البئر ولا الزِّراعة ولا الحراسة..

هم كانوا في السَّابق إذا أراد الواحد أنْ يسوقَ مَهرًا لزوجته؛ يُعطيها إبلا، عشرة مِن الإبل أو عشرين إلى آخره، إذا أراد الواحد أنْ يُسافر؛ يبحث عن إبل، إذا أراد أنْ يحرث أرضه؛ أقبل إلى الإبل وحرث بها الأرض، إذا أراد أن يستخرج الماء مِن البئر؛ أقبل إلى البعير، وجَعَلَ عليه شيئًا مِن حطب ونحوه وربطه بحبلٍ وجعل طرف هذا الحبل في البئر، ويربط به الدَّلو، ويجعل هذا البعير يتقدَّم ماشيًا ويتأخَّر راجعًا ويستخرِج لهم الماء مِن البئر، وكانوا في الدِّيات والقتل يدفعون الدِّية من الإبل، كانوا إذا جاءهم الضَّيف يذبحون الإبل.. فكما قال اللهُ جلَّ وعلا ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [سورة الغاشية- الآية ١٧]، ويقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [سورة النَّحل- الآية ٥]، فهذه الإبل على هذا العدد، حتى النَّبيَّ (ﷺ) إذا أراد أنْ يُسافِر أو يغزو؛ يطلب مِن الصَّحابة أنْ يتبرَّعوا بالإبل، كما قال عُثمان (رضي الله عنه) لَمَّا دعا النَّبيُّ (ﷺ) النَّاسَ يتبرَّعون ليخرج جيش العُسْرَة في تبوك، قال: «أيُّها الناس تصدَّقوا»، فقام عثمان وقال: عليَّ مائةٌ مِن الإبل بأحلاسها وأقتابها، ثُمَّ قام آخر وقال: عليَّ مائةٌ أخرى بأحلاسها وأقتابها، ثُمَّ دعا النَّبيُّ (ﷺ) إلى الصَّدقة، فقام عثمان: عليَّ مائةٌ ثالثةٌ بأحلاسها واقتابها، فقال النَّبيُّ (ﷺ): «ما ضرَّ عثمان ما عَمَل بعد اليوم» [رواه البُخاريُّ].. العمل الصَّالح الذي قدَّمه عثمانٌ، ما ضرَّ عثمان ما فعل بعد اليوم..

المقصود أنَّهم أغروا الأعشى بشيءٍ مِثل هذا، فهو شيخٌ كبيرٌ، ولكنَّه يحبُّ المال، قالوا له: نُعطيك مائةً مِن الإبل على أنْ ترجع إلى قومِكَ،

قال: مائة مِن الإبل تجمعونها الآن بين يدَيْ، قالوا: نعم، قال: افعلوا، فجمعوها لها مائةً مِن الإبل، وصدق الله عز وجل إذ قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [سورة الأنفال- الآية ٣٦].. انظر ماذا صنع الله سبحانه وتعالى؟.

أخذَ الرَّجلُ الإبل، وجعل يتقدَّمها ماشيًا وهذه الإبل وراءَه، ويسوقها سَوْقًا، ويتخيَّل ماذا سيفعل بها إذا رَجَعَ إلى قومِه.. سبحان الله، وجعل يمشي هذا الشَّيْخ الكبير يتصوَّر ماذا يفعل بهذه الثَّروة التي حصل عليها، حتى إذا كاد أنْ يصلَ ديارَ قومِه؛ تعثَّرت به ناقتُه، فوَقَعَت ووقع الرَّجل على رقبتِه ومات ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا﴾ لأنَّه ما عنده إبل، ﴿وَالْآخِرَةَ﴾ لأنَّه لم يُسْلِم ﴿ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [سورة الحج- الآية ١١].

وهذا يدلُّك على أنَّ بعض الناس يحول أصحابهم بينهم وبين الهِداية، كان يتمنَّى أنْ يهتدي، بعض البنات تتمنَّى أنْ تلتزم بالحجاب، وتتمنى أنْ تتركَ العلاقات المُحرَّمة، ربما التي تُقيمها مع بعض الشَّباب، وبعض الناس ربما يتمنَّى أنْ يتوبَ مِن شُربِه للخمر، يتوب مِن تركه للصَّلاة، يتوب مِن وقوعه في بعض أنواع المعصية، يتوب مِن سفرِه لبلدانٍ يقع فيها أنواعٌ مِن الفواحش، ولكن سُبحان الله، يكون له قرناء يُزيِّنون له الباطل ويُخوِّفونه من الحقِّ، يقولون لها: تَرين لو تحجَّبت؛ يُصبح شكلُكِ غير جيِّدٍ وغير جذَّاب وغدًا تتعنسين ولا تتزوَّجين، والشَّاب يقولون له: تَرى لو أعفيت لَحْيتَكَ؛ يُصبح شكلُك خطأً، والنَّاس يضحكون منك، يا أخي صلِّ وصُم بدون لحيةٍ، ونحو ذلك، وربما لو أراد أنْ يتركَ

الرِّبا أو التَّعامُل بالرِّبا؛ خوَّفوه مِن الفقر، وإذا أرادت الفتاة أنْ تُعِفَّ نفسها وتتوب؛ خوَّفُوها مِن ذلك، وأنَّها ستعيش في تعاسة، كما قال الله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاء فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ [سورة فُصِّلَت- الآية ٢٥].. فبيَّن الله عزَّ وجلَّ أنَّ هؤلاء لهم قُرناء يدعونهم إلى الضَّلال..

فلنحذَر مِن القرناء أنْ يكونوا مفتاحًا للشَّرِّ كما كان أبو جهل مفتاحًا للشَّرِّ، وكما كان أبو لهب مفتاحًا للشَّرِّ، وأُميَّة بن خلف مُفتاحًا للشَّرِّ، يَحذُر المسلم أنْ يكون مُفتاحًا للشَّرِّ.. انتبه مِن أنْ يستعمِلَك الشيطان لتكون شيطانًا في يده مِن شياطين الإنس يعبثُ بك كما يشاء، كما قال الأوَّل لما ذَكَر ذلك، قال:

وكنت امرأً مِن جند إبليس فارتقى ... بي الحال حتى صار إبليس مِن جندي

بعضُ النَّاس صفَّق إبليسُ لهم مُبتَهجًا وباع فنونه، وقال ما عاد لي دورٌ هنا، دوري أنا أنتم ستلعبونه.. أسألُ اللهَ سُبحانه وتعالى أنْ يُعيذنا وإيَّاكم مِن وسوسة الشيطان وتوهينه، ونسألُ اللهَ أنْ يستعملنا وإيَّاكم في طاعته، وأنْ يجعلنا الله جميعًا هَداةً مهديِّين.



اللص الفقيه؟

يقع بعض النَّاس أحيانًا في الخطأ، ولأجل ألا تلومه نفسُه؛ يبحث لنفسه عن مخارج، هو لم يقلع عن الخطأ، ولكن أهمُّ شيءٍ أنْ يحرِصَ على التَّخلُّص مِن لوم نفسه له، فمثلاً إنسانٌ ربما عقَّ والدَيْه، فإذا قالت له نفسه: لماذا تعقُّ والدَيْك، فهذا حرام ولا يجوز، وأنت مؤاخذٌ عند الله؛ فيقول في نفسه: أبي لم يعطني مالاً ولم يشترِ لي سيارةً، كما أنه ما ربَّاني كما ربَّى فلان ولدَه، أو فلانٌ قد أعطى ولدَه كذا وكذا، ويبدأ يبحث عن أسباب لأجل أنْ يستمرَّ على مثل هذا العقوق، ومِثل ذلك لو أنَّ إنسانًا أكل مال إنسانٍ آخر، أو مثلاً مُوظَّف سَرَقَ مِن المال الذي في شَرِكَتِه، أو بائعٌ مؤتمنٌ وسَرَقَ مِن المال، ثُمَّ لامته نفسُه: لماذا تسرق مِن المال؟ هذا

لا يجوز، فيبحث عن مخارج يقول: أصلاً هم يؤخِّرون الرَّواتب، أو هُم اتَّفقوا معي على ألف ريال، ولم يعطوني سوى ٩٥٠، وأنا اضطرِّيت أنْ أوافق على هذا؛ لذلك هذا التَّأويل هو الذي يُوقعُ النَّاس في الفساد.

نحن اليوم مع قِصَّةٍ عجيبة، مع لصٍّ فقيه، كيف أصبح لصًّا وفقيها؟! هذا له قصَّةٌ عجبٌ.

هذه القِصَّة ذكرها التَّنوخي في كتاب «الفَرَجُ بعد الشِّدَّة»، ذكر أنَّ شابًّا كان طالبَ عِلمٍ، وكان يُريد أنْ يسافِرَ مِن بلدٍ إلى بلدٍ، أنتم تعلمون العُلماء في السَّابق لم تكن عندهم وسائل تكنولوجيا اليوم، اليوم إذا دخلت الجامعات؛ تَجِدُ الدُّكتور أمامه الطُّلاب قد جاءوا مِن أماكن مُتعدِّدةٍ وبلدانٍ مُختلفةٍ، واليوم مِن خلال الإنترنت يُمكن أنْ ألقي مُحاضرتي ويسمعها ملايين النَّاس، يمكن أيضًا لَمن أراد العِلم أنْ يأتي لمواقع في الإنترنت ويستفيد، ولكن في السَّابق ما كان هذا مُتيسِّرًا، كان الواحد يضطرُّ أنْ يُسافر مِن بلدٍ لبلدٍ مِن أجل أنْ يطلبَ العِلم ويتعلَّم، حتى ذكر أبو العلاء المعرِّي: مرَّةً حملت كُتبي معي وسافرت من بلدٍ إلى بلدٍ، لَمَّا سافرت إلى البلد الآخر إذا بجزءٍ مِن الكُتب قد غرق بعرقي مِن شدَّة التَّعب والنَّصب والحرِّ..

هذا الشَّاب طالبُ عِلمٍ، وأراد أنْ يُسافرَ مِن بلدٍ إلى بلدٍ ومعه كتبه في كيسٍ وشيءٌ مِن ثيابه، فأقبل إلى قافلة متنوِّعَةٍ فيها تُجَّارٌ وفيها أناسٌ سيذهبون إلى زيارة أرحامهم، وكانوا في السَّابق إذا أرادوا أنْ يسافروا يسافرون في قوافل، إبلٌ بعضها وراء بعضٍ، معهم أطفالهم ونساؤهم،

وهذه القافلة تسير في الصَّحراء، ويحرصون أنْ تكون القافلة كثيرةً قدر المستطاع، ويكون معهم حُرَّاس وكلما كثُرَت القافلة لم يستطع قُطَّاع الطَّريق أنْ يقطعوا الطَّريق عليها، أو أنْ يأخذوا ما معها مِن متاعٍ..

جاء هذا الشَّابُ إلى قافلةٍ، واتَّفق معهم وركب على دابَّتِه ومعه كيسٌ فيه كتبه، أغلى عنده من عينَيْه، ومعه شيءٌ مِن ملابسه، ومضى مع القافلة، كان يُحدِّثُهم ويُصلِّي بهم إذا وقفوا، والقافلة تسير في الصَّحراء، وفجأة إذ بمجموعةٍ مِن قُطَّاع الطَّريق يقطعون الطَّريق على هذه القافلة، ويسرقون ما فيها ويأخذون المتاع والدَّواب، حتى إنَّهم مِن شدَّة السَّرقة نزعوا الملابس التي على النَّاس وأخذوها، لم يَدعوا إلا ما يستر العورة.. وقف الشَّابُّ مع التُّجَّار ومع النَّاس الفُضلاء، وقف هكذا ينظر إلى هؤلاء اللصوص وهم يقتسمون الأموال والدَّواب والثِّياب، ولم يهتم بمالِه وثيابِه همُّه على هذه الكتب التي سيأخذها هؤلاء اللصوص وهم لا يُقدِّرون قدرَها ولا يعرفون قيمتها، فربما يلقونها لدوابِّهم، فالكتب عند أهلها لها قيمتها..

فأنت اليوم مثلا لو عندك نسخةٌ من كتاب «رياض الصَّالحين» أو نسخةٌ مِن كتاب «تفسير ابن كثير»، ثُمَّ ضاع منك الكتاب، فستذهب إلى المكتبة وتشتري غيره بمبلغٍ يسيرٍ، أو تُصوِّرُه بآلة تصويرٍ، لكن في السَّابق كان الطالب إذا أراد أَنْ يملك كتابًا؛ يذهب ويتَّفِق مع ورَّاقٍ مِن أجل أنْ يخُطَّ له الكِتاب، يذهب إلى سوق الورَّاقين ويدخل، وإذا هذا يبيع كُتُبًا ويكتبها، ويشتري منه الكتاب أو هو بنفسه يجلس ينسخ، وربما كَتَبَ في ظُلمة ليلٍ على ضوء شمعةٍ، أو على مصباحٍ ضعيفٍ،

فهم كانوا يتعبون، فالطَّالب هذا ينظر إلى كُتبه فيها تعليقاتٌ له وفيها شروحاتٌ، تذهب هكذا وهؤلاء لا يقدرونها..

فأقدم هذا الشَّاب إلى زعيم اللصوص، قال: السَّلام عليكم، فقال له: اذهب وإلا قتلناك، قال: لقد أخذتم مني شيئًا يضرُّني ولا ينفعُكُم، قال: ما هو؟، قال: لن نعيد دابتك إليك، أو ثيابك، أو فلوسك، قال: لا، هذا الكيس فيه كتبٌ، وأشار إلى كيسٍ بين المتاع، قال: هذا الكيس فيه كتبٌ أنا تعبت وأنا أجمعها، فأنا أفتي النَّاس وأصلِّي بهم وأُعلِّمُ النَّاس، هذه ما تنفعُكم، قال: أيُّ كيسٍ؟، قال: ذلك الكيس، فأمرَ سيِّدُ اللصوص وجاءوا بالكيس وفتحوه؛ فإذا هي كتبٌ، فقال: خُذ كُتُبَك، فالشَّابُّ ارتاح، وقال: بارك الله فيك، وأخذ كُتُبَه..

فهذا زعيم اللصوص أُعْجَب بالشَّاب، شابٌّ طالبُ عِلمٍ يجلس مِن غير ملابسَ، فقال: أعطوه ملابسَه، فلَبِسَ ملابِسَه ووضَع العمامة، قال: أعطوه دابَّته، فأخذ الدَّابَّة، ثُمَّ أُعْجَبْ زعيم اللصوص بالشَّاب، فأخذ مجموعةً مِن الفلوس، وقال: خُذ هذه هديَّة لك، فقال الشَّاب: لا، أمَّا هذه فلا، قال: لِمَ؟، قال: هذا مالٌ حرامٌ لا يجوز أنْ آخذه منك، قال: هذا مالٌ حرامٌ؟، قال: نعم، أنت سرقته الآن أمامي مِن هؤلاء المساكين، فقال زعيم اللصوص: والله إنَّ هذا المال أحلُّ لنا وأطيب مِن المطر، قال: كيف؟، لقد سرقته أمامي وتقول إنَّه حلالٌ؟!، قال: نعم، قال: كيف؟، أثبت لي، قال: أتريد أنْ أُثْبِتَ لك أنَّه حلالٌ؟، قال: نعم، فقال له: اجلس، فجلس الشَّابُّ، فقال زعيم اللصوص لأحد الواقفين مِن التُّجَّار، وقال: تعال، فأقبل إليه التَّاجِر، فقال: أنت ما

تجارتُك؟، قال: أنا تجارتي في الإبل والغَنَم، قال: كم نِصاب الإبل؟، قال التَّاجر: ما أدري، قال: لو عندك عشرٌ مِن الإبل وخَمسٌ مِن الغَنَم وستٌّ مِن البَقَر، كَم تُخرِجُ زكاةً؟، قال: لا أدري، قال: يعني عمرك في حياتك كلها ما أخرجت زكاةً مِن مالِك؟، قال: نعم، قال: اذهب، ثُمَّ نادى الثَّاني، وقال: ما تجارَتُك؟ قال: أنا أشتغل في الذَّهب والفضَّة، قال: كَم نصاب الذَّهب؟، قال ما أدري.. سبعين؟، قال: خطأٌ، قال: ثمانون؟، قال: خطأٌ، قال: ولو عِندك نصابٌ مِن الذَّهب قليلٌ، ويُكْمَلُ النِّصاب مِن الفضَّة، هلْ تُخرِجُ الزَّكاة أم لا؟، قال: أطلع، قال: خطأٌ، قال ما أطلع، قال: خطأٌ، قال: فاذهب فأنت عُمْرُك ما زكَّيْت، قال: والله أنا ما أُزكِّي، قال: اذهب، نادى الثَّالث: ما تجارَتُك؟، قال: أنا أشتَغِل وأبيع الملابس، قال: عظيمٌ يعني عروض تجارةٍ، لو صار عندَّك النِّصاب في أوَّل السَّنة ثُمَّ نَقُصَ، وظلَّ هذا اللصُّ الفقيه يسأل أمثال هؤلاء، فسأله أَتُخْرِجُ الزَّكاة أم لا؟، فأجاب خطأً، ولم يستَطِع أنْ يجيب الجواب الصَّحيح، عندها التفت زعيم اللصوص إلى الشَّاب، فماذا قال له؟..

التفت زعيم اللصوص إلى الشَّابِّ بعدما سأل هؤلاء التُّجَّار الثَّلاثة، وقال: له يا أخي هؤلاء أموالهم لمَّا كانوا لا يُخرجون الزَّكاة منها، صار فيها حقٌّ زائدٌ ليس لهم، فواحدٌ عنده ألفُ ريالٍ حال عليه الحَول المفروض يخرج ٢٥ ريالاً زكاةً، فما أخرجها، فهذا عنده الآن فلوس ليست له، ٢٥ ريال هذه ملك الفقراء، فقال إنَّ هؤلاء مع عدم إخراجِهم للزَّكاة؛ يبقى في أموالهم حقٌّ زائدٌ ليس لهم، فيبعثنا الله إليهم

لنُؤدِّبهم ونخرِج الحقَّ مِنهم..

طبعًا هذا كلامٌ خطأ وحرام، حتى لو كان الإنسان ما يُزكِّي؛ فما يجوز أنْ أسْرِقَ مالَه، كما قال كمُطعمةِ الأيتام مِن كدِّ عرقها.. لكن لا تزني ولا تتصدَّقي.. فهذا حرامٌ، ومع ذلك انظروا لذلك اللصّ كيف أراد أن يعتذر لنفسه مِن أجل أنْ يقع في مثل هذا الخطأ.

ذكروا كذلك أنَّ قاضيًا أوقَفَ بين يدَيْه لصًّا، وكان هذا اللصُّ قد قفز في بيتٍ وكَسَر الخزانة الحديد الصُّلب، واستطاع أنْ يسرِقَ ما فيها، فلمَّا وَقَفَ بين يدَي القاضي، قال له القاضي: اسمع يا فلان، قال: أنا لا أَعْجَبُ أنَّك حرامي، فأنت عندك سوابق كثيرة، ولا أَعْجَبُ مِن حرصِكَ على المال، ولا أَعْجَبُ مِن قفزك في البَيْت، ولكنِّي أَعْجَبُ مِن شيءٍ واحدٍ، قال: ما هو؟، قال أنا أَعْجَبُ كيف استطعت أنْ تكسر هذا الحديد واستخرجتَ المال، فقال اللص: أيُّها القاضي أما سمعتَ قَوْلَ الشَّاعر:

ألا بالحرصِ يحصل مـــــا تريد وبالـــــتَّقوى يـلينُ لك الحديد

فقال: ما شاء الله!!، الأخ مِن داود (ﷺ)، يلين له الحديد؟!، لو عندك تقوى ما سرقت المال، ثم أمر به فعُوقِبَ أشدَّ العقوبة.

أنا أقصد مِن إيراد ذلك أنَّنا أحيانًا لَّما نقع في أخطاء؛ نبدأ نبحث لأنفسنا عن أعذار، مثل إبليس فهو أوَّل مَن بحث لنفسه عن عذرٍ، لَّما أمر اللهُ تعالى الملائكة بالسُّجود لآدم، وأُمِرَ إبليس بالسُّجود لآدم؛ قال الله تعالى في القرآن الكريم على لسان إبليس اللعين: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ

مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [سورة الأعراف- الآية ١٢]، وفي آيةٍ أُخرى قال: ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [سورة الإسراء- مِن الآية ٦١]..

لاحظ إبليس أبى أنْ يطيعَ أَمْرَ اللهِ عزَّ وجلَّ وأبى أنْ يسجدَ لآدم، ولكن العذر جاهزٌ، لماذا لم تسجد لآدم؟ قال: أنا ما سجدتُ لآدم لأنَّ عندي عذرا، لأنِّي أنا خيرٌ منه، وكيف أسجدُ له وأنا خيرٌ منه؟، وكَذَبَ لأنَّ آدم هو خيرٌ مِنه، والطِّين أشرف مِن النَّار، وأَمْرُ اللهُ جلَّ وعلا لا بد أن يُطيعه ويتَّبِعه ولا يتفلسف بين يدَي الله، حتى إبليس لَّما أراد أنْ يعصيَ بحث لنفسه عن مَخْرج، حتى فرعون لَّما أراد أنْ يدَّعي الألوهيَّة؛ ماذا قال؟.. ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [سورة القَصَص- الآية ٣٨]، ثُمَّ قال: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [سورة الزُّخرف- الآية ٥١]، يقول للنَّاس: أنا إلهكم والملك عليكم، ألا ترون الأنهار التي تجري مِن تحتي؟!، أفلا تبصرون؟!، حتى فرعون لَّما أراد أنْ يَقَعَ في الخطأ؛ بحث لنفسه عن مخارجَ..

أحيانًا الإنسان يقع في خطأٍ، وتكون المخارج صحيحةً، غُلب عليه ذلك، ماذا يفعل؟!، إنسان فَرْضًا دافع عن نفسه في موقفٍ مُعيَّن، وأثناء دفاعه عن نفسه وَقَعَ الذي أمامه مَيِّتًا ولم يقصد مِثل ما فعل مُوسى عليه السلام لَّما قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ [سورة القَصَص- مِن الآية ١٥]، جاء مُوسى ليفرِّق بينهما ويفصل بينهما، فجاء إلى الذي مِن عدوِّه، إلى

المصري، ووكزه وضربه في أسفل صدرِه؛ فمات الرَّجل، ومُوسى لم يقصد ذلك، ومُوسى لا يحتاج أنْ يبحث عن مخارجَ؛ لأنَّ المخرج جاهزٌ لأنِّي يا ربِّي ما قصدتُ ذلك؛ لذلك مُوسى عليه السلام مُباشرةً قال: ﴿...قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي..... الآية﴾.. صحيحٌ يا رب أنا ما قصدتُ، ولكنِّي قتلتُ الرَّجل خطأً، قال الله ﴿.....فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ (١٧)﴾ [سورة القَصَص]، فدلَّ هذا على أنَّ الإنسان إنْ وقع في خطأٍ مِن غير قصدٍ مِنه؛ فينبغي له أنْ يُسارِعَ في التَّوبة، أمَّا إذا وقع في الخطأ، فبحث لنفسه عن مخارجَ؛ فإنَّ هذا لا يعذرهم عند الله تعالى..

اللهُ جلَّ وعلا لَمَّا ذَكَرَ عذاب أهل النار، قال تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاء فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [سورة فُصِّلَتْ- الآية ٢٥]، بمعنى أنَّهم صار لهم أصحابٌ يبحثون لهم عن الأعذار، مثلاً واحدٌ شابٌّ معه مجموعةٌ مِن أصحابه، قال: يا شباب أنا أودُّ أنْ أتوب مِن شُرْبِ الخمر، يبحثون له مباشرةً عن مخارج، فيقولون: يا أخي أنت ما زلت شابًّا، إذا كَبِرْت؛ فتب إلى اللهِ، ثُمَّ يا أخي استمتع بشبابِك، فأنت ما زلت شابًّا وأمامك أنْ تستمتع بعمرِكَ، فهم يبحثون عن مخارج مِن أجل أنْ يستمرَّ على المعصية، مثل اللصِّ الذي يقول للشَّاب نحن نسرق هذه الأموال لأنَّهم ما يؤدُّون الزكاة، أو امرأةٌ تقول إنَّها تزني مِن أجل أنْ تأخُذَ المال لتتصدَّق به أو تبني مسجدًا.. كمُطْعِمةِ الأيتام تبني مسجدًا للهِ مِن غير حلِّه، فكان بحمد الله غير مُوفَّقٍ، كمطعمةِ الأيتام مِن كدِّ عِرْضِها لا

تزني ولا تتصدَّقي، فيبحثون عن مخارج لصاحبهم، أو ربما فتاةٌ أرادت أنْ تتحجَّب وتعتني بحجابها سواءٌ في المملكة العربيَّة السَّعوديَّة أو في غيرها، فمثلاً في العديد مِن البلدان التي زُرتها للأسف، الفتيات في الجامعات يلبسْنَ الملابس الفاضحة والبناطيل الضَّيِّقة، وربما وضعت إيشاربا على رأسها وقالت: أنا مُحجَّبةٌ، كيف مُحجَّبةٌ، وأنت قد أبرزت مفاتِنَك مِن خلال قميصٍ ضيِّقٍ وبلوزةٍ ضيِّقَةٍ وبنطالٍ ضيِّقٍ، ومع ذلك تقولين أنا مُحجَّبَةٌ؟!.. أينَ أنت والحجاب؟!!، ومع ذلك يأتي إليها بعض رفيقاتها.. ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاء فَزَيَّنُوا لَهُم﴾.. تقول لها أنت أحسن مِن غيرك، فهذه مخارج، المخارج لأجل عدم إصلاح النَّفسِ في طاعة اللهِ، تقول لها: أنت أَحْسَنُ مِن غيرِك، غيرِك والله تلبس بنطالاً أقصر مِن هذا، أنت على الأقل بنطالُك يصل إلى كعبَيْك، صحيحٌ ضيِّقٌ، ولكنَّه طويلٌ فغيرُكِ تلبسه قصيرًا إلى رُكْبَتِها، غيرُك لا تُغطِّي شعرَها، أنت على الأقل تُغطِّين شعرَكِ... أو شابٌّ فرضنا لا يُصلِّي في المسجد، فإذا قال لأصدقائه: يا جماعة أنا ما أُصلِّي في المسجد، وأُريد أنْ أُصلِّي في المسجد، قالوا: يا أخي أنت أَحْسَنُ مِن غَيْرِك، غيرك أساسًا ما يُصلِّي أبدًا، أنت على الأقل تُصلِّي..

الصَّحابة (ﷺ) لم يكونوا يبحثون عن مخارجَ، وما كان الواحد منهم يرضى بالدُّون مِن العبادات، بل كانوا دائمًا يبحثون عن الأعلى، وما كان الواحد يرضى أنْ يعيش في الظِّلِّ، كلا، بل كما قال:

ونحن قـــومٌ لا توسُّط عندنا　　　لنا الصَّدرُ دون العالمين أو القـــبر

ما كان الواحد منهم يبحث عن مخارِجَ عندما يُريد أنْ يقع في الخطأ،

سواءٌ في ظُلْمِ النَّاس أو في المعصية؛ لذلك حتى أسئلة الصَّحابة تختلف، همَّةٌ عاليةٌ، وبحث عن مخرجٍ واحدٍ؛ إلى الجنَّة، يأتي صحابيٌّ.. يا رسول الله ما أحبُّ الأعمال إلى الله، لم يسأل عن شيءٍ يُدْخِله الجنَّة؛ بل سأل ما أحبُّ الأعمال إلى اللهِ؟ يأتي الصَّحابيُّ الثَّاني في بداية المعركة، يقول يا رسول الله ما يضحك العبد مِن ربِّه؟.. يأتي ثالثٌ.. يا رسول الله ما أثقل شيءٍ في الميزان يوم القيامة؟.. ويأتي الرَّابع يقول: يا رسولَ اللهِ مَن أقرب الناس منك مجلسًا يوم القيامة؟..

ابحث بنفسك عن النَّجاة.. انتبه لا تكُن ممَّن يبحثون عن مخارج إذا وقعوا في الأخطاء، وَقَعْتَ في الخطأ؛ اعترف مثلما قال مُوسى «عليه السَّلام: ربِّ اغفر لي، فغَفَرَ له، أمَّا أنْ تبحث عن مخارج لك أو لغيرِك؛ فهذا مؤذنٌ بالدَّوام على المعصية والوقوع في الخطأِ.



مَن تَرَكَ شيئًا لله..

مَن يعِيَ التَّاريخ في صدره؛ يزيد أعمارًا إلى عُمره، الإنسان كلَّما نظر في أيَّام النَّاس، وتأمَّل في تاريخهم؛ ظهر له عبرٌ ودُرَرٌ، ولذلك ربُّنا جلَّ وعلا في كتابه الكريم، الحُجَّة المعجزة، الباقي إلى قيام السَّاعة، هذا القرآن العظيم، ذَكَرَ فيه مِن تاريخ الأُمَم السَّابقة ما يزيدنا عظةً وعبرةً إذا تأمَّلنا فيه، وقال اللهُ تعالى لنبيِّه «عليه الصَّلاة والسَّلام: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى﴾ [سورة يُوسُف- الآية ١١١]، وقال الله جل وعلا: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْراً﴾ [سورة طه- الآية ٩٩].. نقصُّ عليك مِن نبأ موسى ونبأ عيسى ونبأ لوط ونبأ شعيب، وقد آتيناك مِن لدنَّا ذِكرًا..

تعالوا نسبح في التَّاريخ لنصل إلى عام ٦٣٥ للهجرة، لنقف على قصَّة الملك المُظفَّر..

هذا المَلِكُ المُظفَّر كان مَلِكًا عادلاً، وكان عنده مِن الجند والمال الشَّيء الكثير، وإذا أردتُ أنْ تتكلَّم عن مُلكِه وعن حكمته وعن عقلِه فسيطول بك المقام؛ لكنِّي كنت أقرأ في كتاب «المنتظَم في أخبار الملوك والأُمَم» لأبي الفرج بن الجوزي (رحمه الله تعالى) ووقفتُ على قصَّةٍ في عفَّتِه أعجبتني، فأردت أنْ أنقلها لإخوتي وأخواتي.

الملكُ المَّظفَّر المُتوفَّى عام ٦٣٥ للهجرة، كان مَلِكًا وتحته مجموعةٌ مِن الممالك، إحدى هذه المدن كان عليها أميرٌ، ومات هذا الأمير وله بنتٌ واحدةٌ، وهذه البنت اعتدى الأمير الذي بعد أبيها على أملاكها وأخذها، حتى أصبحت البنت في فقرٍ شديدٍ، فجاءت عجوز إلى الملك المُظفَّر؛ فدخلت عليه، وقالت: إنَّ المَلِكَ فلانًا الذي كان تحت ولايتك خلَّف بنتًا واحدةً، وكان عندها مزارع وأموالٌ، لكن الأمير الآخر اعتدى وأخذ كل ما عندها وتركها فقيرةً، وهي تُريد أنْ تأتي وتشتكي إليك، فهل ممكنٌ ذلك؟، قال لها: نعم لتأت، فأقبلت تلك الفتاة إليه، فلمَّا رأى قوامها وجسمها، فإذا هي غايةٌ في الحُسْنِ والجمال، ثُمَّ أراد أنْ يتأكَّد أنَّها ابنة الأمير، فأراد الشُّهود أنْ يشهدوا بذلك، ففي السَّابق ما كانت هناك بطاقةٌ أو شيءٌ يدلُّ على الشَّخص، فلابدَّ أن تُرى لكي يشهد الشُّهود ويقولون نعم هذه فلانةٌ فعلاً، فلمَّا أسفَرَتْ عن وجهها؛ أشرق المكان بجمالها وحسنها، حتى إنَّ الرَّجلَ اضطرب مِن شدَّة جمالها، فما رأى في حياته مثل هذا الحُسن والجمال، فأمرها أنْ تغطِّي

وجهها؛ فغطَّته، فقال: ما حاجتك؟، فقالت: إنَّ الأمير فلانًا اعتدى على مال أبي بعد وفاته، وليس لأبي إلا أنا، وحرمني ذلك المال، وجئتك الآن أريد أنْ تساعدني في استرجاع مالي، قال: فأمر مباشرةً مِن لحظته أنْ يُعاد إليها المال، وقال: فما حالك الآن، فقالت: والله أعيش على كسر خبزٍ وأترزق مِن النَّقش على كفوف النِّساء.. فأمر لها بمالٍ مِن لحظتها، وأمر أنْ يُعاد إليها أموال أبيها..

هذه العجوز لاحظت أنَّه أُعجب بهذه الفتاة، فقالت: يا أيُّها الملك لو بَقِيَتْ في قَصركم الليلة، تقصد يتحدث معها ويسامرها، يقول: فكدت أنْ أقول نعم، لكنِّي تذكرتُ أنِّي عندي بناتٌ، وأنِّي مِن غدٍ أموت، وربما اعتدى أحدٌ على مالي، فجاءت ابنتي في ذلَّةٍ وانكسار إلى المَلِكِ الذي بعدي، وربما اعتدى عليها كما أعتدي أنا الآن على ابنة الرَّجل بعد موته..

تخيلوا هذا الملك في هذا الدِّيوان الكبير وهذا القصر وهو على عرشه وحوله ما حوله مِن أُبَّهةِ المُلْكِ، والأرائك والزِّينة في كلِّ مكانٍ، وهذا كله يدفع في القلب نوعًا مِن الاعتزاز والاغترار، وربما نوعا مِن الطُّغيان كما قال الله عز وجل: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى﴾ [سورة العَلَق- الآية ٦].. كلُّ هذا المُلك وهذا العَرش وهذه الأُبَّهة ما أنسته أنْ يقف عن حدود الله تعالى، فقال: لا والله بل تذهب إلى أهلها بارك اللهُ فيها، يقول: فخرَجَتْ وأخذت قلبي معها..

هذه القِصَّة في العِفَّة تدلُّكَ على أنَّ الإنسان كُلَّما تيسَّر له باب الشَّرِّ، ومع

ذلك استطاع أنْ يُمْسِكَ نفسه عنه، ويتخيَّل العاقبة التي ربما تبكِّر عليه في الدنيا قبل الآخرة، يجعله هذا بإذن الله تعالى يُمْسِكُ نفسه عن الوقوع في مثل هذه المعصية.

وذكر أيضًا التَّنوخيُّ في كتابه «الفَرَجُ بعد الشِّدَّة»، في أخبار العِفَّة أشياءَ منقطعةَ النَّظير، مِن ذلك أنَّ أحدَ تجار الكتان كان شديد السواد، وجاءه ضيف، فرأى غِلمانًا بيضا عنده، فقال: من هؤلاء؟، قال: هؤلاء أولادي، قال: عجبا!، قال: إنَّ أُمَّهُم إفرنجيَّةٌ ولي معها قِصَّة عجبٌ، قال: حدِّثني بالقِصَّة:

فذَكَرَ أنَّه دخل ديار الشَّام لما كانت تحت حُكم الصَّليبيِّين، دخلها مع بعض التُّجَّار المسلمين، وكان يبيع الكِتَّان، فمرَّت في يوم مِن الأيَّام عجوزٌ معها فتاةٌ في غاية الجمال، فأقبلَتْ وكانتا مِن النَّصارى، فجعلت المرأتان تنظران إلى ذلك الكِتَّان وإلى هذا القُماش، فلاحظت العجوز أنَّ هذا الفتى فيه من الإعجاب بهذه الفتاة شيءٌ عظيمٌ، فلمَّا أرادوا أنْ يمشوا؛ رَجِعَتْ إليه العجوز، قالت: أُعْجِبْتَ بها؟، قال: نعم، قالت: هذه زوجة القائد فلان مِن الصَّليبيين، يقول: فُتِنْتُ بها، قلت: إني أُريد أنْ أصيب منها، فَكم أدفع لك حتى تُيسِّري لي الأمر؟، قالت: أعطني مائة دينار، وأنا أضبط لك الأمر، يقول: فأعطيتها، فلمَّا جئتُ بالليل دخلتُ بيتها، قال: فسبحان الله أصابني همٌّ وغمٌّ وخرجتُ مِن مكاني، قال: فلمَّا كان مِن غد جُعْلْتُ أتحسَّر؛ كيف فوَّتُّ على نفسي هذه الفرصة، وراحت عليَّ المائة دينار، يقول: وجاءت العجوز، وقالت: ماذا فعلت بعد أنْ أخليتُ لك المكان؟

قلت: لا أدري ما الذي حصل لي، ولكن خذي أكثر من ذلك..

دفع للعجوز أربعمائة دينارٍ، يقول: نظرتُ إلى النُّجوم، فقلتُ: اللهُ تعالى يراقبني وأعصي اللهَ مع امرأةٍ نصرانيَّةٍ، أعوذ بالله، يقول: فخرجتُ، فلما خَرَجَ؛ يَقول: حضرني الشيطان، وقال: كيف تُفوِّتُ الفرصة، ينقطع قلبُك، يقول فبِعت دُكَّاني وجميع القُماش الذي فيه، ولك أنْ تتخيَّل في ذلك الشَّارع والدَّكاكين القديمة التي يبيعون فيها القماش والمتاع والنَّاس في تجارتهم وبيعهم وشرائِهم يعتمدون على ما فيها، وكما قال النَّبيُّ (ﷺ) عن الأسواق: «فيها ينصبُ الشيطان رايته» [رواه البُخاريُّ]، فجاءت العجوز في الليلة الثَّالثة، فيقول فبعت الدُّكَّان، وأعطيتها الفلوس، يقول: ولكنِّي أُريد أنْ أجلس معها، يقول: فلمَّا خلوتُ بها أيضًا؛ نَظَرْتُ إلى السَّماء، فقلت: أستغفر الله، أعصي الله مع امرأةٍ نصرانيَّةٍ، يقول: فخرجت.. فما الذي حصل له بعد ذلك؟..

يقول، بعد أنْ باع دكانه وخسر مالَه، يقول: فلما مضى يومٌ أو يومان وأنا أتحسَّر، لا عندي دُكَّانٌ وذهبت أموالي عند تلك العجوز، وأنا لم أحصل ما أريد مِن المتعة مِن المرأة، في كلِّ مرَّةٍ أقول حرامٌ، وأتقي الله، يقول فإذا بصارخٍ يدخل إلى السُّوق، ويقول: إلى مَن هاهنا مِن التُّجَّار المسلمين، العُهدةَ التي بيننا وبينكم، المعاهدة، تنتهي بعد يومَيْن، الذي عنده شيءٌ يبيعه أو نأخذه منه ونقاتِلُه، يقول: فحمدتُ اللهَ أنِّي بعت دُكَّاني بربحٍ قبل أنْ يأتي ذلك الرجل، وخرجتُ..

قال: فتعلَّق قلبي بتلك المرأة، فلم أزل أتاجر بالجواري، أبيع وأشتري،

وكانت الجواري في السَّابق مع كثرة الحروب والغنائم بين المسلمين وبين أعدائهم، المسلمون يأسرون مِن العدو، والعدو يأسر مِن المسلمين، لكن فرقٌ عظيمٌ بين تعامُل الإسلام مع الأسرى، وبين تعامُل الكافرين مع الأسرى، النَّبيُّ (ﷺ) لَمَّا جاء أسرى معركة بدر، أمر الصحابة بالإحسان إليهم، ورأى على بعضهم ثوبًا رديئًا، فأمر أنْ يُعطى ثوبًا أحسن، هو أسيرٌ، ويكفي أن الله جل وعلا قال: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيرًا﴾ [سورة الإنسان- الآية ٨].. والأسير كافرٌ، ومع ذلك الصَّدقة عليه مذكورةٌ في القرآن، بل إنَّ النَّبيَّ (ﷺ) أمر بالإحسان إليهم حتى كان الصَّحابة الذين يحرسونهم، يعطونهم الطَّعام الطَّيِّب ويأخذون الرَّديء، فيُحضر مثلاً لبنًا وتمرًا وخبزًا.. الصَّحابة يعطونهم اللَّبن والتَّمر، ويأكلون الخبز الناشف وعليه ماءٌ، إحسانًا إلى الأسرى وهُم كُفَّارٌ، وقد كانوا يقاتلوننا قبل ساعاتٍ، ومع ذلك يحسنون إليهم..

هؤلاء الأسرى صبيانهم ونساؤهم يصبحون خدمًا عند المسلمين، وتصبح المرأة جاريةً مِلك يمينٍ، كما قال تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [سورة النِّساء- مِن الآية ٦]، وإذا الإنسان وقع في قتلٍ خطأٍ؛ يَعْتِقُ رقبةً، إذا الإنسان وطئ امرأتَه في نهار رمضان؛ أعتق مِنهنَّ، مِن الرِّجال أو النِّساء مِلْكِ اليمين، إذا الإنسان حلف في يمينه، ولم يُتمَّ يمينَه؛ فيُسنُّ له أنْ يَعْتِقَ.. النَّبيُّ (ﷺ) يقول: «مَن أَعْتَقَ عبدًا أعتق الله بذلك العبد بكلِّ عضوٍ مِن ذلك العبد عضوًا مِن ذلك الرَّجل مِن النَّار حتى فَرْجَه بفَرْجِه» [رواه البُخاريُّ]، بمعنى لَمَّا أُعْتِق عبدي؛ فالله تعالى يُعْتِقَهُ مِن النَّار،

لاحظ أنَّ الإسلامِ يسمح بأنَّهم يُؤسَرون ويصبحون خدمًا، لكن مع ذلك بعد أسرهم أَمَرَ بالإحسان إليهم، ثُمَّ يقول واعتقوهم لوجه الله.. يكفيك يا أخي أنَّ النَّبيَّ (ﷺ) حتى عند موته، ما هي الكلمة التي كان يُردِّدُها؟، كان يقول: «الصَّلاة الصَّلاة وما مَلَكَتْ أيمانكم» [رواه البُخاريُّ]، دلَّ هذا على عِظَمِ هؤلاء..

ولكن بالله قارنوا بينهم وبين تعامُل الكافرين اليوم مع الأسرى، ماذا فعل الأمريكان مع الأسرى في أبو غريب بالعراق مِن تعريَتِهم وضربِهم وسوء التَّعامُل معهم، حتى لو تعاملوا مع حيواناتٍ بهذه الطريقة؛ ما جاز ذلك، لو تعاملوا مع مجموعةِ خنازير بهذه الطَّريقة؛ لكان حرامًا، يتعاملون مع هؤلاء بهذه الطَّريقة، بعضهم مثقَّفون وبعضهم حفظة قرآنٍ وبعضهم أطباء وبعضهم دكاترة جامعة، ويعاملونهم بهذه الطَّريقة، كيف تعامل الأمريكان مع السُّجناء في جوانتناموا؟، سجنوهم في شباكٍ لا يُسجَنُ فيها الدَّواب، ولو سجنوا فيها كلابًا؛ لقامَتْ جمعيَّات حقوق الحيوان بمقاضاتهم في أرفع المحاكم الدَّوليَّة، ثُمَّ يأتون ويلقون هؤلاء الأسرى ويتعاملون معه بأخسِّ أنواع التَّعامُل وأسوأ أنواع التَّعامُل، سواءٌ بنقلهم بالطَّائرات بكل بجاحةٍ، ألمٌ وتعذيبٌ، وحتى بعد وصولهم، انظر كيف يتعامل اليهود مع الأسرى الفلسطينيِّين، ثُمَّ قارن بين تعامُل الإسلامِ مع الأسـرى وبين تعامل أولئك، صدق الله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [سورة الأنبياء- الآية ١٠٧].

هذا الرَّجل يقول: جُعلتُ أشتغل ببيع وشراء الجواري حتى يذهب ما بنفسي مِن ذلك التَّعلُّق، ولكن مازال قلبي مُتعلِّقًا بها، حتى ذُكر لي

أنَّ الخليفة يُريد جاريةً، قال فجئتُ مِن عندي بجاريةٍ حسناءَ عرَّفتُها على الخليفة، قال: فأُعْجِبَ بها، قال: بكم؟، فقلت: بعشرة آلاف دينارٍ، قال: أعطوه، قالوا ما وجدنا بالخزينة إلا خمسة آلاف دينارٍ، قال: تأتينا مِن غدٍ، قال: قلت إنِّي مسافرٌ وأحتاج بقيَّة مالي، قال: فاذهبوا به إلى الأسيرات الجواري الجُدد اللَّاتي جيء بهنَّ مِن الفرنجة، ففي تلك الأيَّام كانت هناك حروبٌ مع الصَّليبيِّين، وانظروا إلى إحدى الأسيرات يختارها جاريةً بدلاً مِن الخمسة آلاف التي دَفَعَ إلينا، يقول: فذهبت، فلمَّا فتحوا المكان نظرتُ، فإذا بصاحبتي التي كنت أريد أنْ أخلوا بها قبل سنين، فإذا هي أسيرةٌ جاءت تحضر الحرب مع زوجها القائد، وربما قُتل القائد وأُسر أو هَرَب، يقول: فإذا هي نفسها بين يدَيَّ، يقول: فأخذتها، قال: ومعها كيسٌ فيه متاعها، فحملناه معنا، قال فلمَّا ذهبتُ إلى البَيْتِ؛ قلت لها: هل عرفتني؟، قالت: لا؟ ما عرفتك، قلت لها: ألا تذكرين ذلك الرجل الذي كان يبيع الدُّكَّان والقماش في ذلك اليوم، وحصل منه كذا وكذا معك، وكان في كلِّ مرَّةٍ ينظر إلى السَّماء ويقول: أعوذ بالله الله تعالى، ينظر إليَّ وأعصي اللهَ مع امرأةٍ نصرانيَّةٍ، يقول: فقالت لي: نعم أذكر، أنت فلان؟، قلت: نعم، قال: ففتحت كيسها، وأخرجت ثلاث صرر مِن المال، قالت: والله ما حرَّكتُ مالَك، وكنت غنيَّة عنه، فدفعت إليَّ المال بذاتِه، يقول: فهي أُمُّ أولادي الآن، ثُمَّ قال لضيفه وهي التي طبخت لك الطَّعام..

المقصود مِن هذا أنَّ مَن تَرَكَ شيئًا للهِ؛ عوَّضه اللهُ خيرًا منه.. خاصة أن الفتن اليوم أَمرها ميسر، ربما تذهب الآن إلى الأسواق، فترى فيها أنواعًا

مِن المنكرات، أنواعا مَن تكشُّف النِّساء وأنواعا رُبَّما مِن الغزل وتعرُّض الشَّباب للبنات، وتعرُّض البنات كذلك للشَّباب.. مَن أراد في ذلك المكان، أنْ يكون في علاقةٍ مُحرَّمةٍ، أو يُطْلِقُ بصره في الحرام؛ لاستطاع أن يفعل ذلك، اذهب الآن إلى المستشفيات، أو بعض الجامعات المختلطة التي يختلط فيها الشَّباب بالفتيات، حتى أصبح الشَّاب يتعامل معها وكأنَّما يتعامل مع أقرب النِّساء إليه، فيلمسها ويضع يده عليها، وربما قبَّلها، وأصبحت المسألة الآن فتنًا، فقُدرة الإنسان على العِفَّة، وأنْ يتركَ ذلك الأمر مع قُدرته عليه؛ سيُعوِّضه اللهُ تعالى بإذن الله خيرًا منه.

أسالُ اللهَ سبحانه وتعالى أنْ يعفنا، وأسألُ اللهَ تعالى أنْ يحفظَنا وإيَّاكم بحفظه، وأنْ يكلأنا برعايته ويُعيذَنا وإيَّاكم مِن الفِتَنِ، ما ظهر منها وما بَطَن.



عشق صحابيّ

كان بين صحابيٍّ جليلٍ وامرأةٍ في الجاهليَّة علاقةُ حُبٍّ، فلما جاء الإسلام تركها، ثُمَّ رآها يومًا مِن الأيَّام في موقفٍ عصيبٍ، الموقف الذي رآها فيه كان موقفًا غير عاديٍّ، وكان في غير بلده الذي هو فيه، ومُتمكِّنًا أنْ يفعلَ أيَّ شيء، فمَنْ هو هذا الصَّحابيّ؟، وما قصَّتُه مع تلك المرأة؟، وكيف أنجاه الله تعالى مِن ذلك؟، وما هو موقف النَّبيِّ (ﷺ) معه؟، وماذا أنزل الله تعالى مِن القرآن حول هذه الحادثة؟..

هذا الصَّحابيُّ الجليل هو مَرْثَد بن أبي مَرْثَد الغنويّ (رضي الله عنه).. لمَّا هاجر النَّبيُّ (ﷺ) مِن مكَّة إلى المدينة ووطَّد دعائم الإسلام، وبدأ يحكم في أصحابه ويُعلِّمهُم؛ برز بعض الصحابة في أشياء كحفظ الحديث

وكتابته أو الحرب وفنونها...

مَرْثَد بن أبي مَرْثَد (رضي الله عنه) كان قويَّ البِنية وكان شجاعًا، وسريعًا، قد لا يتقن طلب العِلم كما يتقن أبو هريرة، ولكنَّه كان يُتقن أشياء أخرى، فكان النَّبيُّ (صلى الله عليه وسلم) يرسله إلى أسرى المسلمين عند كُفَّار قريشٍ، وكانوا مُقيَّدين في أيديهم وأرجلهم، فكان يأتي إليهم ويقفز في البيت الذي هُم فيه، يحملهم على ظهره ثُمَّ يخرج بهم إلى مكانٍ آمنٍ ويفُكّ قيودَهم ويهرِّبُهم إلى المدينة، حربٌ بين المسلمين وقريشٍ مستمرَّةٍ، فكانت قريش تُحاول أنْ تأسرَ وتختطف مِن المسلمين، في إحدى المرات أقبل نفرٌ مِن الكافرين مِن قريشٍ وغيرهم إلى جنبات المدينة، والنَّبيُّ (صلى الله عليه وسلم) قد جعل إبل الصَّدقة ترعى في جوانب المدينة، فأقبل أولئك وهجموا على هذه الإبل وسرقوها، وسرقوا مِن بينها ناقة النَّبيِّ (صلى الله عليه وسلم) القصواء، واختطفوا أيضًا امرأةً مِن نساء المسلمين كانت ترعى إبلها، ولكن يسر الله لها فنجت منهم هربًا.. لم يعتد المسلمون عليهم، بل كفار مكة هم من كانوا يبدؤون الاعتداء، والله تعالى قال: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [سورة البقرة- مِن الآية ١٩٤]، وقال جل وعلا: ﴿وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [سورة الشُّورى- مِن الآية ٤٠].. مِثل ما تفعلون أنتم بنا؛ نفعلُ بِكم، فكان مَرْثَد يفعل ذلك (رضي الله عنه).

في يومٍ مِن الأيَّام خرج مَرْثَد إلى مكَّة، وتسلَّل ليقفزَ في بيتٍ مُعيَّنٍ مأسورٍ فيه واحد مِن المسلمين، فلما أراد أنْ يدخل رأته امرأةٌ اسمها عناق، هذه المرأة كانت عشيقةَ له أيَّام الجاهليَّة، فلمَّا رآها ورأتُه؛ اختبأ عنها في ظلِّ جدارٍ، والجدار كان له ظلٌّ بسبب ضوء القمر، فجاءت

إليه قالت: مَرْثَد، يا مرحبًا وأهلاً، فسكت؛ فهذه صديقته في الجاهلية وبينهما علاقةٌ سابقةٌ، فسكت، قالت: مرحبًا يا مَرْثَد، هلُمَّ فبِت عندنا الليلة، قال: يا عناق حرَّم الله الزنا، هو الآن في ظلمة الليل بين جبال مكَّة وبين بيوتها القديمة، وهو في ظلٍّ هذا الجدار وقد غاب عن أعين النَّاس فلا يراه أحدٌ إلا الله تعالى، وهو مختبئٌ وذلك الأسير المسلم ينتظر مَن يفُكُّه مِن المسلمين، وهو في هذا المكان وهذه المرأة تدعوه وهو غريبٌ عن بلده ما عنده مراقبٌ مِن المسلمين، ما فيه أحدٌ مِن المشركين أيضًا يُمكن أن يراه، فلو أراد أنْ يفعلَ بدون أنْ يُراقِبَ اللهَ جل وعلا لاستطاع ذلك، ولكن قال يا عناق، ولكنَّ الله حرَّم الزِّنا، قالت: هَلُمَّ، قال: يا عناق، حرَّم اللهُ الزِّنا، قالت: لتأتينَّ أو لأصرُخَنَّ، فأراد أنْ يهرب مِن بين يدَيْها فصرَخَتْ، قالت: يا معشر قريشٍ.. يا معشر قريشٍ، إنَّ هذا يُهرِّب أسراكم، فانطلق مَن انطلق ممَّن سَمِعَ صُراخَها، وجعل يبحث عنه، لكنه انزوى إلى حديقةٍ ودخل فيها واختبأ فيها، حتى إذا خفَّ عنه الطَّلب؛ خرج بعد وقتٍ في ظُلمة الليل إلى صاحبه المسلم.. أرأيتم أيضًا الشَّجاعة؟!.. ما قال الحمد لله أنا أريد أنْ أنجو وأنفذ بجلدي، ولكن أنا عندي غايةٌ.. أتيتُ مكَّة لأحقِّق غايتي، فما رَجَعَ للرَّسول (ﷺ) وقال الحمد لله كادوا يمسكون بي، لا، أَقْبَلَ مباشرةً حتى قَفَزَ في ذلك البيت، وحمل ذلك المسلم على ظهرِه وفتح الباب وهرب به حتى جاء إلى مكانٍ آمنٍ؛ فوضعه وفكَّ عنه قيدَه، ومضيا يمشيان إلى المدينة..

وَصَل إلى المدينة بعد أيَّامٍ لأنَّ المدينة بينها وبين مكَّة خمسمائة كيلومتر، وُهم كانوا في ذلك الحينَ يقطعون الفيافي والقِفار على أقدامهم، تصوَّر

في مُخيِّلَتِك الآن مشهد مَرْثَد بن أبي مَرْثَد الغنويِّ (رضي الله عنه) ومعه هذا الصَّحابِيُّ وهما يمشيان إمَّا على إبلٍ وإمَّا على أقدامهما، يقطعان الطَّريق ما بين مكَّة والمدينة، كان مَرْثَد يمشي طوال الطَّريق، وعقلُه وقلبُه مشغولان بعناق، بنظرةٍ نظرها إليها، فثار في قلبه الشَّجنُ والحبُّ والذِّكرى لما كان في السَّابق، فهو يمشي على بعيره أو قدمَيْه وقلبُه مشغولٌ بتلك الفتاة التي نظر إليها.. لكنَّ الله حرَّم الزِّنا، فجعل يسير ويمضي عليه اليوم واليومان والثَّلاثة ليقطع هذه المسافة ما بين مكَّة والمدينة، حتى وصل إلى المدينة، أقبل والمدينة مِن بعيد ينظر إليها وهو قادمٌ إليها، جعل يمشي حتى وصل إليها.

مضى ذلك الأسير إلى أهله وأقبل مَرْثَد إلى مسجد رسول اللهِ (صلى الله عليه وسلم).. دخل على النَّبيِّ (صلى الله عليه وسلم) وحدَّثه بما حصل، أنَّه يحبُّها وبينه وبينها علاقةٌ في السَّابق، ثم قال: يا رسولَ الله، أنكح عناقًا؟، أتزوجها؟، فقال النَّبيُّ (صلى الله عليه وسلم): يا مَرْثَد، حرَّم اللهُ الزِّنا، فسكَتَ، ثُمَّ قال: يا رسول الله، أنكحها؟، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة النُّور- الآية ٣].. أنزله اللهُ تعالى قضاءً تامًّا، مَرْثَد بن أبي مَرْثَدٍ لمَّا سَمِعَ مثل ذلك مِن النَّبيِّ (صلى الله عليه وسلم)، أوَّلاً هو ما جاء إلى النَّبيِّ (صلى الله عليه وسلم) إلا وهو يريد أنْ يستشير، وهذا هو المنهج الشَّرعيُّ، الإنسان إذا عُرِضَتْ أمامَه فتنةٌ مِن الفِتَنِ؛ فلابدَّ مِن شكوىً لذي مودَّةٍ؛ إلى شَيْخٍ أو صاحبٍ لك أو عالمٍ أو أبيك أو أُمِّك أو أخٍ أكبرَ عاقلٍ لا يُشجِّع على المُنْكَر، لكي يحلَّ المشكلة، مَرْثَد بن أبي مَرْثَدٍ لمَّا شَعَرَ أنَّ قلبه اشتاق إلى حاله الأوَّل؛ لم

يدَعْ قلبَه وشأنَه، وإنَّما جاء إلى طبيبِ القلوب؛ رسولِ الله (ﷺ)، وألقى بين يدَيْه السَّيْف والقلمَ، قال يا رسولَ اللهِ أنا بين يدَيْك، أنا عِندي مشكلةٌ عاطفيَّةٌ، حبٌّ، أنكح عناقًا يا رسول الله؟، فإذا بالنَّبيِّ (ﷺ) يُعطيه الخبرَ مباشرةً..

السُّؤال هل هذا يعني لا يُوجد حلٌّ بينه وبين عناقٍ؟، ما معنى قول الله تعالى ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾، هلَ هي حكايةٌ لحالٍ مُعيَّن، أم أنَّها تُعطي حُكْمًا فقهيًّا لنا؟.. هذا أيضًا لابدَّ أنْ نتبيَّنَه ونتفهَّمَه مِن أجل أنْ نعدِل في القضيَّة..

قول الله جل في عُلاه ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ معناه أنَّ الإنسان الذي لا يزال واقعًا في الزِّنا لم يتُب منه؛ فإنَّ المرأة التي توافق على الزَّواج منه تكون مثل الزَّانيات، كيف؟.. لا يعني أنَّ عليها إثم الزِّنا، ولكن بوقوعه عليها وبوطئه لها، هو لا يفرِّقُ والعياذ بالله بينها وبين النِّساء اللاتي يقع عليهنَّ بالفاحشة، فهذه يطؤها ويطأُ الثَّانية والثَّالثة، والفرق أنَّ هذه بينه وبينها عقدٌ شرعيٌّ، فتُعْتَبر هذه المرأة في نظره مِن ضمن النِّساء اللاتي يطؤهن، فصارت كالزَّانية، ولا يعني أنَّ عليها إثم الزاني، أو أنَّ المُشركة هي التي ترضى أنْ يطأها الزَّاني كما يطأُ غيرها، لذلك الإنسان المشتهر بالزِّنا والعياذ بالله، لا يجوز أنْ يُزوَّج، وكذلك الحال في حالِ المرأة الزَّانية التي اشتهرت بهذه الفاحشة؛ لا يجوز أنْ ينكِحها أحد، إلا إذا تاب الزَّاني وصلُحَ حالُه ثُمَّ أقبل خاطبًا، عندها إذا صلُحَ حالُه وأصلح ما بينه وبين الله؛ عندها يُعامل معاملة العفيف وعفا اللهُ عمَّا سلف، ومن عاد فينتقمُ اللهُ مِنه، وإذا كان ربُّنا جلَّ

في عُلاه يغفرُ الشِّرْكَ وغيرَه مِن أنواع كبائر الذُّنوب؛ فما بالُك بالزِّنا..
كذلك المرأةُ الزَّانية إذا تابت وصلُحَ حالُها بينها وبين الله تعالى وأنابت وتَرَكَتْ ما كانت عليه وندِمَتْ على ما مضى؛ فإنَّها بذلك تحلُّ لِمَنْ أراد أنْ يتزوَّجها مِن المؤمنين، أمَّا إذا كانت ما زالت واقعةً في الفاحشة؛ فمَنْ ينكِحُها يُعتبرُ زانيًا..

إنَّ رجوعَ الإنسان إلى غيره عندما يقع في مِثل هذا الإشكال يُنجيه مِن أنْ تزلَّ قدمُه في الباطل، الصَّحابة (رضي الله عنهم) كانوا إذا وقع في قلوبهم شيءٌ أو حدث أمامهم إشكالٌ، فمُباشرةً كانوا يأتون النَّبيَّ (صلى الله عليه وسلم) ويطلبون منه أنْ يحلَّ لهم هذا الإشكال، وهكذا كان يفعل العُلماء في السَّابق؛ يأتي الطَّالب إلى أبي حنيفة فيشتكي إليه: يا شَيْخ، إنِّي أجدُ في نفسي كذا وكذا، هل مِن حَلٍّ؟.. يأتي الطَّالب إلى الإمام أحمد أو مالكٍ أو الشَّافعيِّ، كان يأتيهم طُلابهم في السَّابق يشكون إليهم ما يجدون في أنفسهم، وهكذا؛ لذلك الله تعالى قال: ﴿وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ﴾ [سورة النِّساء- مِن الآية ٨٣]، ثُمَّ قال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [سورة النِّساء- مِن الآية ٨٣].. أَمَرَ اللهُ تعالى أنَّه إذا حصل اضطرابٌ في الأمر؛ فإنَّه ينبغي عندما يقع ذلك مباشرةً أنْ يعود الإنسان إلى الرَّسول (صلى الله عليه وسلم) في حياته كما كان الصَّحابة يفعلون ذلك، وقال تعالى ﴿وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ﴾، إذا لم يكُن الرَّسولُ (صلى الله عليه وسلم) موجودًا؛ رجعوا إلى أولي الأمر، وهم الحُكَّام والعُلماء، يرجعون مِن أجل أنْ يُقضى بينهم ويُفصَل بينهم..

لذلك لمَّا وقع لحنظلة (رضي الله عنه) شيءٌ؛ جاء مباشرةً يشتكي إمَّا إلى النَّبيِّ

(عليه الصَّلاة والسَّلام) أو إلى مَن يحلُّ له المشكلة، حنظلة لَقِيَ مرَّةً أبا بكر؛ فقال له حنظلة (ﷺ): يا أبا بكر، نافَقَ حنظلة، قال: وما ذاك؟، قال: إنَّا نكون عند رسولِ اللهِ (ﷺ) فيحدِّثُنا عن الجنَّة والنَّارِ، فترقُّ قلوبُنا حتى كأنَّها رأيُ عَينٍ أمامنا، قال: فإذا خرجنا مِن عنده لاعبنا الصِّبيان وعافَتنا النِّساء فنسينا كثيرًا، فقال له أبو بكر: والله إنِّي لأشعر بما تشعر به فعلاً، أنا عند النَّبيِّ (ﷺ) قلبي رقيقٌ وأذكر الجنَّة والنَّار، ولكني إذا ذَهَبْتُ إلى أهلي؛ ذَهَبْت عني تلك الرِّقَّةُ وذلك اللينُ.. وهذا يا جماعة أمرٌ طبيعيّ؛ فأنت عندما تُصلِّي وتدعو وتبكي؛ مِن الطبيعي أنْ يكون قلبُك رقيقًا، فإذا انتهت الصَّلاة عاد قلبُك لحالِه، أو على الأقل ذَهَبَت الرِّقَّة، وقَلَّت على الأقل، فأبو بكر قال لحنظلة: تعال لرسولِ الله (ﷺ).. وهذه القضيَّة يا جماعة ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ﴾..

اليوم الاتِّصال بالعُلماء وشِكاية الحال إليهم أصبح يسيرًا، مِن خلال رسائل الجوَّال، أو مِن خلال البريد الإلكترونيِّ، أو من خلال الدُّخول إلى المواقع، أو الصَّلاة معهم، أو الاتِّصال بهم في القنوات الفضائيَّة، وليس شرطًا أنْ تذهب إلى العالِم المشهور أو الدَّاعية المشهور، لا تذهب إلى مَن وقته مزحومٌ، بل القَضيَّة أنْ تذهب لكلِّ مَن كان عنده عِلمٌ شرعيٌّ، حتى ولو كان أقلَّ شهرة، أهمُّ شيءٍ أنْ يكون عنده علمٌ شرعيٌّ يستطيع أنْ يحلَّ لك مشكلتك، فحنظلة ذهب إلى أبي بكر، فربما كان النَّبيُّ (عليه الصَّلاة والسَّلام) مشغولاً بأمورٍ، فمع وجود النَّبيِّ (ﷺ)؛ ذهب إلى أبي بكر، وقال: نافَقَ حنظلة..

جاء حنظلة وأبو بكر إلى سيِّدنا رسولِ الله (ﷺ)، دخلا عليه المسجد وجلسا، قال له حنظلة: يا رسولَ اللهِ، نافَقَ حنظلة، هو يظنُّ أنَّه نِفاق، قال (عليه الصَّلاة والسَّلام): وما ذاك؟، فقال: إنَّا نكون عندَك يا رسول اللهِ، تُحدِّثنا عن الجنَّة والنَّار، فترقُّ قلوبُنا حتى كأنَّها رأي عَيْنٍ أمامنا، فإذا خرجنا مِن عندِك؛ لاعبنا الصِّبيان وعافثنا النِّساء، فنسينا كثيرًا، فحلَّ له النَّبيُّ الموضوعَ مباشرةً، حنظلة كان أعطى الموضوع في داخله حجمًا، حتى إنَّه لو لم يأتِ إلى النَّبيِّ (ﷺ)، ويتصارح معه ويفضفض له ويُخْرِجُ ما بصدره؛ ربما أدَّى به ذلك إلى نفاقٍ حقيقيٍّ، ربما قال في نفسه: أنا منافقٌ وسأتُرك الصلاة وسأترك الصَّوم، ربما جرَّه الشيطان إلى هذا، ولكنه جاء مباشرة إلى النَّبيِّ (عليه الصَّلاة والسَّلام)، ومُباشرةً فكَّ الموضوع أمامه، قال: يا رسول الله سبب النفاق إنَّنا عندَك نكون أرقَّاء في القلب، ثُمَّ إذا تركناك؛ عُدْنا إلى حالنا الأوَّل، فقال له النَّبيُّ (ﷺ): واللهِ يا حنظلة لو أنَّكم إذا فارقتموني تكونون على مِثل ما أنتم عليه عندي لصافَحتكم الملائكة في طُرُقكُم وفُرُشِكُم، أي يا حنظلة، من الطبيعي أن يتقلب قلب الإنسان، ثُمَّ قال (عليه الصَّلاة والسَّلام): ولكن يا حنظلة هي ساعةٌ وساعةٌ [رواه البُخاريُّ]، يعني ساعة بكاء وخشية، والسَّاعة الأخرى ضَحِكٌ وأنسٌ وسرورٌ، ولكن يا حنظلة ساعةٌ وساعةٌ.

وينبغي علينا أن نفعل كذلك كما فعل مَرْثَد (رضي الله عنه) عندما وقع في هذا الإشكال، فمباشرةً رَجِعَ للنَّبيِّ (ﷺ).. فإذا وَقَعَ شابٌّ أو فتاة في إشكال، فينبغي أن يلجأ إلى أهل الثقة والعلم والدين، وعلى هؤلاء

أن يستمعوا إليهم ويساهموا في حل مشاكلهم، وأن يكونوا على قدر الثقة والمسئوليَّة، فلا تستقبل مشاكلهم وتفضحهم في كلِّ مَوْطنٍ، كلا، أمسك لسانَك واحفظ سرَّهُ..

أسألُ اللهَ تعالى أنْ يعصِمَنِي وإيَّاكم مِن الزَّلَلِ، وأنْ يجعلني وإيَّاكم نافعين ومُنتفعين..



المتحويات



Dr. Mohammad Al-Oreifi





إن الحوارات الراقية، المنسجمة مع نداء الفطرة، المثيرة في جانب الحجة، الواردة في أسلوب قصصي شيق، يجعل للكلام معنى آخر، وعمقاً أكبر.

في هذا الكتاب الممتع وقفنا عند مجموعة من الحلقات المهمة والنافعة والواقعية الجاذبة التي قدمها د. محمد العريفي بأسلوبه الشيق، وأعدنا نشرها في صورة كتاب مؤلَّف، يجعل القصة مشبعة بروح (د. العريفي) كأنك تسمعه، وبأسلوب الإمتاع التأليفي كأنك تقرأ كتاب تاريخ، للتلذذ بالعبارات، وتغوص في أعماق الدلالات والإشارات والتأملات.

الناشر



دار وجوه للنشر والتوزيع
Wojooh Publishing & Distribution House
www.wojoooh.com

المملكة العربية السعودية - الرياض
ت: ٤٩١٨١٩٨ فاكس: تحويلة ١٠٨
للتواصل والنشر:
wojoooh@hotmail.com

